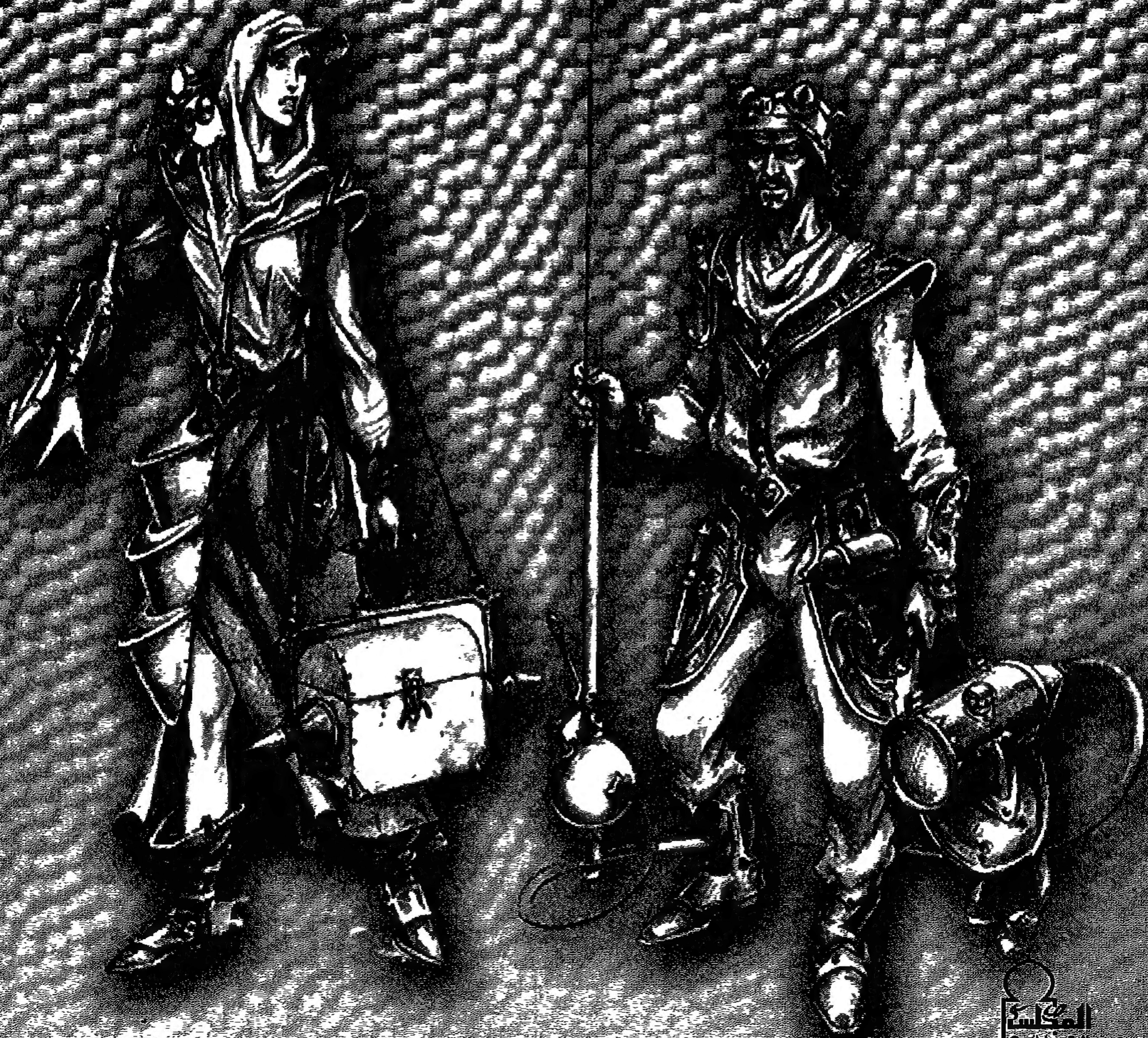
سكان العالم الثاني

رواية من الخيال العلمي

نهاد شريف



المجلس الأعلى للثقافة

المجلس الأعلى للثقافة

سكان العالم الثانى

رواية من الخيال العلمى

نهاد شريف



٢٠٠٥

المجلس الأعلى للثقافة

اسم الكتاب : سكان العالم الثانى

رواية من الخيال العلمى

اسم المؤلف : نهاد شريف

الطبعة : الأولى - القاهرة ٢٠٠٥م .

شارع الجبلاية بالأوبرا - الجزيرة - القاهرة ت ٧٣٥٢٣٩٦ فاكس ٧٣٥٨٠٨٤

El Gabalaya St., Opera House, El Gezira, Cairo.

Tel. : 7352396 Fax : 7358084

مهداه ...

إلى حفيدىّ ريم ومروان حاتم شريف ..
اللذين على أكتاف جيلهما ينتظر مد الصرح
العلمى الجديد .. والأكيد .. بكل محتواه
من تحديث ورفعة وتفوق لمصرنا ،،،

نهاد

تقديم

عبر سنوات عمرى الحافلة بالقراءة والاطلاع ، المنغمسة فى التخيل والفحص والتسجيل ، وبخاصة من منظار الخيال العلمى .. طالما سألت نفسى عن الجهود الجادة الدؤب التى قام ويقوم الكائن البشرى بأدائها منذ قديم الزمان ، منذ أول ظهوره بصدق وتفان من أجل سلامته وبقاء نسله ورسوخ قدميه وتمكن قبضته .. تثبيتا لتفوق عنصره على عناصر بيئته فوق سطح كوكب الأرض .

فكنت أجابه بالمئات بل الآلاف من الخطى المذهلة التى بذلت وما تزال تتسارع إلى يومنا فى مجالات عدة كالطب والكيمياء والتشييد والصناعة والاتصالات وغيرها . إلى جانب كشوفات ومخترعات لا حصر لها شملت كل كبيرة وصغيرة فى حياة الإنسان واستخداماته والدفاع عنه ، أقربها ما لحق الإلكترونات من تطور مدهش عقب هبوط الإنسان على القمر ، وذلك للأخذ بيده والارتقاء بمستواه والحفاظ على نسله وبقائه وتقدم حضارته فى كافة مناحى استقراره ، وليصل إلى ما وصل إليه من تطوّر واختلاف كامل يفوق ما كان عليه أسلافه .

لكن هل ظلت جهود هذا الكائن البشرى دائمًا صائبة وسليمة ومخلصة ومنزهة عن أى ما يضر جماعاته ونسله وجيرانه ؟ بل وما يهدد بإبادته ومحوه من على كوكبه ؟ والإجابة بالطبع هى النفى . فطالما عبث الإنسان على أيدى العديد من علمائه بالقيم الواجب اتباعها واحترامها وعدم المساس بها ، وأكم من مبررات مغلوطة اختلقها ومفاهيم مرفوضة أقنع نفسه بها قبل غيره بل وكابر على ترديدها فى دهاء أو غباء ، من أجل أطماع وأغراض منحرفة ، وغير سوية ولا بريئة عما يضر الإنسان فى صميم موقعه ووجوده ، والتى دوما يسجلها التاريخ بالتسلط والانحطاط ومنتهى الحمق !! وعندئذ كانت تثور فى أعماقى شتى الرؤى المؤلمة تعتصر جنبات رأسى ، وتلقى بى

فى أتون ما ينتظر كوكبنا ومخلوقاته حينذاك من تهلكة وإفناء ومحو جائر لكافة ما عليه من حياة ، وعودة به إلى بدايته الأولى كمجرد جرم صخرى باهت خال من الحركة والأصوات والأنوار اللهم ضوء الشمس نهارا !!

فأى كارثة نوجدها بأيدينا، وأى تجنى نلحقه بأفرادنا، والأهم أى عقوق نجابه خالقنا ورب نعمتنا ؟

وأبقى غارقا فى حيرتى شارداً شقياً وسط تضاد أفكارى ومشاعرى مع المشاهد المأساوية لحماقات وفجور عصرى ، وأنجذب برغمى لألف وأتخبط بداخل دوامة عارمة لا يتوقف فورانها المرعب إلا بين حين وآخر لدى طرح استفسار مبهم مضطرب الإيقاع ، أجل ... "وما الذى يمنع تكاتف الدول ، كافة الدول ، أو بعضها .. أو لنقل ولو دولة واحدة أمينة بينها ، لتنبذ العبث نهائيًا بالإنسان هذا المخلوق الضعيف رغم قوته الظاهرية ، وتكف عن سحقه على أية صورة من الصور أو أى مسمى مختلق ومغرض من المسميات ... وآخرها إطلاق صفة الإرهابى على من يدافع عن بلده المسلوب" . وإلا فهل خلا كوكبنا الرحب العليل الذى يضم بديع خلق الله وأرق وأجمل موجوداته . هل خلا كلية من الرغبة التى تنشد حب وتكريم ورعاية ابن آدم وتصر على عدم السماح مطلقًا بمس شعرة واحدة عبر الملايين من رءوسه ؟

نهاد شريف

القسم الأول

برقيات لاسلكية شاردة

الفصل الأول

"ستراسبورج – شمال شرق فرنسا – الساعة ٧ صباحا ٢٠٩٩/٥/٢٩ ، يوم التاسع والعشرين – من كل شهر – غالبًا ما يكون يوما عاديًا – راكدا ، فهو واحد من أيام أخيرة مهملة ، ثم هو نادر الذكر فى صفحات التاريخ .. التى ولد فيها عظماء أو قامت أثناءها ثورات أو أحداث كبرى مثيرة .

إلا أن له أهمية خاصة لدى من يتقاضون راتبا محدد ، فهو السابق ليومين يعقبهما تناول (الصك المالى) بكثير حماس ، وفيه يبدأ التفكير الجدى فى أوجه أنفاق الراتب ونواحى بعثرته المتشبعة .

على هذا المنوال جلس الضابط بالقوات المسلحة الفرنسية يفكر وهو قابع فى مكمنه الحصين أعلى منصة إطلاق الصاروخ العملاق الذاتى التصرف (س . س . ب س . ٣) ، وقد راح يفكر فى صديقته الحسناء مود ، وكيف سيمضى إجازته المرتقبة معها . إنه لم يغادر موقعه طيلة شهرين كاملين وهذا فوق احتمالهما ، على الأقل بالنسبة له هو ، وتذكر ثغرها ، ووفائها لأعوام أربعة مغتربا عنها ، لابد أن تكون هديته لها هذه المرة قيمة ، إن نصف راتبه ليس بالشئ المغالى فيه .

وعاد الضابط الشاب ذو التسعة والعشرين ربيعا والحاجبان الكثيفان والذقن الرفيع المدبب ، عاد يتناول إيراده ومدخراته بالتقليب والفحص .

وقد طالعته مرتفعات الفوج تسد الأنق سامقة شامخة عن يمين والطريق إلى مدينة ستراسبورج يرقد عن يسار ، فى حين تمتد لدى الأفق أطراف الغابة السوداء المتاخمة للحدود الألمانية ، حيث قدم الغزو الهتلرى منذ قرابة مائة وتسعة وخمسين عامًا مضت :

على أن صوت رفيقه جندى اللاسلكى قطع عليه تصوراته بعرضه برقية شاردة التقطها جهازه على غير انتظار .

تصفح الضابط الشاب كلمات البرقية ، حاول استيعاب فحوها ، ورغم إحساسه بعدم جديتها ، فقد أشار على الجندى الذى أطارت رصاصة طائشة أذنه اليمنى منذ أعوام يضمن تقريره اليومى صورة لها ، ثم عاد يرقب السحب القاتمة التى تحجب قرص الشمس ، تلم أطرافها فى تثاقل خلال قدومها من قمم الفوج ، وقد استغرقته أفكاره وطوته فى أعماقها .

* * *

"طريق الساحل إسكندرية / بنى غازى – منتصف المسافة بين سيدى برانى والسلوم – ثم إلى الجنوب من هذه المنطقة الساحلية بثلاثة كيلو مترات – الساعة ٨ صباح ٢٠٩٩/٥/٢٩

أشجار الخوخ المزهرة دواما حالمة المظهر ، أريج أزهارها البمبية اللون نفاذ ، مسكر ، مع النسمات يرحل بعيداً ، لينشر رائحة الربيع أينما يحل .

ومع أن الفصل الباسم كان يلم أشتاته أمام قيظ الصيف المبكر ، إلا أن مرأى السياج من أشجار الخوخ التى تأخر إزهارها للآن كان رائعًا ، يبعث البهجة ، بالرغم من قسوة الرمال الصامتة أبدا ، الغامضة ، الممتدة جنوباً إلى ما لا نهاية . ووحشة المياه الداكنة ، المتزايدة ، المتصارعة فى كل لحظة مع صخور الشاطئ بطول الساحل شمالاً .

كان السياج المزهر واحة حقيقة .

وكان ساترا كذلك ، فقد حمى معدات المحطة المتنقلة من وهج الشمس صباحا ، ومن هبات الريح ورطوبة البحر ليلا .

واحتضن الجيولوجى محمد جهاز مذياعه الترانزستور وهو يستقبل نسيم البحر يملأ رئتيه وراح يفكر ، أعقل الخبراء وأكثرهم حنكة وتفاؤلا ! ، لم تطف

برأسه هذه الرؤية كما ظلت تراوده وتملأ عليه مخيلته . قد تحققت أخيراً ، مصر بلده ، وفى أقل من عشرين عاما . أصبحت بالفعل رابع دولة عالمية تنتج النفط الخام وتصدره .

وراح الجيولوجى محمد يتمتم لنفسه فى نشوى وثغره على اتساعه .

– الولايات المتحدة ٤١٠ مليون طن مترى فى العام ، وروسيا ٣٤٠ مليونا ، وفنزويلا ١٩٠ مليونا ، والرابعة مصر ١٦٥ مليون طن مترى فى العام .

ونبهه إيقاع ناشذ هز المذياع فى راحتيه إلى انتهاء الأغنية ، فأسرع يجول بالمؤشر الفسفورى بين محطات أخرى ، فقابلته كلمات أجنبية لا يفهمها ، تلتها تمثيلية بالعربية الفصحى ، وهذه أصوات تشبه دق الزار ، وموسيقى جاز صاخبة ، ثم استوقفه صوت أجش ، ولكنه جاد ، يتكلم بإنجليزية سليمة ، وتسللت إلى أذنيه فقرات رسالة غريبة .

هل يعقل ما تعنيه كلماتها ؟

... آه هى إذاً تمثيلية أخرى أجيد إخراجها .. ماله ومعانى الحرب ، الدمار ، أولى بتفكيره ما يبذل من أجل النماء والبناء ، وخطة بلده منذ حل بها السلام سائرة فى الاتجاه الأخير .

وعاد الجيولوجى محمد بمشاعره ، بشغفه وحبه إلى حقل النفط الجديد ، حقل زهرة الخوخ كما أسموه .

* * *

"أوكلاهوماستى – جنوب وسط الولايات المتحدة الأمريكية – الساعة ١١,١٠ مساء يوم ٢٠٩٩/٥/٢٨" .

كانوا يلقبونه "بالقط الشرس" ، وكان يعارض هـذه التسمية ، يثور عليها ويأباها ، فهو وديع ومخلص وطيب القلب فى أعماقه . وإذا ما نشروا صحيفتة الحافلة أمام عينيه فإنه كان يعزوها إلى نشأته الضائعة فى ظل أب معلول البدن ، وأم احترفت بيع جسدها مقابل سنتات كل ليلة . وطالما صرخ من جذور عقله ، إنه لو أعطى الفرصة لتغير مجرى حياته ، ولأصبح له بيت ، وزوجة ، وأطفال ، فهو يحب الصغار وطالما اشتهى أن يكون أبا .

والآن ، هذه الشابة المرتجفة التى ساقها القدر إلى طريقه وهو فى دوامة مهمته فى تلك الساعة المتأخرة من الليل القارس ، إنها تحتضن ابنها الذهبى الشعر ، تحميه بذراعيها من غدر قطعة الحديد الباردة التى يغرسها فى جبهتها .. إنها لا تعلم بمدى إشفاقه على الصغير البرىء ، بمدى لوعتـه حين يواجه بقسماته الغضة ، بنظراته الملتاعة تتسمر ولا تحيد بالساق التى شوهها الشلل اللعين وقد ارتكن عليها متعبا متحيرا . إنها لا تدرى أنه لا يجرؤ على قتل طفلها ، ولا أى طفل آخر . صحيح قد دفع لاعتراض البعض برصاصاته ، لكنه كان مضطرا ، والآن يعانى نفس الاضطرار ، إنه يستتر وراء قامته العملاقة وشكله المرعب ، يلوح بسلاحه الذى لن يستخدمه إنما يبرزه فقط لحماية زملائه بالداخل ، وما حمله للجهاز الحساس للإرسال والاستقبال إلا لتحذيرهم عند الضرورة .

– أتوسل إليك نح عنى فوهة مدفعك ..

– لا تخافى ... مادمتى صامتة ، ساكنة ، فلا داعى للخوف .

– قد ينطلق بالرغم منك فيصيب الصغير .

– إنه موجه إليك وليس إليه ... فاصمتى ...

– وقد أهتز أنا ، أو تهتز أنت ، فتنطلق الرصاصة وتصيبه وهو ملتصق بى .

وكاد يلطمها على فمها لسوء ظنها به ، وكاد يصيح إنه محال أن يفعلها ، لكنه آثر الصمت ، وقد أذعن فخفض فوهة مدفعه الحديدية فى هدوء .

وطال انتظاره ، أحس الوقت جبلا يجثم عليه يأبى إفلاته ، وكانت أذنه ترقب عن طريق جهازه بصبر نافد تحركات رفاقه بالداخل ، ومن خلال سماعة الجهاز التقطت أذنه أيضاً الكلمات المبهمة بإنجليزية تقليدية لم تتآكل أواخر حروفها كما يفعل هو حين يستعملها ، ولكنه وعى أغلب مضمونها ، بل كادت كلمات البرقية أن تنسيه موقفه الدقيق لحماية رفاقه فقد أثارته معانيها فهى تدور حول بلدة الذى يقدسه . وحين تتالت كلمات أخرى بلغة مختلفة يظن أنها الروسية فقد ضبط جهازه ليتابع اتصاله بالرفاق وتحركاتهم ، حسب الخطة .

وجاء صوت زعيمه فى النهاية : " أنجزنا المهمة ونحن قادمون الآن " . وسرعان ما انتصب يتشبث بمدفعه الرمادى الأغبر فى عصبية بينما أسنانه من تحت شاربه الكث المستعار تأمر السيارة اللاندروفر بالتأهب ، وبرزت السيارة ، لحظة خروج الرفاق بالغنيمة الورقية الرائعة ، ثمانية وأمامها ستة أصفار من الدولارات .

وابتلعت السيارة أجسادهم وأدواتهم ، والغنيمة ، وانطلقت تسابق الريح .

وفى مساء اليوم التالى ، بعد تقسيم الغنيمة وتفرق الرفاق كل فى طريقه ، وبعد أن غير من هيئته المرعبة قدر ما يملك من أدوات التنكر لتعطى انطباعاً شفوقا ، فإنه لم ينس قبل أن يدلف إلى عربة القطار السريع المتجة إلى غرب الولايات ، أن يلقى فى صندوق خطابات المحطة بمظروف صغير أودعه صورة البرقية اللاسلكية بعد أن عنونه (إلى القيادة الإستراتيجية العليا للقوات البحرية الأمريكية) .

* * *

"على أن الوضع كان أكثر توفيقا مع ربان سفينة الشحن التى كانت تتوسط فى تلك الآونة خليج المكسيك تتقدم قاصدة ميناء أورليانز على بعد يزيد ثمانين كيلو مترا من مكان حدوث سرقة البنك بتوقيت يزيد بعشر من الدقائق فحسب .

ففى إنجليزية ركيكة تختلط بلكنة يابانية – فالربان يابانى على سفينة يابانية تحمل أكداسا من معدات إلكترونية دقيقة – اتصلت سفينة الشحن حاملة علم قرص

الشمس المتوهج لاسلكيا بمدمرة قريبة تحمل العلم ذى النجوم الخمسين على رقعة زرقاء يقابلها سبع من الخطوط الحمراء المستعرضة ...

وبدوره نقل ربان المدمرة فحوى الرسالة العصبية إلى رئاسته العليا فى قلب العاصمة التى يقف على بابها تمثال الحرية العتيد .

* * *

"مشارف لندن – عاصمة المملكة المتحدة – الساعة ٦,٣٠ صباح ٢٠٩٩/٥/٢٩" .

من أعلى الدرج هبطت الأقدام فى خفة ورشاقة ، يكاد لا يسمع لوقعها صوت ، حتى لامست الأرضية الدافئة المغطاة بسجادة ناعمة الوبر جلبت من الشرق .

وتوقفت الأقدام قبالة خمسة من الرجال جالسين فى نصف دائرة ، أربعة منهم شبان تتراوح أعمارهم بين العشرين والستة والعشرين يرشفون الشاى ببطء بينما يتناولون وجبة الصباح من الشطائر والبيض المقلى بالزبد ، والخامس عجوز أحمر الوجه يدخن غليونا قصيرا وقد تاهت نظراته بين صفحات جريدة يقرؤها ، فى حين انزوت سيدة وقور فى الطرف المقابل للحجرة وانهمكت فى تطريز حافة مفرش مسطردى اللون .

ومن فوق اتضحت ساقان يعلوهما ثوب صوفى عليه رسومات بنية تختلط بساحات برتقالية زاهية .

– اقرأ هذه ياجون .

وأمسك الفتى بالورقة التى دستها أخته بين أصابعه ، ألقى عليها نظرة فاترة .. قلب شفتيه ، واكتفى بأن وضعها قبالة الأخ التالى لجلسته وقد خرجت كلمة " هراء" خافتة من بين أسنانه البارزة ، على أن الورقة تنقلت من الثانى إلى الثالث دون تعليق . أما الرابع فقد رفض حتى أن يلقى ببصره على محتوياتها وإنما أزحها من أمامه بطرف سكينة فى برود .

– أبى .

حول العجوز مقلتيه إلى ما وراء زجاج نظارته السميك ..

– نعم ؟

جمعت الفتاة أطراف شجاعتها وهى تعبث بخصلاتها فى عصبية ، تزيحيها أماما ثم تعود فتلقيها خلفا بلا هدف : لقد بعثوا يهددون بحدوث كارثة مخيفة .

– آه .. من هم ؟

– لا أدرى ، اقرأ هـذه .. أرجوك .

وقرأ العجوز السطور المائلة الأحرف فى اهتمام حتى نهايتها ، ثم ابتسم :

– من أين جئت بهذه الأفكار ؟

اتضح الرجاء فى عينى الفتاة : إنها رسالة تلقيتها توا باللاسلكى من جهازى بحجرة السطح .

– باللاسلكى .. هه .

– هو ذلك ، وقد كانت الكلمات بعيدة ، وغير واضحة ، لكنى استعطت أن ألتقطها وأسجلها دون نقصان .

بلع العجوز ريقه وحملق فى الورقة برهة ، ثم عاد يتفرس فى وجه ابنته بخبث :

– بالتأكيد ، إنها مزحة أحد هواة اللاسلكى من زملائك ، يتقن لعبته .

وأضافت الأم من مكانها المنزوى وهى تتنهد : يالها من هواية تأخذ كل وقتها .

– وقد تكون صادقة يا أماه .

على أن الأب عجّل بقوله وقد مط شفتيه وكرمش أنفه : وما شأننا نحن بمثل هـذه الأمور .

– واجبنا يا أبى أن .....

قاطعهـــا الأب بلهجـة حاسمة : واجبنـــا أن نهتم بما يعنينا فحسب ، وندع ما لا يعنينا لذوى الاختصـاص والشأن ، ومن أدراكى أن أجـهزة الاستمـاع بالدولة والأقوى من جهـازك بآلاف المرات لم تسجل الرسـالة ، اطمئنى يا ابنتى ، لابد وأنهم قد عرفوا بأمرها منذ أمد بعيد ، بعيد جدا .

مدينة تكسى – على مصب نهر لينا – بأقصى الشمال لسيبيريا – بالاتحاد السوفيتى – الساعة ٢ مساء ٢٠٩٩/٥/٢٩" .

ألقى الجندى نيكولاى نظرة أخيرة على لوحة الرادار المجسم قبالته ، ولما اطمئن إلى أن كل شئ يسير سيره الطبيعى .

فى تلك المنطقة من الأصقاع السيبيرية النائية حول أزراره إلى التشغيل الآلى والإنذار متى دعت الضرورة .. وفى بطء وملل تفرضهما رتابة العمل الذى يؤديه تُدثر فى معطفه السميك من فراء الدب القطبى ، وأوقف عمل المدفأة الإلكترونية ، ثم أطفأ نور المقطورة السميكة الجدران والجاثمة وراء تل ثلجى مدببة أطرافه فى تجاه الشمال وخرج .

صفعته فى الخارج هبات زمهرير قاس جمدت أنفه وخديه . بينما طالعته لسات ضوء شاحب آخذ فى الازديـــاد حيث يقبل النهار الصيفى الطويل ليدوم لشهور ثلاثة متواصلة .

على أنه وقد هم بإغلاق باب المقطورة سمع فحيح جهاز الاستقبال القوى يصفر إيذانا بورود موجات بث غير عادية .

عاد نيكولاى إلى الداخل .. وفى الركن المقابل للوحة الرادار المجسم وقف بقامته الفارعة دون أن يخلع معطفه ، وبحركة تدل على الضجر وضع سماعتى جهاز الاستقبال على أذنيه وأخذ فى التنصت وهو لا يعى معنى الكلمات التى تترى فى وحده أكثر من أنها باللغة الإنجليزية . فلما توالت كلمات جديدة بالروسية لغة قومه نشط لتسجيل فحواها بمنتهى الدقة وقد تيقظت كل حواسه .

ولم تمر دقائق عشر حتى كان الجندى نيكولاى يضع نص البرقية الغريبة أمام عينى رئيسه الملازم ذى الشارب الرفيع واللحية القصيرة .

توقف الملازم عن تناول طعامه المكون من شرائح الوعل المقددة ممزوجة بالنبيذ وحلقات فطيرة (الكولييباكا) المحشوة بمفروم السمك المتبل .

– أمتأكد أنت من أن كلمة واحدة لم تختلط عليك ؟

– كل التأكيد يا سيدى الملازم .

فعاود الملازم تفرسه فى الكلمات القليلة ، المعقدة ، وراح يتفحص سطورها عله يكشف ما تخفيه من أسرار : هذا أمر بالغ الخطورة ، خاصة وأن الرسالة ، أو قل الإنذار ، لا يحمل توقيع مرسليه ، أليس كذلك ؟

هتف الجندى : لا ، لم تلتقط إذناى اسم أى دولة أو بلدة أو جماعة تنسب الكلمات التى يلقيها صوت أجش إلى نفسها .

أنكب الملازم يغرس وجهه فى أعماق الورقة من جديد وقد نسى طعامه البارد وخمدت كل شهية لتناوله ، وقد حدق فى وجه الجندى فجأة ، وبادره بسؤال خاف أن يفلت منه : هل أمكنك تحديد مصدر هذا الكلام ؟

– حاولت قدر جهدى ، وأستطيع التأكيد بأنه مكان ما بجنوب الصين ، أو سومطره !

تبدت الدهشة على وجه الملازم : ولكن ، ليست بيننا وبين الصين نوايا عدوانية ؟؟

فخطا الجندى خطوة مؤدبة إلى الأمام يبدى رأيا بنغمة منخفضة ، مترددة :

– ربما هى خدعة أمريكية .

– كيف ؟ ألم تذكر جنوب الصين ؟

– إن الأساطيل الحربية تجوب كافة البحار يا سيدى .

وامتعض الملازم للملاحظة إلى فائتة فقال بجفاء : الأمريكيون مشغولون هذه الأيام برحلتهم الكونية السادسة لإنزال بشر على المريخ .

– إذن فهى خدعة من دولة صغيرة تهدف الوقيعة بين الدول الكبرى على أن الملازم قاطع الجندى نيكولاى وهو يهب واقفا ويأخذ المنشفة يجفف بها فمه :

"دع التفسير بالعاصمة ، المهم الآن أن يبادر بإرسال نصها إلى موسكو بالشفرة السرية" . قالها الملازم وقد نسى كلية فى غمرة انفعاله أن ورود الرسالة الغامضة أصلا إنما كان بلغتهم العادية ، المفتوحة لملايين الآذان .

* * *

"راس كاماو على خليج سيام – جنوب سيجون عاصمة الإقليم الجنوبى لفيتنام – الساعة ١,٣٠ مساء ٢٠٩٩/٥/٢٩ "

– ماذا ؟ سقطت ؟ انفجر ذيلها فى الجو وسقط الجسم والذيل كل على حده ، تحطما ، أعمال تخريبية دون ريب . لا أحياء طبعًا ، لم تتبينوا بعد ، اسمع ، على فرق الإنقاذ القريبة أن تبادر بالبحث عن الأحياء ، إذا وجدتم فأسعفوهم . ماذا ؟ أجل ، لكن لا تدع أحد يعبث بالحطام . لا تلمسوا الأنقاض ، لا تلمسوا الأنقاض – لا تلمسوا أى شئ حتى مقدمى – اسمع ، اضرب حصاراً قويا حول الحطام ولا تدع أحداً يقترب ، فالطائرة كانت تحمل شحنة من الماس ، بالتأكيد حقيبتين ممتلئتين . حسن ولا إدلاء بأى معلومات للصحفيين . الصمت ، حتى ينجلى الموقف ، وأنا قادم توا خلال ساعة سأكون بينكم .

وأسكن القائد قصير القامة سماعة التليفون مكانها بعنف ، ثم استدار يتناول أدواته فى سرعة فائقة . المسدس ثبته حول وسطه فى ثانية ، وثانية أخرى لوضع القبعة الخضراء على رأسه الأصلع ، وثالثة ليغيب علبة النشوق داخل جيبه ، ولم ينس فى الثانية الرابعة أن يبتلع بقية كوب الشاى رغم سخونتها ، ومن أسفل علم جمهورية فيتنام الموحدة الذى يعتلى مركز قيادته الخشبى ذى الطابقين ، اندفع جسده الممتلئ كالقنبلة وهو يغلق أزرار سترته ، يتبعه رهط من ضباط فرقته وهم يتلقون شتائمه وأوامره فى حيرة فلا يستطيعون التمييز بينها .

وفى سرعة البرق اندفعت سيارة الجيب خلال ممرات الغابة المظلمة ، واندفع فى إعقابها لوريان ضخمان يجاهدان لإدراكها وقد ناءا بحملها الثقيل من جند وأسلحة رشاشة .

وقبل أن تنقضى ستون دقيقة وصلت القافلة إلى حيث حلقة الحصار المضروب حول دائرة يزيد اتساعها عن ثلاثة من الكيلو مترات .

ومن جمود وجه الضابط النحيف الذى هب لاستقبالهم عرف القائد أن ركاب الطائرة قد لاقوا حتفهم جميعًا ، على أن القائد لم يأبه طويلا بما ارتسم على وجه الضابط وإنما تعلقت عيناه بالحقيبة السوداء التى يحملها يمينه :

- أرى أنكم عثرتم على واحدة ، فأين الأخرى ؟

- لم نبدأ التنقيب بعد وما وجدنا هذه إلا مصادفة ، كل شئ أرجأناه لحين حضورك ، شخصيا .

- عين العقل ، فهيا بنا .

وبداخل قبضة إحدى الجثث عثروا على ورقة سميكة مطوية كانت الجثة سليمة ، وبالتالى لم يمس الورقة سوء ، وإنما بدت ظاهرة للعيان وقد تيبست فوقها الأصابع الباردة تأبى تركها حتى بعد الموت وحين انتشلها القائد بصعوبة ونشرها أمام بصره قرأ عليها آخر ما كان يتوقعه :

"إذاعة لاسلكية تم التقاطها فى تمام الساعة ١٣,١٥ دون معرفة مصدرها ومرسلة إلى قادة الأساطيل الحربية الثلاثة - الأمريكى والسوفيتى والصينى - بأعالى البحار ، وتعلن لهم :

(وحتى لا تتم الضربة مفاجأة ، وإنما لتأخذوا فى الحسبان إبعاد العنصر البشرى منعًا للضحايا .. ففى تمام الساعة ١٢ ظهراً وبالتوقيت المحلى لجرينتش من يوم ٢٠٩٩/٥/٣١ سوف تنسف أكبر قطعة بحرية لكل أسطول من الأساطيل الثلاثة أينما كانت بهدف إغراقها حتى تختفى كليــة تحت البحر الذى يبتلع كل لقمة سائغــة دون مــا شفقة أو رحمة) .

وقبل أن تستوعب أعين مرافقيه بقية سطور الورقة كانت أصابع القائد تعتصرها وتلقى بها بعيدا فى غضب وحقد وأضحين .

– سحقًا لأساطيل الجن برمتها ، مالنا وإياها فى مثل لحظتنا الحرجة هذه .

وأعادت النظرات المتسائلة القائد إلى وعيه فازدادت ثورته وهياجه :

– ما هذا ؟ تحركوا يا رجال ، لابد لنا من العثور على الحقيبة الثانية بأى ثمن ، تحركوا ولا تحملقوا فى إلى الأبد .

* * *

هؤلاء كانوا أول أناس التقطوا بداية البث الغامض للبرقيات الشاردة .

ثم تتالت بعدئذ على فترات متقاربة وبصورة أعم وأشمل إذاعة نصوصها باللغات الإنجليزية فالروسية والعربية ثم الصينية على التوالى منتشرة فى كافة بقاع الكرة الأرضية ليعرف مضمونها بقية من يسكنون سطحها .

ولقد تباين موقف الدول والشعوب إزاء ما تضمنته فقرات البرقيات وما تعنيه ولو كانت صادقة بالفعل واختلفت آراؤهم اختلافًا شديداً حولها .

على أن شيئا واحد بقى سرا مغلقا لم يتوصل إلى حله أحد من الناس ولا حتى مايستخدمونه من حاسبات إلكترونية معقدة تحل المسائل والألغاز . كثيرون حاولوا ، كثيرون جاهدوا ، ولكنهم جميعًا عجزواعن معرفته ولو تقديريا .

ذلك هو تحديد المكان الذى خرجت منه هذه البرقيات المريبة الغامضة ومن هم مرسلوها .

* * *

الفصل الثانى

على الرغم من صفاء السماء ووضوح قرص الشمس كبيراً متألقًا وهو يأخذ طريقه نحو المغيب غربيًا . فقد كانت صفحة المحيط مضطربة ، عالية الموج ، ومن ثم فقد راح مقدم السفينة العملاقة يعلو ويهبط فى عنف وكأنه بناية مهولة من ثمانية عشر طابقًا تنقذف إلى أعلى ، فإذا ما شبت واستقامت ، يعتريها الوهن فتنهار ، وتعود تغوص ، وتغوص إلى الأعماق .

ومن خلف سياج حديدى والهواء يلفح وجهه وياقة صدريته البيضاء فى هبات متلاحقة أخذت عيناه تجوبان الفضاء الذى ينفتح قبالته فلا يتضح له أول من آخر .

لا شىء يرى على امتداد البصر متوغلاً أميالاً وراء أميال سوى الكرة البرتقالية الهابطة غربيًا ببطء ، وتلك العتمة تحط شرقًا كلما ازداد هبوط الكرة وقل ضياؤها .

وعلقت عيناه ببقعة زيت تعتلى رقعة الموج ، وهى واحدة فى شريط طويل من البقع الخضراء الداكنة المتأرجحة الأطراف ، منذ نهار وليل ونهار تال وهم لا يقابلون سوى هذه المخلفات اللنجة ثقيلة القوام .

وسبقته أفكاره على متن البقع السابحة مع التيار ، إن أحدث حاملة نفاثات أمريكية وأضخمها حجمًا وأقواها فى مولداتها النووية وفيما تحمله من أحدث النفاثات التى تفوق سرعاتها وسرعة الصوت أربع مرات ، هى تلك التى يقف على سطحها الآن بينما يشق مقدمتها الضباب آخذًا طريقه رأسًا نحو قارة استراليا .

لم تكن الرحلة بالأمر الجديد على الرجل ، وما زرقة المياه وإحمرار السماء ، وحنو الريح ، وتسلل رائحة اليود تملأ أنفه إلا أحاسيس محببة ، وقد خبر هدوء المحيط وصخب عواصفه ، وألفت عيناه مرآى تلوثه ببقع الزيت وبغيرها من الحطام والنفايات .

وتعلق بصره الشارد بمنظر أعجبه ، كانت ناقلة ضخمة من ذوات الحمولة ٩٠٠ ألف طن تسير فى نفس الاتجاه قد لحقتها الحاملة ، وبرغم ضخامة ناقلة النفط بدأ هيكلها قزمًا بالنسبة لجسم الحاملة وعلوها ، وكانت رمادية الطلاء زاهية الأعلام ، تقطر خلفها أربعة من فناطيس النفط الإضافية والمصنوعة من لدين متين قد طلى خارجة باللون الأصفر ، فبدت الناقلة وفناطيسها الأربعة من خلفها كأنه بطة رشيقة يتبعها صغارها الذهبيو الزغب .

على أنه حدق فى البطة وصغارها طويلاً : تبًا لهذا الإنسان أنه يصنع أنفع الأشياء فى أجمل الأشكال وأكثرهم جاذبية .

ثم نقل بصره مع ابتعاد البطة وتخلفها وصغارها إلى شريط الحطام والنفايات ، كانت المقارنة صعبة ، مؤلمة . الإنسان يتوج عبقريته بفنه ، هذا واضح ، لكنه أيضًا يحمل فى أعماقه شيئًا مدمرًا ، هو خليط من الاستهتار والحمق واللامبالاة ، ثم هو برغم فنه ، وبرغم ثراء مواهبه قد غفلت عينه عن جمال الطبيعة التى تحيطه وعن مدى نفعها لحياته .

قلب الرجل شفته وعاد إلى سابق أفكاره .

إلا أن الأمر المستغرب ، الطارئ على مفاهيمه وسنين خبراته والطريف فى الوقت نفسه ، هو إستعداد طاقم الحاملة وتحفزهم وأخذ كامل أهبتهم ضد عدو ، أو خطر ، هم حتى هذه اللحظة يجهلون كنهه تمامًا .

ففى صبيحة يوم ٢٧ مايو – أى منذ يومين – تركت حاملة النفاثات الأمريكية فيلادلفيا التابعة للجماعات الجوية الثامنة والثلاثين منطقة عملها بأعالى الأطلنطى لتتجه جنوبيًا حسب برنامج زمنى أعد لتقوم بزيارة ود للموانئ الأسترالية فالنيوزيلندية ، ثم موانئ خليج العرب ، وبينما الحاملة تواجه الساحل الليبيرى بجنوب غرب قارة أفريقيا ظهر يوم ٢٩ مايو إذ بسلسلة الأوامر المبهمة تنهال على قيادتها .. برفع درجة الاستعداد للحرب لأقصاها ، وإطلاق دوريات نفاثاتها من طراز البرق بكامل عتادها

للاستكشاف والحراسة ، وبإرسال أسطول من ست مدمرات نووية من حاملات الصواريخ الذكية ينضم إليها خلال بضع ساعات للحماية . وكان السؤال التلقائي حينئذ : أهي حرب جديدة في مكان ما قرب المحيط الهادي ؟

ولدى عصر اليوم التالي ٣٠ مايو ، التقطت الحاملة إذاعات إخبارية من محطات بث أفريقية قريبة ، أبرزت كلها نص البرقيات الغامضة التي انتشر سماعها بشتى أنحاء العالم دون أن يعرف من هم مرسلوها .

وكسا الوجوم وجوه ضباط وطياري وبحارة الحاملة ، أمن أجل الرسالة الخرافية تفرض كل هذه القيود على مسار السفينة العملاقة وعلى تحركاتها ، وكان رد الفعل الطبيعي عقب تكرار الكلام عن البرقيات الغامضة ، والتعليق على فحواها ، والتكهن بالغرض من إرسالها بكل الإذاعات المسموعة على ظهر الحاملة هو التراخي والفتور في تنفيذ الأوامر والتعليمات السابق إصدارها . فعلى مدى أميال وأميال لم تقابل دوريات النفاثات أي جسم مريب ، ولم يشاهد طياروها أجسامًا طافية اللهم سوى سفن الصيد المتناثرة بطول الساحل الأفريقي . وقد مرت سبع ساعات ولم تصل المدمرات الموعودة بعد . كذلك فقد تباطأ بحارة الحاملة في ارتداء خوذاتهم والوقوف في أماكنهم المحددة يطويهم الاقتناع باستحالة غرق القلعة الجبارة التي تحويهم ، والتي تضم كل هذه الطائرات ، وكل هذه المعدات والذخائر وكميات الوقود .

دوى في مكبر قريب صوت جهوري يدعو جميع الضباط إلى اجتماع طارئ .

نفض الرجل عنه استغراقاته العميقة مع أفكاره حين سمع اسمه يرد على رأس القائمة المناداة" الضابط الأول جيمس كارتي " .

كانت الشمس قد غربت منذ فترة وهبط الظلام فلم يتبقى من ضيائها غير هالة باهتة تلفظ أنفاسها عند الأفق ، وفي خطوات رشيقة تتفق مع قامته الرياضية وصدره المفتول العضلات في تناسق عبر الرجل الرواق المنحني ، واتجه مباشرة إلى برج القيادة حيث يعقد الاجتماع عادة حول نضد الخرائط وقبالة لوحة الحاسب الإلكتروني المضيئة ذات الأرقام والكلمات المرئية والمسموعة .

فى تعبيرات مقتضبة تغلب عليها الرسمية أخبر أدميرال البحر ربان الحاملة ضباطه بأن عامل اللاسلكى قد التقط منذ دقائق برقية مجهولة المصدر وجهت إليهم ، وفيها ينصح مرسلوها ، وقد بقيت أقل من عشرين ساعة على إغراق الحاملة ، أن يسارع قادتها بتنظيم عملية إغراقها وتركها فى هدوء قبل أن يذهب أحد من أحيائها لقمة سائغة للأسماك المفترسة .

وأضاف أدميرال البحر المحنك : وكما ترون ومهما تكن الدعابة الثقيلة فواجبنا أن نأخذ كامل أهبتنا وحذرنا .

تعالت همهمة سخط ، لوح بعض الضباط الصغار الرتب بأذرعتهم فى سخرية لكن الأدميرال تمتم متلطفًا :

– أرجوكم ، ليست واشنطن وحدها التى تسخر من فحوى البرقيات الغامضة بل العالم أجمع لا يصدق حرفًا فيها . لكن العقل ، العقل يا سادة ، يدعونا أن نكون حريصين ، مهما بلغنا من قوة ومن منعه .

هتف الضابط ولسون وهو شرس ملامح الوجه ضخم الجثمان : لم لا ، نعود إلى موقعنا وسط قطع أسطولنا فى الشمال ؟

ابتسم الأدميرال : لا تملك القيادة العليا إلغاء الرحلة لمجرد ورود كلمات يرجح عدم جديتها .

وتمتم صوت أجش : فى حالة إغراق الحاملة فسيكون فى ذلك ضربة قاسية لهيبتنا ، وللقوة الضاربة لبحريتنا .

– لو حدث ما تقول برغم استحالته ، فسيعاقب المعتدى دون توان وبلا أدنى رحمة .

– إذاعة البرازيل تقول أن مرسل البرقيات هو الحزب النازى الجديد لألمانيا الصاعدة ؟

– لا أحد لديه الحقيقة مؤكدة ، فإذاعات أخرى استمعت إليها تردد العديد من التكهنات ، واحدة تعلن أنها إحدى عصابات شيكاغو القوية تريد التشويش لغرض

مجهول ، وأخرى تؤكد أنها عصابات المافيا تضغط لإحراج الحكومة الأمريكية إزاء حملاتها البوليسية ضدها ، وإذاعات تذكر أن الصهيونية تهدف إلى الإيقاع بين الدول بغرض سحق منظمة الأمم المتحدة نهائيا ، وإذاعات تنادى بأن مرسلى البرقيات الغامضة هم جماعات فدائية يابانية أو من المتطرفين الكوريين ، أو هم مخربون شيوعيون مع أن الشيوعية انتهت ، بينما تجمع غالبية إذاعات العالم على أن الأمر لا يعدو أكذوبة قصد بها مطلقا أو مطلقوها الهزء بجيوش الدول الثلاث الكبرى صاحبة أكبر وأضخم مخزون فى ترسانات السلاح . هنا طلب الضابط دى لا روش وهو فرنسى المولد أمريكى المهجر أن يؤذن له فى التكلم ، فلوح له الأدميرال فى ترحيب يعطيه الأذن بذلك .

قال : قبل ساعتين ، أعطانى زميل من طيارى النفاثات نسخة "الصرخة" البرقية الصادرة على عجل مساء الأمس وقد تركزت غالبية موضوعاتها حول ظاهرة البرقيات الغامضة .

تعالت همهمة بين الضباط ، طالب البعض برؤية عدد المجلة الأمريكية ذائعة الصيت .

– مهلاً يا أصدقائى ، ها هى ، سوف أتركها لكم ، لكن دعونى أولاً أقرأ عليكم هذا الجزء من مقال بها ، يقول كاتب المقال : " فإذا صحت فحوى البرقيات الغامضة ، ونجح مرسلوها فى تهديدهم السافر ، فأغرقوا بالفعل أكبر قطع أسطولنا ، أيًا تكون هذه القطع البحرية ، فإن ذلك لن يعد الاعتداء الأول على وحدات هذا الأسطول . فمنذ قرابة أعوام خمسة ودوائر البنتاجون تجرى تحقيقاتها فى تكتم وسرية مطلقة حول غرق أو فقد عدد من السفن الصغيرة فى ظروف مريبة ، وغالبيتها من سفن البحث العلمى فى أعالى البحار أو تلك التى تقوم بأعمال الاتصال اللاسلكى والتنصت الإلكترونى . وإذا كانت الحوادث قد جرت على نطاق ضيق دون خسائر تذكر فى الأرواح ، إلا أن الذى يثير الحيرة والتساؤل هو اختفاء أو سرقة أهم أجزاء السفن الغارقة دقة وأكثره حداثة وتطويراً ، خاصة الإلكترونى منها . كذلك تجرى البحرية

الأمريكية تحقيقات غير معلنة بواحد من أكبر مخازنها على الأطلنطى بصدد اختفاء صندوقين كبيرين بهما بعض الأدوات الإلكترونية الخاصة بمقاومة الغواصات ، والتى لم تجرب بعد ، وتعتبر على جانب كبير من السرية) .

ساد السكون المشحون بالقلق والسخط .

بعد ما فكر مليا قال الأدميرال فى صوت حاول أن يضفى عليه رنة اللامبالاة :

– هذا الذى تعلنه الصرخة ليست لدى عنه معلومات مسبقة ، وسواء صدق الخبر المعلن أم ظهر العكس ، فإنه فى تقديرى لا يعنى بالنسبة لنا شيئًا .

. اعترض دى لا روش : كيف ذلك يا سيدى ، ليست هذه مؤشرات تؤكد لنا تواجد من أرسلوا البرقيات الغامضة ؟

– لا لا ، أنا أخالفك الرأى ، فلم يثبت بالقطع أنه قد جرت مثل الأحداث التى تدعيها المجلة كما لم نسمع عن إجراء أى تحقيقات من هذا القبيل . ثم كيف لنا أن نجزم بأن مفتعلى الحوادث التى تذكرها المجلة على فرض حدوثها هم أنفسهم الذين قاموا ببث البرقيات الغامضة لاسلكيًا ؟

وانفض اجتماع الضباط الطارئ بعد ساعتين من النقاش الحاد ، وبعد أن وزعت تعليمات الطوارئ ، وتم استيعابها دون الاقتناع بجدواها ، وكان أهم بنودها مراعاة الإقلال من الحركة ، والكلام همسًا ، وإطفاء كافة الأنوار على سطح الحاملة وستر ما يضاء بجوفها حتى لفافات التبغ يجب ألا يظهر وميضها ، لتصبح الحاملة جزءًا من حلكة الليل الجاثم موحشًا باتساع المحيط وترامى أطرافه .

ولدى حلول الثانية بعد منتصف الليل ، وصلت كلاب الحراسة الذرية ، المدمرات الأربع ، التى سرعان ما أتخذت أماكنها على جانبى الحاملة ، وفى المقدمة ، وفى المؤخرة وهى مطفأة الأنوار بدورها ، فبدت كأشباح شيطانية تحيط بتنين أسطورى هائل من كل جانب .

ومرت بقية ساعات الليل دون حدوث يذكر .

مع أولى خيـوط ضـوء الصـبح التـالى ، زيدت النفـاثات المنطلقـة فى دوريات الاستكشاف حول مسار الحاملة وحراسها الأربع ، واتسع نطاق تجوالها فشمل أميالاً عدة فى دوائر تحليق متسعة بلغت أطرافها الشرقية سواحل أفريقيا من السنغال شمالاً حتى الجنوب الأفريقى جنوبياً . غير أن حجرة اللاسلكى بالحاملة لم تكن تلتقط على مدى ساعات من طيارى النفاثات سوى رداً واحداً لا يتغير "ليس ما يريب فى مجال الرؤيا على الإطلاق" .

وتوسطت الشمس قبـة السمـاء وفرشت أشعتها الذهبيـة على صفحة المحيط وما يطفو فوق صفحة المحيط ، لكن الريح لم تخضع لدفء الأشعة المسلطة وإنما ازدادت برودتها وقوى اندفاعها من الجنوب ، تسوق أمامها أسراباً من طيور النو التى يظن ظهورها قبل العواصف ، راحت تطير على ارتفـاع خفيض وقد لامس أرجلها القصيرة وأجنحتها البديعة رذاذ الموج ، واختلط صراخها بهديره .

من بعيد ، من وراء طيور النورس ، ومن وسط سحابات رفيعة تتجمع شرقاً ، بدت ست نقط معتمة ، خلال ثوان اتضحت كأغرية سوداء تتقدمها مناقيرها الفضية ، ورددت أبواق مثمنة الشكل صوتاً مجهداً "نفاثات الرصد الإلكترونى مقبلة ، استعدوا لتلقيها" .

استدارت الحاملة توجه الريح وتبعث بإشارات الهبوط إلى الطيارين الذين أوشك وقود طائرتهم على النفاد واحدة وراء الأخرى . أخذ أخدود السطح يحتضن الأجسام الانسيابية برئية المظهر تأتى من خلف الحاملة ليتقبلها الضابط المرشد برايتيه الزاهيتين إلى أن تحط ، ويعلق خطاف الذيل بواحد من الأسلاك الحاجزة .

وعبر دقائق عشر تم هبوط النفاثات ، وبمرور دقائق أربع تالية كانت قد أنزلت بواسطة الروافع الكهربائية إلى عنابرها بالسطح السفلى للحاملة ، حيث تتراص عشرات سواها بكامل حمولاتها من قنابل وصواريخ رهن الانطلاق الفورى .

وفى نفس اللحظة صدر الأمر بصعود ست نفاثات رصد متخمة بالوقود غير التى هبطت وأديرت محركاتها ، لتنطلق بدورها مغادرة الحاملة التى تأخذ اتجاه الجنوب وجسمها الضخم ينساب بقوة فوق اللج الفائر تحيطها مدمراتها الأربعة المتيقظة .

وارتفعت النفاثات أكثر مكونة تشكيلاً يشبه السهم ، تتجه قمته إلى السحابات التى اعتراها التفرق والتبعثر لتبدو كندف قطن بالغة النقاء .

وبينما الأغربة تتوارى بعيداً مخلفة ورائها ذيولا لامعة ، انهمك فريق من الملاحين المدربين يحددون مكان الحاملة على الخريطة ، فإذا هى تبعد ٤٨ كيلومتراً شمال شرق جزيرة سانت هيلانة و١٥٠٠ كيلو مترا غرب الأرض الأنجولية على الساحل الأفريقى . فى حين تلقى فريق آخر من الخبراء العسكريين آخر تقارير النفاثات التى تتفحص السماء طوال اليومين الأخيرين من الرحلة ، وكذا تقارير المدمرات الأربع حاملة الردار وأجهزة فحص الأعماق ، وكانت كلها تجمع على - أقصى - درجات الأمان .

وعاد الرجل يلقى بصره على مياه المحيط ، ليس من على السطح هذه المرة ولكن من وراء كوة قمرته ، بينما كان يخلع السترة الرسمية كانت عيناه تجوبان الجزء من الخلاء المائى الذى تسمح برؤيته الفتحة البلورية المستديرة .

هذه المياه الصاخبة منذ الأزل ، هذا الركن من ماء المحيط ، وأركان غيره فى محيطات وبحار شاسعة مترامية ، أن أسطول بلد أقوى الأساطيل التى تهيمن عليها وإن قطعهم البحرية الشرسة حاملة السعير من أفواه مدافعها وعلى رؤوس صواريخها تجوب كل شبر من أرجاء مياه الكرة الأرضية . لكنه لا يحب هذا التفوق المغرور ، هو وطنى حريص على أهله لكنه يرفض عنجهية تفرض وجوها بقوة البارود ورنت فى أذنه كلمات الأدميرال :

(لو حدث ما تقول برغم استحالته فسيعاقب المعتدى دون توان وبلا أدنى رحمة)

ألا ليته يحدث حقًا ، أنه يتمناها صادقًا ، ليت بلده تعرف المسذلة إلا أذاقتها لغيرها مراراً وتكراراً ولو لدقائق أو ثوان ، سيعاقب المعتدى بلا أدنى رحمة ، ومتى عرفوا الرحمة مع سواهم .. متى .. متى .. هل كانت حربهم فى كوريا رحيمة . وحرب فيتنام ولاوس وفلسطين وغيرها ، هل كانت رحيمة ؟ لكن افتقاد الرحمة لا يقتصر عليهم وحدهم ، هناك دول آخرى ، كبرى وصغرى مستبدة ، ربما ليست فى مثل شراستهم ، لكنها كذلك غير رحيمة وغير مشفقة .

واقترب الرجل من الكوه أكثر وقد نضح وجهه بامتعاض وألم مكبوتين . لكن وجهه ، جبهته وأنفه وذقنه ارتطموا بعنف فى واجهة البلور السميكة .

انقلب منظر المياه قبالته ، اختلط بها سائل أحمر ، دارت به الدنيا ، ارتجف ، اهتزت عظامه ، ثم سحبته هوة ساخنة سرعان ما أطاحت به من خلال الباب الذى انخلع من تلقاء نفسه وكأن مادته ورق هش وليس خشب الجوز التركى ، وافترش الرجل أرضية الرواق وقد غاب عن وعيه كلية .

ذلك أن ما حدث قد حدث بغتة بالكيفية التى يستحيل أن تكون فى تصور أى إنسان مهما اشتط به الخيال . كانت الساعة قد تخطت وقت الزوال بإحدى عشرة دقيقة لم يسمع إنذار ما ، ولم تر بادرة خطر من أى نوع .

وإذ بحرارة بالغة تأخذ بخناق كل من فى جوف الحاملة أو على سطحها ، حرارة مفاجئة مريعة كأنها الأتون تمتص الهواء ، وتشل الصدور فتروح الأجساد المذعورة المتزاحمة تبحث عن قبس من نفس دون جدوى .

لم يحدث انفجار ، ولم يشتعل حريق ، ولا حدث تخريب أو عطب أو تصادم . فقط فى ثوان معدودات اندلع ذلك اللسان الحارق يخترق بطن السفينة الفولاذى من أسفل فينوب مولدها الذرى ، ويتلاشى معه عنبرا آلات تسييرها وآلات السيطرة على دفتها ، وتتخلف فى النهاية فجوة تطوى منزلا بأكمله .

وبين نظرات الهلع والذهول المتضحة عميقًا على وجوه رجال المدمرات الأربع بينما هم صاغرين مجمدين ، أخذت المياه الفائرة تبتلع جسم الحاملة سريعًا فى شراهة ، وقد تركت حولها آلاف الأبدان البشرية التى أحرقت الحرارة المخيفة جلودها بدرجات متفاوتة دون إحداث وفيات تذكر .. وخلفت ورائها أكوامًا من الحطام والعدد وقطع الأثاث والملابس وعلب الطعام المتقاذف بلا غاية أو هدف .

* * *

فى نفس الآونة مع اختلاف التوقيت المحلى ، طيرت وكالات الأنباء خبر إغراق أضخم قطع الإتحاد السوفيتى البحرية ، الطراد النووى (المارد) من طراز كرستينا ،

وذلك أثناء وجوده إلى الشمال من جزيرة جوتلند ببحر البلطيق ضمن قافلة كبيرة تضم نسافتين ومدمرتى جيب وسفينة تموين وثمانية لنشات من حاملات الصواريخ وهى تبحر فى مهمة سرية ، وقد حددت وكالات الأنباء حادث إغراق الطراد (المارد) على لسان الناجين منه - وهم غالبية طاقم الطراد - بأنه تم بنفس الأسلوب الذى جر به إغراق حاملة النفاثات الأمريكية .

* * *

قطعة بحرية ثالثة لاقت مصرعها في نفس الظروف المحيرة وبنفس عمود الحرارة المريع الثاقب من أسفل القطعة البحرية كما وصفتها برقيات اللاسلكى العاجلة هى درة الأسطول الصينى الوليد وأحدث ما أنزل منه إلى الماء ، حاملة الطائرات العمودية النووية (درع الجنوب) وكانت تقوم بأعمال الدورية العادية فى بحر الصين الشرقى ترافقها مجموعة من أربع غواصات اثنتان منها ذرية ، حينما غرقت فجأة رغم كل ما أحيطت به من حراسة ويقظة ، فى زمن يتأخر بنصف يوم كامل عن وقت إغراق القطعتين السابق ذكرهما مع مراعاة فرق التوقيت المحلى كذلك .

* * *

الفصل الثالث

– موسكو على الخط يا سيدى الرئيس ..

– أهكذا ، بسرعة .

– إننا لم نكد نتخذ إجراءات استخدام الخط الساخن للاتصال بهم ، حتى وجدناهم يبادرون بالإلحاح فى طلبنا .

– شمل الجمود بدن الرجل متوسط القامة ، ثانية أو ثانيتين لاح فيها التردد والحيرة على حركته ، لكنه سرعان ماعد ساقا مستقيمة يعتريها التصلب تجاه الباب الموارب وقد كسى وجهه هذه المرة غضب غير مصطنع ، فى حجرة العمليات الدافئة جلس الرجل على كرسيه الهزاز قبالة شاشة التليفزيون الملونة التى أدخل عملها على الخط الساخن مؤخراً ، بينما وقف خلفه وزير الدفاع ووزير الخارجية ومدير المخابرات المركزية ومساعدوه الخصوصيون ولفيف من خبرة مستشارى البيت الأبيض ، كما أطلت من جانب الحجرة الكاميرا التى ستنقل بدورها صورهم إلى الشاشة المقابلة من الخط .

تبادل الرجل وأقرب المستشارين إليه كلمات متقبضة . أضيئت الشاشة البالغة مساحتها مائتى متر مربع لتظهر عليها وجوه ثلاثة مكتئبة لرجال ثلاثة جالسين .

تكلم أوسط الثلاثة لمدة ربع ساعة .

أزت آلة سريعة .

فبسط الرجل متوسط القامة يده يتناول مسودة ترجمة لرسالة الرئيس الروسى الواردة توا .

وفى استغراق شديد راح يتعمق بعينيه المركزتين فى أغوار كل كلمة يشملها بصره ، وقد سيطرت على الموقف لحظات ضياع نادراً ما جاد التاريخ البشرى بمثلها .

كانوا قد أيقظوه فى السادسة و ٢٥ دقيقة من صبح ذلك اليوم أول يوليو عام ٢٠٩٩ وقبل موعد استيقاظه المعتاد بساعة ، وطوال ساعة تالية وهو مازال مرتدياً منامته القطنية المزركشة كان يعقد بالفعل ما يشبه مجلسا للحرب .

وبينما القادة والمستشارون يتوافدون تباعًا ، أخذ وزير الدفاع وفى نبرات جافة فيها من الانفعال أكثر مما فيها من وضوح ، يخبر رئيس الدولة بكارثة إغراق حاملة النفاثات العملاقة «فيلادلفيا» مفخرة البحرية الأمريكية المطورة ، والتى قيل يوم تدشينها بأن حجم من تحمله من نفاثات ومدفعية إلكترونية وصواريخ موجهة ورجال ذوى كفاءة عالية يشكل قوة ضرب هائلة توازى خمس فرق عسكرية مجتمعة بكامل عتادها .

عاد الرجل إلى نفسه ، رفع رأسه وقال ببطء دون أن يختلع وجهه :

– الرسالة خطيرة ، انظروا يا سادة ما تقول .

تركزت الأعين على وزير الخارجية وهو يتلو فقرات رسالة الرئيس الروسى التى تتهم البحرية الأمريكية صراحة ، وبكيفية ما تزال مجهولة لدى الروس بإغراق طرادهم الروسى الضخم (المارد) .

الأمر الذى يعتبره الروسى انتهاكًا صارخًا لكافة القوانين والاتفاقيات الدولية ولميثاق الأمم المتحدة ، ويعد اعتداءً على السيادة الروسية يصعب احتماله دون تبرير سريع من الرئيس الأمريكى شخصيًا ، وخلال ساعتين من لحظة تلقى الرسالة المنقولة عبر الخط الساخن من الرئيس الروسى رأسًا ، وإلا فإن المجلس الروسى الأعلى له أن يتخذ ما يراه من إجراءات عسكرية فورية تكون نتيجتها وبالاً على المعتدين .

تمتم مساعد الرئيس للشئون الخارجية وبدنه يهتز من فرط الحنق .

– كيف يجرءون على اتهامنا بينما هم يغرقون أكبر قطع أسطولنا ، أى سلاح سرى جربوه ثم خافوا مغبة ما يترتب على استخدامه .

وهمس وزير الخارجية فى برود : اعتداء مريب علينا يعقبه تهديد سافر بالحرب ، الأمر واضح كالشمس .

وطالب مستشار آخر بإطلاق النفاثات من القاذفات بعيدة المدى بحمولاتها النووية فوراً فى طريقها المختصر عبر القطب الشمالى إلى أراضى الروس .

وعلت أصوات مختلفة تردد المزيد من المقترحات ، المزيد من العنف .

لكن الرجل الجالس توقف بغتة عن أرجحة كرسيه ، بإشارة زراعه أسكت الجميع ليتكلم من وسط دوامة أفكاره التى لم ترحمه منذ تم إيقاظه .

– مهلاً يا سادة ، هم معذورون كذلك .

بدأ الاستنكار ممزوجًا بالدهشة على الوجوه المحيطة ، حينئذ تقدم مدير المخابرات المركزية ليضيف إلى كلمات الرئيس قوله أن الأنباء المؤكدة تفيد بالفعل غرق أكبر قطع البحرية الروسية بنفس الطريقة التى أغرقت بها الحاملة فيلادلفيا .

وهنا لم يقو واحد من المستشارين على حبس جملة نارية .

– هناك إذن طرف ثالث يلعب لعبة بالغة القذارة .

* * *

نفس الكلمات عن الطرف الثالث وفى نفس اللحظة تقريباً أفلتتها شفاه أكبر رفعًا وانطباقًا ، ولكن بلغة مغايرة وفى مكان مختلف يبعد آلاف الأميال عن المكان الأول ويفارق فى التوقيت المحلى متقدماً باثنتى عشرة ساعة من حالة بداية النهار إلى حالة بداية الليل .

كان الموقع حجرة عمليات بمكان من العاصمة الروسية مكيفة الهواء .

شيدت جدرانها بطبقات الرصاص السميك على عمق نصف ميل فى باطن الصخر الأصم كمثيلتها تأوى القيادة الأمريكية العليا وقت الخطر ، وإن اختلفت

الأخيرة فى التصميم الهيكلى والممرات الداخلية وفى بعض التفاصيل كأجهزة امتصاص الصدمات ، وتنقية الجو ومرشحات المياه ومستودعات الأكسجين النقى وغيره من الغازات المضغوطة والسائلة ووصلات اللاسلكى والكهرباء .. وأيضًا فى تركيب الحاسبات الإلكترونية المثبتة قطعها فى كل ركن .

فى هدوء مثير يخفى عاصفة من القلق والتوتر تبادل الرجال الثلاثة مكتنزى الأبدان نظرات طويلة تائهة ، وتململ أقصر الثلاثة ليتحرك فمه دون قسمات وجهه العريض المتورد .

– لم يبق سوى الصينيين ، ففيم انتظارنا ؟

تفرس فيه الجالس على يمينه وقد أمال رأسه الغزير الشعر ما يثقله من تفكير عميق .

– أتظن ؟

– الأمريكان لاقوا ما لاقينا ، وأصبح الاتهام يشير إلى طرف ثالث لابد وأن يكون له مبرر للوقيعة بيننا وبين واشنطن .

– ولم الصينين بالذات ؟

– ومن غيرهم لديه القدرة على امتلاك سلاح سرى !!

لكن الثالث وهو الأكثر طولاً وانسجامًا فى بنيان جسده قاطع زميليه فى صرامة وقد ازداد إحمرار وجهه وبروز عينيه : لنطلب خط بكين الساخن أولاً ، فإن الوقت يمر سريعًا دون أن نصل إلى قرار .

تداعى السكون الذى كان يسيطر على الحجرة تحت وطأة عشرات الأصوات المتداخلة التى تهيأ لمجئ بكين على الخط .

– بكين معنا يا سيدى الرئيس .

تحجرت مقلتا الرجل القصير ، زم ما بين حاجبيه ، وصر على أسنانه في امتعاض وهو يهم بإملاء رسالته ، حينئذ وقبل أن يلفظ بحرف واحد دس أحد معاونيه قصاصة ورق بين أصابعه ، قرأها بإمعان : يفيد نبأ عاجل أوردته الوكالات الصينية وأكدته وكالات فرنسية أن حاملة الطائرات العمودية (درع الجنوب) ، والتى تعد أحدث قطعة فى أسطول الصين قد أغرقت بكيفية لم تعرف بعد فى الجزء الشرقى من بحر الصين ، وذلك منذ قرابة عشرين دقيقة بتوقيتنا المحلى .

وقرأ زميلى للرجل البرقية بعده ، لكن أطولهما أشاح بوجهه وقال فى عصبية :

درع الجنوب أحدث سفنهم ، لكنها ليست أكبرهم ولا أقواها تسليحاً .

– ما الذى تهدف إليه ؟

– فى رأيى ، لا يخرج الأمر عن احتمالين ، أما أن خطة الصينين تهدف من أساسها إلى إغراق السفينتين الكبيرتين لدينا ولدى الأمريكان للوقيعة بين دولتينا ثم جاء إغراق سفينتهم مجرد صدفة ، وأما أنهم بعد إغراق المارد وفيلادلفيا حسب خطتهم أخافتهم تهديداتنا ، ومن ثم ضحوا بسفينتهم هذه ، وهى كما أشرت ليست كبرى سفنهم ولا أقواها تسليحاً ، وذلك بغرض إبعاد الشبهات عنهم .

ثم تكلم الرجل ذو الشعر الغزير ، وخلافًا لما يسود الحجرة من توتر فقد كانت شفتاه تحملان ظل ابتسامة ساخرة :

– ولم لا تقول بوجود قوة رابعة ترغب فى إشعال حرب نووية بين ثلاثتنا – نحن ، والأمريكان ، والصينيين – فى آن واحد ، حتى ما إذا انهارت جيوشنا وفنيت دولنا وشعوبنا ، ودمرت غالبية مدننا . فازت القوة المجهولة بالسيادة على الكرة الأرضية ، وربما لعشرات أو لمئات الأعوام القادمة ..

– ومن ، من تراهم مدبرو مثل هذه الخطة ؟

تمتم الرجل الغزير الشعر فى رزانة : أنهم نفس مرسلى البرقيات الغامضة ، أتذكرونها ؟

لكن الرجلين أصمتا ثالثهما على الفور ، وناشداه بأسلوب عطوف أن يسلك الطريق الأكثر واقعية فى تشغيل عقله .

– بكين ما تزال فى الانتظار يا سيادة الرئيس .

فاتخذ الرجال الثلاثة أهبتهم قبالة آلة التصوير التليفزيونى قبل أن تبدأ عملها فى الوقت الذى ركزوا فيه عيونهم على الشاشة المواجهة لمجلسهم ، وقد ضغطوا على أعصابهم ، حتى يخففوا عبوس نظراتهم قدر طاقتهم .

تكلم الرئيس الروسى مع الرئيس الصينى بواسطة مترجميها عبر الخط الساخن ، ثم انضم إلى الحديث الرئيس الأمريكى ومترجمة .

كانت المرة الأولى فى التاريخ التى سجل فيها اشتراك أطراف مثلث الخط الساخن موسكى – بكين – واشنطن معًا .

ونفى الرئيس الصينى تهمة العدوان من ناحية بلده نفيًا قاطعًا موضحًا سبب عدم إغراق أكبر سفن الصين البحرية ، بأنها كانت راسية بداخل ميناء شنغهاى بالفعل ، لكن الرئيسين الروسى والأمريكى لم يستسيغا الحجة ، وتجادل ثلاثتهم فى تؤدة وبرود فى المبدأ ، مستخدمين العبارات الرسمية الوقورة .

لكن فجأة أفلت الزمام ، ذهب قناع الوقار بعد أن فرغ صبر الرسميات فتبودلت وبدفقة هادرة أقصى عبارات الاتهام والتهديد والوعيد . فلم يكن فقد أهم قطعة حربية فى أسطول كل من الدول الثلاث يعنى سوى فقد لهيبة كل منها ، واستخدمت الألفاظ الحادة الجارحة ، ولوح كل من الرؤساء الثلاثة عبر الشاشات الملونة بقبضته فى وجه الآخرين ، فليس من السهل خداع من يتفننون فى خداع غيرهم .

ازدادت سخونة الخط الساخن حتى وصلت درجة الغليان .

واستمرت تغلى برهة .

ثم عادت فهبطت الدرجة دون الغليان قليلاً .

وامتد هبوطها ، فحين تعم الفجيعة ، حيث يصبح المصاب واحداً ، حينئذ لا مفر من التروى ، من التفكير العميق الطويل ، فقد يؤدى الاندفاع إلى كارثة أكبر وأشد هو لا دون أن يضبط الفاعل الأصلى ويعاقب على فعلته الخطيرة ..

وعلى امتداد ساعات سبع طوال ، عراض ، استمر إجراء المزيد من المحادثات بين الرؤساء الثلاثة عبر الخط الساخن ..

قرب النهاية أصبحت الكلمات المتبادلة أقل حدة ، وأكثر اتزانًا واعتدالاً ، وتفاهمًا ، وحين صمت الخط الساخن أخيراً ، وأطفئت شاشاته التليفزيونية الملونة ، لم يعد ساخنًا بالمرة ، وإنما شملته البرودة من أجل مصلحة الإنسان وبقائه لأيام آتية معدودات .

* * *

ولا صحيفة من صحف العالم أمكنها أن تصل إلى تفاصيل ما دار بين رؤساء الدول الثلاثة الكبرى، إنما نشرت ما سمحت به هذه الدولة، ومن ثم جهل الناس بإنحاء الكرة الأرضية مدى عنف الكلمات التى تبادلها المثلث واشنطن – موسكو – بكين .

لكن محرراً بجريدة فرنسية غير واسعة الانتشار طلع برأى أن مغرقى السفن الكبرى الثلاث لابد أن يكونوا بالفعل هم مرسلوا الإنذار ، والذين يمتلكون بالفعل تقنيات بالغة التطور والجبروت فقد حددهم بخبث بأنهم غزاة من سكان كوكب آخر ، كوكب بيأخذ طريق الاقتراب من الأرض فى هذه الآونة ، وتصلح أجواؤه لسكنى كائنات مفكرة ، وهو المريخ .

وطوال النهار لم تكف إذاعات العالم عن تناقل فكرة الكائنات المريخية التى تنذر أهل الأرض بأوخم العواقب .

وأسرع فلكيو العالم إلى مراصدهم فى الليل ، ووجهوا مناظيرهم الضخمة تجاه الكوكب الأحمر ، ولم يسجلوا جديداً .

وأعادوا دراسة البعثة الوحيدة التى أرسلت إلى المريخ منذ عامين ، ونزل روادها بإحدى صحرواته الخالية فلم يلحظوا ما يريب !!

وجاءت تقارير العلماء فى ساعات الليل المتأخرة تؤكد تمسكهم بمعتقداتهم السابقة عن خلو المريخ من أى أثر للحياة ،كذلك توارد مجئ بقية تقارير علماء الفلك تفيد بعدم وجود أى نشاط غير عادى فى القبة السماوية بأكملها .

فى صباح ثانى الأيام بعد استخدام الخط الساخن ولم يكن شغل الصحف والإذاعات ووكالات الأنباء الشاغل سوى البحث عن البديل الحقيقى لسكان المريخ ليلصقوا بها قائمة طويلة من الاتهامات الملتهبة ، آخرها إغراق السفن الحربية الثلاثة وليس أولها .

وأعيدت وتكررت وزيد فيها كلمات : النازية - الصهيونية - المافيا - مهربو مخدرات - مزيفو النقود - متعصبون يابانيون - مخربون كوبيون - متطرفون دينيون - فدائيون مناهضون للاستعمار ، وشغل الناس فى أحاديث جانبية ومناقشات بيزنطية وصراعات جوفاء تاركين لأخيلتهم أقصى درجات التألق والنشاط والابتكار والشطط .

ثم جاءت الصاعقة ، ولو أنها كانت مهزوزة من المبدأ إلا أنها جاءت على لسان خبير إيطالى محتضر ، متخصص فى دراسة الآثار المصرية القديمة ، وفى التنقيب عنها ، وزوجته التونسية عالمة آثار كذلك ، وقد شاركت زوجها كشفة الآخير عن مقبرة منسية للملكة الفرعونية حتشبسوت ، غير مقبرتها المعروفة التى نهبها اللصوص قديماً . فقد همس الخبير الإيطالى وهو يجود بآخر أنفاس له تقطر أسى بأن «عالم إنجليزى اكتشف جثمان امحوتب بمقبرته بسقارة عام ٢٠٧٩ وعالم مصرى اكتشف العام الماضى جثمان الملك خوفو بمكان خفى من الهرم ، بينما اكتشفت أنا منذ شهرين مقبرة أخرى للملكة «مع كارع حتشبسوت» بوادى الملوك ووجدت بها جثمانها وحليها ، وبين كل كشف والآخر عشرة أعوام بالضبط .. يا إلهى هذا كثير ، كثير ، وخطير» .

ولما سأل الحاضرون زوجة العالم أن تفسر لهم ما يعنيه زوجها المحتضر لم تزد عن ترديد أنه كان يقصد «لعنة الفراعنة» .

وجدت الصحف والإذاعات فى الخبر الغريب مادة دسمة للترويج والإثارة .

فكل الذى يحدث إنما من جراء لعنة الفراعنة التى تحل على العالم انتقاما ممن يعبثون بأجداث ، وتراث الملوك الأقدمين المؤهلين ، خاصة وأن فى تركيب كلمات البرقيات الغامضة وإذاعتها بلغات دولية عدة فى وقت واحد أسلوب غير أرضى فمن خلاف الأرواح بمقدوره أن يفعل هذا ! . على أن عالم آثار مصرى تساءل فى مقالة ساخرة نشرت له بجرية الجمهورية « لماذا لم تحل لعنة الفراعنة قبلاً وقد اكتشفت وانتزعت من قبورها مومياوات عشرات الملوك والملكات والأمراء بالدولة المصرية القديمة أمثال مرنع وتختمس وامنحتب ونسيتانت آشر ورمسيس وغيرهم .. كما فتحت مئات المقابر ونقلت آلاف التماثيل وقطع الأثاث القديمة من مواضعها الأصلية ، هذا بخلاف ما نهبه اللصوص والمستعمرون منذ ما قبل التاريخ وإلى الآن .

فما الداعى إلا يحدث ما حدث إلا مؤخرا» ؟؟

مرة أخرى ساد الركود ، وشحت الأخبار المثيرة .

وطال انتظار الناس لسماع الجديد .

فى حين انطلقت الدول الكبرى تعيد ترتيب وتصحيح أفكارها .

الولايات المتحدة الأمريكية ركزت كل مقدراتها حول جهاز مخابراتها وما يملكه من إمكانيات ومن فاعلية . الدولة الروسية ، أخذت تعيد تقييم ساستها وساسة الدول الدائرة فى فلكها .. والصين الشعبية ألقت نظرة نارية على لفيف من المتمردين من أبنائها اختفوا بأطراف الصحراء الجنوبية وسفوح جبال التبت ، وذلك منذ انتصارها على تايوان وضم فيرموزا من ستة أعوام مضت .

على أن الدول الثلاث الكبرى وغيرها من الدول الأقل حجماً والأقل فاعلية ومقدرة لم يغفل كل منها عما يقل ويدور خارج حدوده .. كل دولة زادت من مراقبتها المحمومة لجيرانها وغير جيرانها بكافة ما لديها من إمكانيات إلكترونية ، وعملاء

يندسون في كل ركن وكل جحر أو حفرة حتى لو كانت بالوعة مياه ، ليلتقطوا أقل همسة واتفة تحرك .

ولعل أكبر طاقات البحث وأقصاها عنفا وجنونا تلك التى بذلتها كل من الدول الثلاث في منطقة فقد السفينة الحربية التابعة لها ، ولكن بلا فائدة ، فلم يعثر على دليل أو أثر لأى نوع من أنواع التخريب بأجسام السفن القابعة على ارتفاعات متفاوتة من قاع البحر ، ولا حول السفينة ولو على مدى أميال من أماكن غرقها .

الشيء الوحيد الذى توصلت إليه الدول الثلاثة وأجمع عليه خبراءها فى أسف وارتباك ، هو كيفية إغراق السفن فقد تمت بسلاح مجهول لابد وإنه أطلق من بعد كبير وبطريقة فذة فلم تضبطه رادارات وأعين الحراسة رغم كثرتها ، ورغم سابق تيقظها واستعدادها ، ورغم حدوث الكارثة بالنسبة لبعضها - الأمريكية والروسية بالذات - فى وضح النهار .

ومرت أيام ثلاثة مضنية ، وبدأ كبار المفكرين يشحذون خلاياهم العقلية ويستخدمونها فى اتزان ، إذا لم تكن صاحبة الخطة الإجرامية أمريكا ولا روسيا ولا الصين ، فمن تراها الدولة الرابعة التى تهدف الوقيعة بين الدول الثلاث الأولى ؟

دول السوق الأوربية بزعامة فرنسا مشغولة بمشاريعها الاقتصادية وبمشاريع تحويل السوق إلى اتحاد فعلى . أما الدول العربية لا تزال منغمسة فى الترتيبات النهائية لانضمام آخر دولتين عربيتين إلى اتحادها الكبير تحت اسم «اتحاد الدول العربية» . بعد أن انتهت الخلافات بينهما ، وبدأت مرحلة نمو العلاقات المتماسكة التى تربطها وتوحدها . أما الهند لم تحل بعد جميع مشاكلها الاقتصادية ، ولم تحل مشكلة التزايد السكانى المخيف داخلها، وأن انتهت من مشاكل حدودها مع جاراتها ، بينما كندا ما تزال تطلب المزيد من المهاجرين وهى مشغولة بإجراءات توافدهم ، ودول أمريكا اللاتينية ودول الشرق الأقصى والأوسط والأدنى وكذا دول أفريقيا وأستراليا ونيوزيلندة وكثير من دول آسيا وحكام الجزر دول فقيرة لم تتقدم علميًا بما يتيح لها إمكانية الحصول - وفى السر - على السلاح الذى تهدده به أكبر وأقوى دول العالم ،

ألمانيا مشغولة أيضاً بأفراح إطلاق أول سفينة كونية إلى الفضاء الخارجى ، كذلك اليابان مشغولة بمأساة ضحاياها فى زلزال جبل فوجى الأخير الخطير .

حتى إسرائيل التى طالما استخدمت أنيابا أمريكية ليست على مقاسها قد تم تحجيمها أخيراً ، وحصرها بمعاهدات مع كل جاراتها العربية فراحت تنشغل بما أسمته تنميتها الرأسية .

ولا واحدة من دول العالم لديها متسع من الوقت للإقدام على خطوة كهذه .

ولا واحدة منها تملك سلاحا غير معروف على الأرجح .

فهل يمتلك مرسلو البرقيات الغامضة مثل هذا السلاح المتفوق حقا ؟؟

فإذا سلمنا بحقيقة وجود السلاح السرى الجبار ، وهذا أمر شبه مفروغ منه ، فلا مفر من التسليم بوجود عقول على درجة كبيرة من الوعى العلمى الممتاز ، ووجود تخطيط وترتيب وثقة متناهية وبراعة فى التوقيت والحركة والتخفى أيضاً وراء إمكانيات استخدام ذلك السلاح .

وبينما الولايات المتحدة تبحث وتفتش فى قلق وضيق ، والاتحاد السوفيتى يترقب فى حنق ، والصين الشعبية تنتظر الخطوة التالية فى برود وتحفز ، والعالم من أقصاه لأدناه ، تطويه الحيرة .. ويعمه تساؤل أخرس .

بينما ذلك الصراع المرير يدور فى الخفاء ، وفى العلانية ، وذلك الذعر من خطر مستتر يضغط على كل نفس .

«بينما الكرة الأرضية يشوب سماءها غيم مقبض ، إذا بأجهزة الاستماع المشرعة بأرجاء العالم تلتقط فى ساعة مبكرة من صباح اليوم الخامس على استخذام الخاط الساخن ، تلتقط برقية جديدة مجهولة المصدر .

«إلى سكرتيرية المنظمة الدولية (الأمم المتحدة) بمقرها نيويورك ، إلى ملوك ورؤساء وقادة العالم أجمع ، العلم ، العلم ، وحتى يمكن لهم ولكل المهتمين بمستقبل الجنس البشرى أن يتأكدوا من مدى ما لدينا من قدرات تفوق كل تصور ، وحتى يعطوا

الصورة الصادقة لوجودنا الأمثل ودقة النظام الذى نعمل من خلاله ، ثم والأهم ليلتقوا «طلباتنا» من المنظمة الدولية مباشرة دون تحريف مغرض من أى جهة تكون .

لذا قررنا السماح باستقبال ثلاثة ممثلين من دول ثلاث هى (مصر والهند ويوغوسلافيا) لينوبوا عن دول الحياد الجديد السبعة عشر المعروفين ، فيحضروا إلينا بمقرنا السرى ليروا كل شئ صراحة وعلى الطبيعة ، ثم يعودوا فيقدموا للمنظمة الدولية تقريراً بكل مشاهداتهم وانطباعاتهم وآرائهم ، ونحن نترك حرية اختيار الممثلين الثلاثة لحكوماتهم القائمة .

أما عن كيفية إحضارهم إلى مقرنا السرى ، فبمجرد موافقة دول الحياد الثلاثة ، وإعلانها عن أسماء مرشحيها فإننا سوف نبعث بتعليمات وقت التحرك وخط السير الواجب اتباعه بمنتهى الدقة . «وللمرة الأولى كان هناك توقيع يذيل البرقية التى أذيعت كذلك بعديد من اللغات» كان التوقيع "حكماء (س ا ف) الأربعة" .

ووجدت مصادر الأنباء فى البرقية اللاسلكية الجديدة شيئًا مثيراً، مثيراً للغاية ، تبيعه للناس ....

***

الفصل الرابع

بدا المكان رغم برودة الجو ، وإيغال الليل فى التأخر ويموج بالحركة والنشاط : فعلى امتداد الرصيف الحجرى بطول أربعة كيلومترات وعرض يزيد على نصف كيلو متر كانت ترسو ست سفن ضخمة ، أربع سفن تجارية فى المقدمة تفوق حمولة كل منها المليونَ طن ، واثنتان فى المؤخرة جنوبياً من ناقلات النفط ذوات الحمولة ٧٠٠ ألف طن ، وقد أنارت الرصيف كشافات قوية تثبت فوق عواميد شاهقة جعلت الرصيف والسفن والدور المطلة على الميناء تسبح فى أشعة تفوق ضوء النهار سطوعًا . فى حين كانت المياه حول السفن وفيما وراءها بامتداد الخليج العريض تتلألأ وكأن عشرات الثريات تبرز من أسفلها ، فى غير استقرار ، وتضيق ، وقد تبهت ، أو تختفى كلية كلما تلاعب الموج لمرور لنش أو زورق قطر وإرشاد .

فيما وراء الرصيف والسفن الراسية ، كان يتضح فى الظلمة المكسورة حدتها بأضواء الميناء شبح الجسم الجبلى لرأس بناس ، باديًا مع بداية الرصيف البحرى شمالاً ليمتد فى إتجاه الجنوب الشرقى موغلاً فى البحر الأحمر لمسافة ٢٥ كيلو متراً .

أما المدينة العصرية المقامة على أنقاض مدينة برنيس الأثرية الشهيرة ، والمسماة على اسمها ، فكانت دورها تحيط بالميناء آخذه شكل ضلعى مثلث ، يجثم أطوالها على الشاطئ المصرى المطل على البحر ، فى حين يقابله الضلع الثانى فوق صخور رأس بناس بنفسه ... ويتلاقى ضلعًا المثلث بالتحام الرأس مع الشاطئ فى الشمال عند نقطة مرور خط عرض ٢٤ شمالاً ، ذلك الخط الذى يمتد حتى يصل نهر النيل جنوب مدينة أسوان بنحو ثمانية كيلو مترات . وأما الجانب الغربى من المدينة فكان يستلقى وراء قمم جبلية تتفاوت ارتفاعاتها من ٢٠٠ إلى ٥٠٠ متر نتجت عن التقاء جبلى حماطة فى الشمال وزرقة النعام فى الغرب .

ولكى تكتمل معالم الصورة لأكبر الموانئ المصرية وأكثرها حداثة وجاذبية . فهناك فى أقصى الجنوب الشرقى ، ترى على الدوام ومضات من ضوء دافق رتيب تجوب صفحة البحر ، إنها ومضات الفنار الجديد (مرشد) المقام على صخرة جزيرة القديس يوحنا :

عند الطرف الجنوبى لرصيف الميناء ، وقد شمخ على بعد أمتار قليلة الجسم الإنسيابى الأزرق لأضخم ناقلات النفط المصرية ، كان الرجلان يسيران بخطى وئيدة وهما منغمسان فى حديث طويل .

الأول : فارع ممشوق القوام ، فى منتصف عقده الثالث ، حلوة قسمات وجهه خاصة عينيه الخضراوين وقد كحلتا ربانياً ، أسود الشعر كثيف شعر الحاجبين والشارب ، له أنف فنان ، يرتدى معطفاً بنياً خفيفاً فوق حلته الرمادية النسيج .

الثانى : كان من رجال البحر ، تخطى عقده الخامس بعامين ، متوسط الطول ، نحيف ، لكنه صلب العود ، يرتدى لباس البمبوطية التقليدى ، بسرواله المنقوش لدى الفخدين المخنوق عند الرسخين . تطلع الرجل ذو المعطف نحو خرطوم معدنى غليظ يمتد من الصهريج ليغيب طرفه فى جوف الناقلة المصرية يمدها بالزيت الخام ، تساءل وهو يخمن الإجابة مقدما : على ما أظن ، فهو الخام المستخرج من حقل شلاتين المكتشف العام الماضى فى الجنوب .

هز رجل البحر رأسه موافقاً : أجل معظمه ، وإن استوعبت الخزانات بعضاً من إنتاج حقل أبى الحسين ، المكتشف بعد حقل شلاتين بعشرة شهور بالصحراء الغربية .

بدت الدهشة على وجه ذى المعطف : حقل أبى الحسين ، أعرفه ، أبدأ يعمل ؟

– منذ ثمانية أيام .. وقد بلغ إنتاجه اليومى ١٨٠ ألف برميل ينتظر أن ترتفع فى نهاية العام إلى ٢٥٠ ألف برميل .

– رائع .. إنه كسب رائع .

وتوقف الرجل ذو المعطف قبالة الاسم المكتوب بأحرف ظاهرة على جانب الناقلة المصرية «طابا» وراح يحدث نفسه فى إعجاب ، من كان يظن أن هذه العابرات المخيفة

من ناقلات النفط يمكنها المرور فى قناتنا ، ثم راح يستعرض فى مخيلته قفزة الدولة لإنماء ذلك المرفق الحيوى من البلاد ، بعد أن استردت سيناء ، وأزيلت آثار العدوان الإسرائيلى الذى خدش الكبرياء المصرى ردحا من الزمن القديم . لقد كانت أبرز مظاهر التطوير بعد أن استعيدت الأنفاس هو تعميق قناة السويس ، بحيث أمكنها استيعاب السفن المارة حتى غاطس بعمق ٢٨ مترا .

وعاود ذو المعطف التقاءه فى الحديث مع رجل البحر ، كان يصغى إلى ما يقوله الأخير فى شغف وأدب كبيرين ، كان همه أن يخرج بالمزيد من المعلومات ، أن يعرف كل طفرة تقدم أصابت الميناء منذ أنشئ من عامين مضيا ، ورغم التفاوت فى الثقافة والقدرات ونوعية العمل بينهما إلا أن صداقة وطيدة كانت تجمع الرجلين ، فهو قد عرف رجل البحر الشيخ خميس ، وصادقه من قبل أن يشيد الميناء وتستقيم كل هذه الركائز والإنشاءات والدور من حولها ، ربما خلال ما يزيد عن ربع قرن / حينما كانت تدفعه وقدة الشباب وحماسه ليقوم برحلاته عبر ساحل البحر الأحمر ومناطق جباله ووديانه .

وانتهت جولة ذى المعطف بالميناء ، حينئذ ودع صديقه رجل البحر واستقل السيارة التى وضعها المحافظ تحت تصرفه آخذا سبيل عودته إلى فندق برنيس بطوابقه الإثنى عشر وقد أعلنت ساعته منتصف الليل .

حين دلف من الباب الدوار إلى بهو الفندق استقبلته لفحة من آلات التكييف ، على أن مدير الفندق وكان يعرفه جيدا ويعرف المركز الذى يشغله والعمل الدقيق الذى أوفد من أجله ، تقدم منه حثيثا بينما هو يعبر البهو فى اتجاه المصعد ، وسبق الصوت الأجش اللاهث بدن المدير المترهل :

– لحظة من فضلك يا أستاذ شادى .

ومن وراء مدير الفندق تقدم رجل آخر قصير القامة :

– نعم ؟

قال المدير وهو يفسح مكانا للقادم الأنيق : السيد فى انتظارك منذ أكثر من ساعتين .

رسم شادى ابتسامة على وجهه المرهق : خيرا ؟

تكلم القصير الأنيق فبدا صوته رفيعا غير منطبق على ملامحه العريضة وجسده المدكوك : هل يسمح الأستاذ شادى بأن يشاطرنى شرابًا ساخنًا .

اختطف شادى نظرة قلقة إلى ساعته ، لكن الرجل أضاف فى شبه استعطاف .

– أعدك ألا تطول جلستنا عن مجرد الانتهاء من إفراغ كوبينا .

حين جلسا – وبينما أحد الخدم يهرع لإحضار كوبتين من القرفة الساخنة باللبن – أخرج الرجل القصير الأنيق بطاقته وقدمها إلى شادى الذى قرأ فيها : عبد الرحمن عزمى – سكرتير ثان بوزارة الخارجية ، وبادره قائلا :

– إننى موفد من قبل السيد وزير الخارجية بهدف توخى مقابلتك فى اليوم ذاته ومن ثم أصطحبك لمقابلته فى موعد أقصاه ظهر الغد .

بدا الضيق فى نبرات شادى الواهنة : هكذا .. بلا مقدمات

أجاب مندوب الخارجية فى عذوبة : معذرة . فى الحقيقة فإن سيادتك مدعو لمهمة عاجلة .. وعلى جانب كبير من المسئولية .

– هل لى على الأقل أن أطلع على طبيعة هذه المهمة ؟

– ليت الشرف لى ، سوف يخبرك سيادة الوزير شخصيًا بكافة التفاصيل ، أما أنا فكل دورى أن أصطحبك بسلامة اللّه حتى باب مكتبة القاهرة .

– لكنى مكلف من قبل وزارتى بإعداد دراسة شاملة عن ميناء برنيس الجديد وعن المدينة الذرية بوادى خريط ، والتى ما يزال العمل جاريًا فى استكمال رابع محطات توليد الكهرباء بها على بعد ٤٠ كيلو مترا شمال شرقى أسوان .

– نحن على بينة من ذلك كله يا سيدى .

– تعلمون أنني لم أستكمل مهمتي هنا !

قال مندوب الخارجية بعد أن رشف جرعة كبيرة من القرفة :

– بل وقد أستأذنا السيد وزير البحث العلمي في قطع مهمتك واستدعائك للمهمة العاجلة، وهاك خطاب رسمي بذلك .

حين قرأ شادي كلمات الخطاب الرقيقة أسقط في يده ، فقد كان المعنى واضحًا ، دقيقًا وقاطعًا ولا يحتمل أي تأخير .

–وإذن ؟؟

لفتت الطمأنينة أفكار مندوب الخارجية : من الطبيعي أن يرحب وزير البحث العلمي بقيام واحد من خيرة رجاله بأداء مثل هذه المهمة .

طار النعاس من عيني شادي ، واستعاد بسرعة روحه الوثابة ، واعتدل في جلسته :

–على ذلك فسنتحرك إلى مطار أسوان في الصباح المبكر ، ونستقبل طائرة الظهيرة لنصل .

اعترض مندوب الخارجية في لهجة تقرب من الإعتذار ويده تستكين فوق يد شادي :

– بل لو سمح لي سيدي ، فإن طائرة عمودية تنتظرنا الآن بساحة ميدان الرماية لتنقلنا إلى مطار أسوان ، بذلك نلحق طائرة الصباح وليس التي تتحرك ظهراً .

لم يتفوه شادي بحرف هذه المرة وإنما صعد إلى حجرته بالطابق العاشر ، وفي هدوء أعد حاجياته وما أن أغلق الحقيبة عليها حتى هبط ليرافق الرجل القصير الأنيق مندوب الخارجية في اتجاه الطائرة العمودية .

في كلمات منمقة مقتضبة أخبره الوزير وعويناته السميكة تهتز وتنزلق إلى أرنبه أنفه فيرفعها بطرف إصبعه ، أن المقابلة المقصودة لن تكون معه ، إنما مع شخصية أعلى مقاما وأكثر تشريفًا .

أخبره أنهما خلال خمسة عشر دقيقة – الزمن الذى ستقطعه السيارة بهما – سوف يمثلان أمام رئيس الجمهورية :

– الرئيس ، هكذا مباشرة ، وبلا توان .

أحس شادى بالانزعاج فى أعماقه ، انزعاج ودهشة وحيرة ، إذن فالموضوع أكثر خطورة مما تصور قبلا ، وفى المروحية وهى تسابق الزمن راح يعتصر مخه .

ترى أى مهمة سيكلفه بها الرجل الأول فى طول البلاد وعرضها ، أى عبء مهول تضع الدولة مقاليده بين يديه ممثله فى شخص رجلها الأعلى :

لقد جابه شادى عشرات المواقف المعقدة من قبل لكنه قطعًا لم يواجه بمثل هذا الموقف وعلى هذه الصورة المفاجئة العجلة .

وراح عقل شادى يقلب الأمور أكثر من وجه ، وراح يستدعى كافة الاحتمالات الممكنة وغير الممكنة فى تقديره .

وشغلته أفكاره عن مسار الرحلة القصيرة التى قطعتها السيارة الفارهة ، وحجبت عن بصره مدخل القصر الذى ولجه برفقة وزير الخارجية .

لم ير الأبواب المبطنة التى فتحت لمقدمهم .. ولا الأبسطة الحمراء التى غاصت فيها أقدامهما ، ولا أحس بالتشريفاتية والسكرتيرين الذين صحبوهم من دهليز إلى بهو إلى قاعة ، إلى قاعات من داخل قاعات ، حتى دلفا آخر الأمر إلى الحجرة الدافئة المغطاة بسجادة خضراء أكثر سمكا وبهاء ، وهناك قبالة مكتب أنيق ، رآه يقف هادئًا مستكينا وقد شردت نظراته عبر نافذة ينسدل عليها ستار من التل الشفاف .

تنحنح الوزير فاستدارت أنظار الرئيس .

– أقدم لفخامتكم السيد شادى الصادق .

– أهلا ...

وقدم الرئيس يده فأسرع شادى يحتويها ، وهو يلفظ عبارات مرتبكة .

– أهلا وسهلا يا فخامة الرئيس .

- تفضلا ، قالها الرئيس وهو يهم بالجلوس .

وجلس شادى على كرسى عريض قبالة المكتب ، وجلس الوزير على كرسى يماثله ، وحط صمت دافئ الثنايا .

قال الرئيس : حسب التقارير التى وصلتنى وإيماء إلى ما سمعته من إطراء متزايد ، فلابد أن يكون السيد شادى قارئًا ممتازاً مثلما هو مفكر قدير وأديب نموذجى .

- أرجو أن أكون عند حسن ظن فخامتكم .

وهمس الرئيس وهو يتفحص الرجل الخجل قبالته بتأن وإمعان :

- ما رأيك يا سيد شادى فى تلك الحمى التى تجتاز صحافة العالم هذه الآونة حول موضوع البرقيات الغامضة ؟

بدت الحيرة على قسمات شادى ، تطلع إلى الوزير مستنجداً فرآه يتهرب بإشاحة وجهه بعيداً حينئذ سمع الرئيس يكرر سؤاله فى لهجة حانية :

- من تظنهم مرسلى البرقيات ؟

- فى الحقيقة يا أفندم ، فإننى استبعد أن يكون مرسلوها من كوكب آخر ، كما استبعد أن تقدم دولة ذات كيان على مثل هذا الأسلوب المثير ، وإن تضمن نغمة صدق وجدية كما أعتقد .

- عظيم .. وماذا أيضاً ؟

- فى الجانب الآخر ، فإنى أستأذنكم فى رفض فكرة الجماعات المخربة والهدامة مثل عصابات شيكاغو وغيرها كما جاء فى الصحف والمجلات .

- معك حق ، واضح أن أسلوبهم مثير ، لكنه ليس بأسلوب هزلى أو عدوانى برغم أغراقهم للسفن الثلاث ، وإلا ما أبدوا استعدادهم لاستقبال مندوبين موفدين من دول الحياد ، على أنى أريد أن أعرف رأيك يا سيد شادى فى تكوينهم ، من تظنهم يكونون ؟

قال شادى : يخيل إلىّ يا فخامة الرئيس ، أنهم جماعة لهم هدف معين ، هدف مدروس بعناية لم يتضح بعد ، وهم يرابطون فى مكان ما ، خفى من كرتنا الأرضية ، وتحت أيديهم إمكانيات إن لم تكن مهولة فهى على حد كبير مؤثرة وفعالة .

– لا بأس ، أنت تفكر تفكيراً منطقيا .

وصمت الرئيس قليلاً ليضيف ، وعلى أى الحالات فسوف تأتينا أنت وزميلاك بالخبر اليقين عنهم وعن أهدافهم .

– أرجو معذرة فخامتكم ؟؟!

لكن الرئيس شغل عنه بتوجيه الكلام إلى الوزير ، ومن وسط التوهان الذى أغرقه ميز من بين كلمات الرئيس قوله : أسمعنا ما سجل بالجهاز من فضلك ، ولمح شادى الوزير يمد إصبعه ليضغط زرا فى جهاز تسجيل وضع على طاولة مستديرة بجاور المكتب ، والتى ضمت كذلك عددا من أجهزة التليفون المرئى ، وتعالى صوت رصين .

السيد شادى بديوى حسن الصادق ، من مواليد مديرية التحرير عام ٢٠٦٠ طبيب ومفكر ، وأديب ، وصحفى . له مؤلفات فكرية وأدبية واجتماعية . عام ٢٠٨٦ عمل طبيبا بمديرية التحرير . إلا أنه آثر الأدب على الطب فعمل بصحف ومجلات دار الأهرام . فى عام ٢٠٨٩ حصل على دكتوراه فى العلوم السياسية لكنه عمل بوزارة البحث العلمى . عام ٢٠٩١ اختير للعمل بمنظمة اليونسكو ، بعد أن تم طرد المعتدين الإسرائيلين عن أرض سيناء . آثر العودة إلى عمله السابق بوزارة البحث العلمى عام ٢٠٩٤ . ويجمع حاليا بين عمله بالوزارة ، وبين هوايته كأديب يمد جريدة الأهرام بإنتاجه بين الحين والحين . فاز بعديد من الجوائز من القصة والرواية ، كما فاز مؤخراً بجائزة الدولة التقديرية من الدرجة الأولى فى الأدب .

أومأ الرئيس إلى الوزير أن يوقف الجهاز ، فأوقفه .

ابتسم الرئيس معجباً بالرجل الماثل قبالته وقال :

– سجل حافل كما أرى يا دكتور . تستحق عليه التهنئة .

– أشكر لفخامتكم عطفكم .

استمر الرئيس فى كلامه : من أجل السجل ، بل والترشيح من أكثر من مسئول وخبير وعلى رأسهم السيدان وزير البحث العلمى ووزير الخارجية ، والتفت الرئيس إلى الوزير وسأله : أليس كذلك ؟

وقال الوزير : فعلا يا فخامة الرئيس ، بل وبتزكية من السيد رئيس الوزراء نفسه .

عاد الرئيس يواصل كلامه : من أجل ذلك فقد وقع عليك الاختيار لأداء مهمة دقيقة .. لا أظنها سهلة بأى حال من الأحوال ، أجل ، فإلى جانب وقتها وربما احتوائها على مخاطر مجهولة يعلم اللّه مداها هى حساسة كذلك ، للغاية ، للنظرة العالمية الملقاة عليها ، وللحياد المطلق الذى يجب أن تؤدى من خلاله من بدايتها وحتى نهايتها .

تمتم شادى وعيناه لا تحيدان عن فم الرئيس : إننى رهن أقل إشارة من فخامتكم .

قال الرئيس ببطء وهو يضغط على كل كلمة ينطقها بعناية :

– إننا نقدرك ، ونقدر جهودك ، ولا ننكر ما تلقاه مؤلفاتك وأفكارك من حظوة لدينا .

لذا فقد قررنا أن تكون الممثل الحيادى لجمهوريتنا العربية ، مصر فى الرحلة المزمع القيام بها مع زميليك ممثل الهند وممثل يوغسلافيا إلى المقر السرى لمرسلى البرقيات الغامضة .

كانت المفاجأة ضخمة ، أضخم من كل ما توقع شادى ، واحتوته دوامة من الأحاسيس والمشاعر المختلطة المتباينة ، وجاهد حتى لا تميد به الحجرة فيسقط .

فى إعياء مكتوم هتف شادى : إنه تشريف عظيم لى إننى فى خدمة بلدى دائماً .

– هذا كل شئ يا سيد شادى ، سوف تفاد بالتفاصيل ، وبكافة المعلومات من السيد وزير الخارجية ومن المسئولين ، والآن ..

ثم هب الرئيس واقفا وعيناه تحملان نظرة أمل وتشجيع : إننى أتمنى لك التوفيق فى مهمتك ، صحبتك السلامة .

ووسط عبارات الشكر والعرفان غادر شادى الحجرة أكثر ذهولاً وتوهانا عما دخلها ، وسار فى طريق العودة تماماً كما سبق وصار لدى مجيئه وهو لا يعى شيئًا بالمرة مما يدور حوله ، فقد اختلطت المشاهد بما فيها من أناس وموجودات وألوان وروائح لتصبح ستارًا كثيفًا يعزله وأفكاره عن عالم الواقع ولو للحظات ..

اختارت مصر ممثلا واحداً لها من أقدر كتابها ومفكريها ، واختارت الهند ممثلها من بين كبار شعرائها وحكمائها أما يوغسلافيا فقد وقع اختيارها على مهندس من خيرة علماء الذرة لديها : بذلك اكتمل تكوين المبعوثين الثلاثة الذين يمثلونه دول الحياد المؤسسة للمبدأ الحيادى منذ أول ظهوره ، وحتى تم تجديده وتأكيده مؤخراً .

فى هذه الأثناء كانت الاستعدادات تقوم على قدم وساق فى سبيل تحقيق هدف آخر خفى ، هو معرفة مقر الجماعة السرى ، كل دولة كبرى اتخذت من أجل تحقيق هدفها ما لم تتخذه قبلا فى هذا المضمار .

الولايات المتحدة الأمريكية جندت كل عميل وعميلة فى جيش شبكات مخابراتها ، وأطلقت أقصى ما لديها من طاقات علمية متفوقة فى الإلكترونيات وأجهزة استراق السمع والتسجيل فائقة الحساسية ، كما وضعت قواعدها العسكرية المقامة شرقًا وغرباً وشمالاً وجنوباً من كرة الأرض وأساطيلها البحرية المنتشرة بأعلى البحار والمحيطات تحت التأهب ، وفى أقصى درجات الاستعداد للتحرك الفورى .

كذلك حذت روسيا الصين حذو الأمريكان ، كما نشطت أجهزة التجسس والتنصت لدى الدول الحليفة والتابعة والمنقادة والواقعة تحت أنواع متباينة من السيطرة حتى الفكرية منها .

وأطلقت الدول الكبرى عشرات ، بل مئات ، من الأقمار الصناعية من الطراز المستكشف ٨ ، والحارس ١١٢ ، وعين الإعصار ٦ ، والراصد ١١٨٨ ، واللاقط

والساهر والمحذر والعنيد ، والمنجد الأكيد ، وغيرها من الأنواع الأمريكية والروسية والصينية والفرنسية والإنجليزية والألمانية واليابانية .

وبينما زادت الولايات المتحدة من إعداد طائرات التجسس من طراز ر. ك . ٣٣ السرى المطور ، وطراز س. ر. ١٢ المسمى بالشبح ، عمد الاتحاد السوفيتى إلى إطلاق المزيد من محطات الفضاء ذات الآدميين من الطرازين المطورين الكترون الجديد وبروتون ٢٠ ومن المنصة ساليوت المزدوجة . وقد زودت كافة هذه الأقمار والطائرات ومحطات الفضاء بأدق التصوير النهارى والليلى ، وبأجهزة الكشف عن الروائح والتقاط الأمواج فوق الصوتية الصادر من الأجساد البشرية ، وبالأعين الحرارية والرادرية ، وأعين الأشعة البنفسجية ، والحاسبات الإلكترونية المتفوقة ومنها تلك الذاتية التصرف .

وحين حددت برقية تالية للجماعة المجهولة مكاناً بعرض المحيط الهادى لالتقاط ممثلى دول الحياد الثلاثة ، فقد سارعت الدول الكبرى من فورها بإرسال ما لديها من سفن التجسس الإلكترونى ، ودفعت بوحدات من سفنها الحربية وغواصاتها النووية وطائرات الاستكشاف لديها ، تحم حول المنطقة على مسافات مناسبة وقد سلطت جميع أجهزتها فى اتجاه بؤرة محددة من صفحة المحيط الهادرة انتظاراً وترقباً اللحظة بعينها .

كان هذا هو الموقف وتلك هى الصورة قبيل قيام الرجال الثلاثة من دول الحياد بمغامرتهم الفريدة فى نوعها .

* * *

القسم الثانى

مدينــة القعـــاع

الفصل الأول

"الثلاثاء ١٥ يونيو عام ٢٠٩٩"...

راحت محركات الطائرة العلوية تهدر بلا توان وجسمها الشبيه بجراده خرافية يندفع فوق صفحة المحيط بارتفاع خمسة أو ستة أمتار .

كانت إحدى الطائرات العمودية الضخمة التابعة للأسطول البحرى الهندى ، وكانت قد أقلعت بنا منذ نصف الساعة من فوق حاملة الطائرات العمودية "نيودلهى" من مكان رسوها ، حيث يمر خط الاستواء على بعد ميلين شمال غربى مجموعة جزر جالا باجوس موطن سحالى الإيجوانا المنحدرة من وحوش الديناصور .

فقد حددت آخر البرقيات الغامضة خط سيرنا حسب النظام التالى (يتجمع ممثلو دول الحياد الثلاثة - أنا المصرى وزميلاى الهندى واليوغسلافى - فى بلغراد عاصمة اليوغوسلاف ، ثم الإقلاع منها بطائرة يوغوسلافية إلى مدينة نيويورك بالولايات المتحدة الأمريكية . بعدئذ تتولى نفاثة أمريكية نقل ثلاثتنا عبر جبال روكى إلى سان فرانسسكو حيث ترسو بمينائها من قبل الحاملة الهندية فى زيارة رسمية ، والتى عليها أن تذهب بنا بدورها إلى منطقة جزر جالاباجوس ومن هناك تتولى واحدة من عموديات الحاملة التوجه لتركنا بنقطة معينة من عرض المحيط الهادى ، بالتحديد نقطة التقاء خط الاستواء بخط الطول ١٢٠ غربا . وكانت أهم تعليمات البرقية ألا يحمل ثلاثتنا أى معدات أو أجهزة أو أطعمة فيما عدا ترمس سعة ثلاثة لترات من ماء الشرب تكفى حاجتنا ليوم والملابس التى نرتديها . وأيضًا ساعات المعاصم وعوينات الشمس إذا احتاجها أحد ثلاثتنا كما حملت البرقية تحذيرا مشددا بالتزام الدقة فى المواعيد المحددة .

وعدم تواجد أى من وحدات البحرية أو الطيران سواء الحربى منها أو المدنى تتبع لأى دولة وذلك فى محيط دائرة قطرها ٢٥ ميلا بحريا حول نقطة تركنا) ...

أعادنى هدير الطائرة إلى الواقع حولى ، منذ تسعة أيام كنت أجرى دراسة ميدانية على موقع متطور من أحدث مواقع مصر العلمية .. كنت فى قلب ميناء برنيس الجديد على البحر الأحمر ، كنت موشكا على تفقد المدينة الذرية بوادى خريط .

والآن ، اليوم ، إلى أين تقصد بنا الطائرة ؟ وبأى بقعة مختلفة نقيضه ؟ ستتركنا ، لا أدرى ، ولا أحد غيرى يدرى ، سوى القلة الغامضة من أناس مجهولين ، يختفون فى مكان ما قريبا سوف نصله .

كان تجويف الطائرة متسعًا . فى صف صامت جلس الهندى ناحية الذيل فاليوغسلافى فأنا ، فى حين ضمت قمرة القيادة على يسارى طياراً واحداً قبع إلى جواره ضابط من ضباط البحرية الهندية يرتدى لباسًا للغوص . وفيما عدا التجويف والقمرة لم يكن فى مقدورى أن أميز من مكانى شيئًا مما يحيط بمسارنا خارجًا ...

مرت ساعة متوترة قبل أن يعلن الضابط وصولنا إلى الهدف المنشود ، إلا أننا نسبق الموعد المحدد بدقائق عشر من أجل ذلك استمر تحليقنا لفترة أخرى على غير هدى .

انقضت الدقائق بأسرع مما توقعنا لتعلن ساعاتنا الرابعة مساء ، حينئذ توقفت الطائرة عن التقدم فى أى اتجاه ، لبثت معلقة فى الهواء ، فتح الضابط الضفدع بابًا جانبيا وقفز ، وسمعنا ارتطامه بالمياه كأول لقاء بالحقيقة الرابضة فى انتظارنا . ترك الطيار طائرته للقيادة الآلية ، وتقدم يمد من فتحة الباب سلما متينا من جدائل النايلون ثم استدار يدعونا للنزول ووجهه يفيض بابتسامة مشجعة .

كان الدور على أولا ، تشجعت ، فتقدمت حين أطلت رأسى كان الارتفاع لا يقل بينى وبين الأمواج المزبدة فى وهن تحتى عن طابقين من طوابق بنايه متوسطه ، على إننى تمالكت نفسى ، تعلقت ببداية السلم المتأرجح ، تدليت ببطء ، لدهشتى هبطت بلا عناء إلى داخل القارب المطاطى وقد أعده من أجلنا الضابط الذى قفز قبلنا .

وتبعنى زميلاى وهما أكبر منى سنا وأبطأ حركة دون تردد .

وحومت الطائرة العمودية فوقنا بعض الوقت ، أخذت دائرة كاملة فوق رؤوسنا ، لوح لنا من فيها ثم اعتدلت وسرعان ما راحت تتضائل حتى اختفت كلية .

أخيرا ، ها نحن الثلاثة ، وحدنا ، بين خضرة الماء وزرقة السماء ، وقرص الشمس المعلق ما يزال يرسل أشعته الساخنة من اتجاه الغرب .

واحتوتنا فترة من الجمود والتبلد الحسى .

بالنسبة لي كان الأمر أكثر من محير لطاقتى الذهنية ، أكبر من أن استوعبه وأذعن له لمجرد وجودى فيه ، حجرة مكتبى الدافئة بروضة القاهرة ، أو مقعد وثير بإحدى النفاثات بين الإسكندرية وأسوان ، أو فراش رحب وأضواء حانية حيث أبيت خلال أسفارى ، بل حتى مقاعد سيارتى المصرية الصنع ونغمات المذياع تتدفق إلى أعماقى ، كيف استبدل كل هذا وغيره ببساطة بذلك القارب المطاطى الملقى وسط صحراء من اللجه تترامى إلى ما لا نهاية .

صدمنى شعور من الوحشية لابد وأن رفيقى كانا يعانيان منه مثلى ، فقد خيم على ثلاثتنا صمت ثقيل . رفعت بصرى إلى رفيقى ، كان كل منهما يحلق فى عالم أفكاره يعتريه الذهول والوجل ، ممثل الهند الشاعر راجى كومار كان يتكئ قبالتى على حافة القارب ، وقد ثنى ساقه اليمنى أسفله ، وشبك ذراعيه كأنه يمارس اليوجا ، فى حين استلقى فيما بيننا ممثل دولة يوغوسلافيا المهندس يوسيب يوفان وقد فرد ذراعيه بطولهما على جانبيه ، ومد ساقيه أماما مستسلما بكل جسده لتلاعب القارب وتحركه هينا مع التيار .

راجى كان أسمر الوجه وسيم الأنف والفم ، له عينان سوداوان ناعستان يظللهما حاجبان سميكان يصنعان خطا يوازى خط شاربه الكثيف .

كما كانت تغطى طرف ذقنه لحية قصيرة مدببه ، أما يوسيب الذى أطلقت عليه اسم يوسف منذ لقائنا الأول ببلغراد عاصمة بلده – وقد شاركنى راجى مناداته به – فقد كانت عيناه زرقاوين واسعتين ووجهه مستديراً ذى جبهة عريضة ووجنتين بارزتين تنبئ عن سلالة دينارية أصيلة ، كما كان أحمر طرف الأنف حليق الشارب واللحية .

وبينما كانت سنى ٣٧ عاما ويوسف يكبرنى بعامين أو ثلاثة فإن راجى كان سنه لا تقل عن ٤٥ عاماً إن لم تزد ، كما كنت الأطول وراجى الأقصر ويوسف الأكثر امتلاء .

عند الأفق شمالا اتضحت سحابة بيضاء ، انعكست عليها أشعة الشمس الغاربة فبدت بنفسجية ذات حواف حمراء ، وقد لحظها يوسف فاستيقظت حواسه وراح يتأملها مليا ليتمتم دون أن يغير اتجاه وجهه :

- لو هبت عاصفة ، فما موقفنا ؟

كانت أول كلمات ينطقها أحدنا منذ ضمنا القارب سويا .. وقد رنت أصدائها كنغم ناشذ وسط سكون حزين ، ورفع راجى رأسه يراقب السحابة بدوره لكنه سرعان من أصدر حكمه : أنها عادية ، سحابة صيف لا تعنى شيئا .

وأضفت : لا تنسيا كذلك نشرات الأرصاد التى أجمعت على أن الجو فى يومنا سوف يظل صيفيا صحوا يميل إلى الحرارة .

استدار يوسف وانحنى أماما : معك حق يا شادى ، على الأقل فإن وحدات الأساطيل المنتظرة بخارج نطاق الخمسة والعشرين ميلا فى مقدورها مد يد العون وقت الخطر .

ولم يفت راجى أن يعلق ساخرا : تقصد وحدات التجسس .

بمرور الوقت بطيئًا مستغربيًا ازدادت روابط الألفة بين أفراد جماعتنا الصغيرة ، وبقدر ما بدت ثقافة دائرة غزيرة للمعارف ، بل وتجاوز راجى الدعابة فأسمانى أديب البعثة ومسجل أفكارها اليومية .

مع اختفاء الشمس وانتشار الظلام اعترضتنا مشكلة بدت للوهلة الأولى شائكة .. لم يفكر فيها واحد من جماعة الخبراء والمشرفين اللذين تولوا تنفيذ برنامج الرسائل الغامضة حتى أوصلونا إلى هنا .

الليلة ليست مقمرة ، فكيف يرانا مدعوونا وسط حلكة الظلام ؟

قالها يوسف وهو يتلفت حوله بقلق ، اعترضت : قطعا لديهم أجهزتهم لاكتشافنا رغم أى معوق وإلا فكيف سيمكنهم وهذا هو الأهم أن يخترقوا حصار السفن

والأساطيل المضروب حولنا من بعد ... همس راجى كومار : أتظنان .. أن باستطاعة مرسلى البرقيات التقاطنا ، حقا ؟

أجاب يوسف فى ثقة بدت غريبة إزاء جهلنا عمن نتكلم عنهم : أرجح ذلك ، ورغما عن كل قوى الإلكترون والإشعاعات غير المرئية المسلطة ضدهم .

قلت : ويخامرنى شعور بمشاطرتك الثقة فى تفوق إمكانيات مرسلى البرقيات .

فى النهاية أحكم الظلام حلكته علينا تماماً .

صارت أحاديثنا كلمات خافتة ممطوطة نتبادلها بغير أن نتبين ملامح بعضنا البعض ، ولم يبرد الجو وإن خف الدفء ، وحلت محله نسمات منعشة تأتى من اتجاه الشمال الغربى ، فى حين ظل الموج على هدوئه ، إلا أن أعيننا ، بقيت مسخرة من أجل تبين أى جسم يقترب من قاربنا ، لكن فيما عدا السماء المرصعة والتى لم ألحظها فى مثل هذا البهاء قبلا ، وتلك الأنوار المتحركة لدى الأفق الدالة على مرور السفن أو إحدى النفاثات عن بعد ، أو الأقواس المضيئة التى ترى فوقنا خلال عبور قمر صناعى . فيما عدا ذلك فلا شئ سوى الظلام والصمت .. وأشباح ثلاثتنا هاجعة لا تصدر عنها أى حركة ولا يسمع منها تردد نفس .

قرب الفجر ، حوالى الثالثة والنصف صباحًا التفت حول القارب رؤوس سوداء راحت تتبعنا وهى ترقبنا فى فضول ، ومع اتضاح الأفق شرقًا ، وتسلل المزيد من الأشعة المبكرة ، تبينا فيها بعضاً من أسماك الفرنكة المخططة ذوات الجلد الأملس بنى اللون ، وهى من فصيلة أسماك القرش غير المفترسة ، على أن قطيع الأسماك تخلف عنا مع ظهور قرص الشمس برتقاليا عملاقا .

رغم أرقنا طيلة الليل ، وتسلل التعب والإرهاق إلى أجسادنا ، وتيبس أطرافنا من جلستنا غير المريحة ، ورغم إصابة راجى بمتاعب الدوار وقلقنا من أجله وإن جاءت الأعراض مخففة ، فقد أخذ ثلاثتنا بروعة شمس الشروق التى لم تكن تقل روعة وجمالا عن شمس الغروب ، بل أن صفاء السماء ، وامتداد بسط الماء المتلالئ ، فى بدايات ونهايات متماوجه رقراقه ، قد زاد المنظر شاعرية .

على أن روعة المنظر لم تكن لتسكت عضات الجوع التى أخذت تداعبنا ، كما أن أجزاء الحطام والنفايات العطنة الطافية ، التى نمر بها أو تمر بنا ، كانت رائحتها تثير ضيقنا أحيانا وما أكثر تراكمها وتزاحم جزرها بأنحاء المحيط .

لكن شغلتنا أسئلة دفينه محيرة ، ترى ما الذى أخر قدوم مرسلى البرقيات الغامضة ؟ .. أبسبب كثرة السفن الحربية خارج دائرة الخمسة والعشرين ميلا ؟ .. أم بسبب عشرات الأقمار التى تزرع السماء وعيونها الخفية مسلطة على المنطقة حيث يطفو قاربنا ؟ . أم ترى أن هؤلاء لن يحضروا أبدا ؟ وزاد فى سوء موقفنا ما لاح يتجمع وئيدا عند الأفق الغربى .

سحب داكنة تقبل فى تثاقل الواحدة فى أعقاب الأخرى ، وبدا وكان شيئا غير مألوف يعترى هذه السحب ، ظهورها المفاجئ ، ثم هذا الشكل الغريب الذى يميزها ، فكلها تكاد تتفق فى نفس شكل القرص المستدير المسطح من أسفل بينما له نهايات هرمية مسحوبة أطرافها خلفا ، وإن تباينت أحجامها واستطال بعضها بفعل الرياح على ما يبدو .

وهبت دفقه من هواء ساخنة فاضطرب الموج وعلا .

وازداد تجمع السحب حتى غطت السماء إلا ما كان يتضح من أشعة تتسلل من بين فرجاتها .

وكانت الساعة وقتئذ ، تحدد السابعة صباحاً .

ووسط قتامة الجو واكفراره وتلاعب الموج بقاربنا بصورة أعادت الدوار إلى راجى ودفعت المزيد من الضيق والقلق فى نفوسنا ، ألحّ على خاطرى تساؤل تمتمت به شفتاى :

– أرى أن هذه العاصفة غير المتوقعة سوف تعجّل بمجئ السفن لإنقاذنا ، فنفوت بذلك فرصة لقائنا بمرسلى البرقيات الغامضة .

تفرس فىّ يوسف وهو يبذل جهدا لاستيعاب كلماتى برغم ازدحام ما يدور فى

رأسه من أفكار قاتمة على الأرجح ، فى حين تمدد بيننا جسد راجى مغمض العينين وصوت الموج يغطى على أذنيه .. قال يوسف فى نفاد صبر :

– المهم الآن أن يحسم أمر إنقاذنا ، وليؤجل اللقاء إلى موعد لاحق فقد سئمت الانتظار .

حينئذ هبط الضباب دون سابق إنذار .

هبط أو أقبل من اتجاه لا يمكننا تحديده ، فقد أحسسنا به فى رائحة الخل التى زكمت أنوفنا وطعمه اللاذع على أطراف ألسنتنا ، ولساته اللزجه على رموشنا ، ثم وجدناه يطوينا ويقارينا فى أحشائه . الآن تعقد موقفنا وأصبحنا مهددين بكارثة فعليه ؛ إن لم تبادر سفن الإنقاذ بالمجئ خلال دقائق معدودات . فبينما العاصفة تتجمع ها هو الضباب يخفى موقعنا كلية عن الأعين ، على أن الأفكار السود لم تكد تسيطر على ثلاثتنا حتى رأينا الموج ينشق عن شبح يبرز من أعماقه ، كان ظهوره معتما باهتا على مقربة أمتار منا .

– انظر ، هناك .

أفلت يوسف الصيحة ، مذعورة وهو يعتدل بجسده فيميل القارب بعنف ناحيته ، فى الوقت الذى تساءل فيه راجى وعيناه على اتساعهما رغم تشتت قواه :

– ما هذا .. من أين أتى ؟

بينما تمتمت مشدوها : غواصة !

حملق يوسف بشراسة يريد أن ينفذ إلى أعماق الجسم الذى كمل بروزه ..

همس : أنه نموذج ، متقدم جدا عما ألفته كمهندس ميكانيكى ، وكمصمم للجديد فى ظنى من الآلات المتطورة .

انفتحت طاقة فى جانب الجسم ، انقذف حبل رفيع فى نهايته ثقل استقر فى قاع قاربنا ، وانجذب القارب ، التصق بالجدار الفولاذى ، الزئبقى الطلاء ، وحين صعدنا الفجوات المنحوتة على شكل سلم المت بتفاصيل الهيكل الأسطورى فى لمحات خاطفه .

كان يشبه قطرة الدمع فى تصميمه ، وكان يتضح منه فوق سطح الماء ما لا يزيد ارتفاعه عن مترين ، وأما طوله فيبلغ نحو ٥٠ مترا ، فى عرض ٥,٥ متراً ، وكان يتوسط السطح لدى ثلثه الأول ما يماثل برج المراقبة فى الغواصات الذرية المعروفة .

فى مقدمة الجزء المرتفع من الجسم واجهنا باباً ينفرج عن مصرعيه دون أن نرى خلفه أحدا فى استقبالنا ، وتقدمنا يوسف وخلفه راجى وكنت آخر المتسللين ، ومن ورائى ، وبطريقه آلية انصفق الباب فى ليونه وهو يئز أزيزاً خافتاً .

منذ اللحظة أصبحنا بين يدى مرسلى البرقيات الغامضة وتحت رحمتهم إن كان هذا الجسم المرجح أنه غواصة يتبعهم حقا .

ومنذ اللحظة ، نحن فى الطريق لأكثر مغامرات التاريخ إيهاماً وإثارة .

جدران الممرات بالداخل كانت مغطاه بطبقة ملساء من اللدائن ، وكانت دافئة ، تملؤها رائحة زيت الليمون المنعشة ، وقد بادر صوت رصين يكلمنا من خلال مكبرات خفية الصوت ، فى فرنسية سليمة المخارج .

" مرحبا بالسادة ممثلى دول الحياد ، نرجو أن تجدوا الراحة والطمأنينه وكل ما تطلبون من زاد بداخل الغواصة الحارس رقم ٦ ، من أسطول حراسة مقرنا ، الذى سننقلكم إليه خلال ٥٢ ساعة من السير المتواصل تحت الماء" .

إذن فهى غواصة بالفعل ، نموذج مطور للغواصات لم نر له مثيلا .

ونادتنا كلمات الصوت الواضحة إلى قمرة متسعة حيث وجدنا ثلاثة أسرّة هيئت لنومنا ، كما وجدنا ثلاث مجموعات من الملابس بدولاب حائطى على كل منها اسم أحدنا، وبينما أخذنا نستبدل بها ملابسنا المبتلة فتأتى مقاساتها مناسبة بدرجة كبيرة ، بينما نحن فى دهشة من كمال النظام ودقة الإعداد بداخل قمرة نومنا إذا بنا نسمع صوت المياه المالحة تتدفق فى مكان ما إلى خزانات الغواصة .

وسرعان ما أحسسنا بعملية الهبوط إلى المياه العميقة حين مالت القمرة بنا ميلا شديدا دلالة على اندفاع الغواصة بمقدمتها إلى الأسفل بانحدار عظيم ، لكنه لين ، وكأننا نندفع فى أعماق بئر ملئت بريش النعام ، أو برغاوى الصابون .

واتخذت الغواصة طريقها الثابت بعد ذلك ، دون أن نعى اتجاه سيرها ودون أن تصل إلى أسماعنا أدنى أصوات لتحرك آلاتها .

كانت التعليمات الأولية ألا نبرح القمرة ، حتى دورة المياه كان بابها الواطئ من داخلها ، وكانت هناك إرشادات بتناول وجبة جافة وجدناها على رف مجاور ، وهذه أتينا على محتوياتها ، وقد شاركنا راجى شهيتنا بعد أن نصحه الصوت بتناول حبة دواء كان لها مفعول السحر فى إعادة قواه إليه .

عقب الوجبة والتى كان اللحم البقرى المقدد عنصرها الرئيسى ، أوى كل منا إلى فراشه .

* * *

"الخميس ١٧ يونيو ...

يبدو أننى كنت أعانى إرهاقًا شديدًا بالأمس ، فبمجرد أن شعرت بنعومة الفراش شدنى فى الحال سبات عميق ، طوانى فى أغواره بلا أحلام ، وحين استيقظت كان رفيقاى ما يزالا يغطان فى نومهما .

وكانت ساعة معصمى تتفق مع عقارب ساعة مضيئة تثبت فوق باب القمرة بأن الوقت الذى انقضى على نومى بلغ ساعات عشر كاملة ، من الثامنة صباحا إلى السادسة مساء .

أيقظت راجى يوسف ، تناولنا سويا وجبة عشاء من نفس شطائر اللحم المقدد .

فى التاسعة مساء – وقد خف إحساسنا بفارق الزمن بين الليل والنهار – فاجأنا الصوت بالتصريح لنا بتفقد أجزاء الغواصة (الحارس رقم ٦) .

أخيراً سوف نقابل أحدا من هؤلاء ، من جماعة مرسلى البرقيات الغامضة .

عبرنا ممرات نظيفة متداخلة وضعت بها على مسافات منتظمة مكبرات الصوت التى اكتشف يوسف أنها فى سمك وشكل العملة المستديرة بقطر ٢ سم .

وكان كل مكبر يعمل بمجرد وصولنا إليه بينما يبطل السابق ، وواحد وراء الآخر قادتنا المكبرات عبر الممرات التى سلكناها إلى أجزاء الغواصة الحيوية .

كمركز التحكم فى المفاعل النووى وغرفة الماكينات المساعدة ثم غرفة المفاعل النووى نفسه بآلاته المعقدة وغرفتى تشغيل دفة التوجيه والدفات الأفقية .

كما تفقدنا غرف الإعاشة والترفيه والصواريخ والمخازن .. وكذلك مررنا على باب لم يتح لنا ولوجه وقد كتب عليه (مركز بث الجدار الموجى والضباب الصناعى) .

وفى النهاية صعدنا سلما لندلف إلى ردهه بها نباتات معلقة فى أصص زجاجية مستطيلة وقد تدلت منها أوراق رفيعة مدببة باهتة الخضار .

واعترض ثلاثتنا باب ضخم ، ومن ورائه تسللت أصوات أزيز وصدى لموجات بث لاسلكى تعلو وتخفت وهدير رتيب لآلات قوية ، انفتح الباب آليًا ، نفذنا للداخل .

ما هذه القاعة المترامية الأرجاء ؟ أنحن فى غواصة ؟ أم فى قلب واحد من طوابق مجمع الحاسبات الإلكترونية ذى الـ ١٨ طابقًا المشيد حديثًا بالعاصمة المصرية ؟

وأين هم مدعوونا أو مستقبلونا أو قواد الغواصة وبحارتها ؟؟ وما هذه الإضاءة الإسطورية ؟؟ لا كهرباء ولا مجارى فسفورية ، إنما الجدران ذاتها بها خلايا ، أو بؤرات تشع نورا حانيا فيه بهجة النهار ودفئه الطبيعى .

وهذه الآلات والعدد بحوائط القاعة الأربعة ، عشرات المؤشرات والعددات وأجهزة القياس والملاحة تصلها آلاف الأسلاك والأزرار .

وهذا حاسب إلكترونى لا تخطئ العين تركيباته ، بجواره ما يشبه جهازا لقياس الأعماق مثبتة به لمبة إنذار ولوحة رادارية ، وذاك دون شك نوع حديث بل مبتكر من البيرسكوب المزدوج ، وتلك أجهزة التنبيه الرادارى البحرى والسطحى والجوى ، وأجهزة اللاسلكى ، وشاشات التليفزيون المجسم ، ومجموعة أزرار إطلاق وتعديل مسارات الصواريخ ، وأجهزة كثيرة وعدد وأزرار متنوعة غير معروفة بالمرة ، لكن من

يديرها على تنوعها وتفرعها ، لا أحد ، هى تتحرك ذاتيًا ومن تلقاء نفسها ، تحركها قوى غير منظورة ، لنا على الأقل .

وتكلم الصوت بنبراته المألوفة ليزيح غشاوة ملقاة على أعيننا :

«الغواصة الذرية – الحارس رقم ٦ – إنما تسير بالتوجيه اللاسلكى فى طريق عودتها إلى مقرها وبعد أن تخطت نطاق سفن المراقبة والتجسس بنجاح » ولا أحد مطلقا ضمن جنس البشر بداخلها ، سوى ثلاثتكم » .

استشاط راجى غضبا فصاح وهو لا يعرف إلى من يوجه كلماته : وهل أنتم .. أنتم .. من البشر ؟ هل أنتم أناس آدميون مثلنا ؟

رد الصوت على الفور وبطريقة مهذبة «مثلكم تمامًا ، سوف تجدونا لدى لقائكم بنا نماثلكم تمامًـــا ، فنحن إنما بعض من أهل الأرض آثرنا الانزواء فى مكان مـا من كوكبنا ، ولنا مبادئنا وأفكارنا ونظمنا المحلية الخاصة » .

عمتنا راحة نفسية عقب سماعنا هذه الكلمات ، أنا بالذات ، هل خفت أن يكون مرسلو البرقيات حقًا من سكان كوكب آخر ، لا أدرى ! المهم أن أعصابى حط عليها هدوء نسبى لم تعرفه طيلة أيام عشرة ماضية . وانطلقنا نلقى الاستفسار تلو الآخر . كنا عطاشى لمعرفة كل ما يوجد ويدور حولنا مما يفوق إدراكنا ومفاهيمنا .. وعرفنا الكثير عن معجزة الفكر الإنسانى التى تقلنا إلى المجهول ، ولعلى فى إيجاز أقرر أنها غواصة ذرية يتم توجيهها بوسيلة آلية عن طريق لاسلكى من مكان ما غير معروف لدينا .. سرعتها وهى غاطسة ٤٠ – ٥٠ عقدة (= ٧٤ – ١٠٠ كيلو متر) فى الساعة ، وأقصى عمق تصله ١٦ ألف قدم .. الإزاحة غاطسة ١١٠ طنا سمك الألواح ببدن الضغط – المصنوع من نوع البلاستيك الفولاذى هكذا أسموه – ٤ بوصات ، تمكنها أجهزتها من المحافظة على الجو الصحى بداخلها مدة عام كامل دون حاجة للصعود لتجديد هواءها ... أما عن قدرة الغواصة على السير بدون توقف ، فهى غير محدودة ، إذ أن الوقود الذرى بها لا يستهلك إلا بعد سنوات قد تزيد عن اثنى عشر عاماً .

والأهم – وهذا شئ جديد كل الجدة – عرفنا أن الغواصة مقسمة إلى ثلاثة أقسام : مقدمة ، ووسط ، ومؤخرة ، فلو أصيب جزء منها يفصل ويمكن للآخرين مواصلة مهامهم وكذا لو لحق الدمار جزئين معًا لواصل الثالث عمله كأنه غواصة صغيرة منفصلة قائمة بذاتها ، وأيضًا لدى وجود خطر ماحق تنفصل الأجزاء الثلاثة ليأخذ كل منهم اتجاهًا مختلفًا لدى هربه .

فى نهاية سهرة علمية شيقة عدنا بإرشاد الصوت إلى قمرتنا .

تناول كل منا كوبا من عصير الأناناس ، دلفنا إلى أسرتنا ، فردنا أجسادنا ، استرخينا ، جرتنى تخيلات اليقظة إلى بعيد إلى قريتى النموذجية بأقصى ربوع مصر شمالاً ، حيث ولدت .

إلى القرية النموذجية ذات الدور الدوارة الواطئة ، وبها المسرح والبناية الحديثة الوحيدة بطوابقها الثلاثة مقر إدارة الرعاية والأمن ، وتلك الحدائق من حولها والسوق المتكامل على بساطة معروضاته – ثم سياج أشجار الجازورينا والكافور يلف حول الدور والسوق والجامع والميدان المتسع الذى يتوسطها . أجل لقد كان مولدى ونشأتى فى القرية النموذجية الحديثة التى تحمل اسم أحد أبرز قادتها العسكريين السابقين (المشير الجمسى) ، وكان ترتيبها التاسعة لدى شق الطابور المتتابع من القرى النموذجية فى قلب المشاريع الاقتصادية الرائعة التى شيدتها الدولة عبر الهضاب والطرق الصحراوية لإعمار هضبة سيناء ، وتحويلها إلى جزء نابض من أرض مصر بأحدث منجزات العلم الحديثة .

ولقد اكتسبت الكثير من نشأتى وسط أبناء رواد سيناء المتطورة الحديثة ، والتى فاقت تقنياتها عديداً من تقنيات جهات عالمنا وقتذاك وإلى اليوم . وإذ أضافت سنوات الجامعة إلى مداركى جديدا عما تعلمته فى صباى ورضعته من روح المغامرة وتحمل المشاق فى سيناء ، فقد غرست فى القاهرة العاصمة بعدئذ آلفة الناس وحب السفر والترحال .

حيث شعرت بروح المغامر ونفسه التواقة للمجهول ، وصبره على تحمل الصعاب والمكاره ، أجوب الكثير من العوالم ، عالم الكتب فى المبدأ ، ثم عوالم البلدان

والشعوب والأجناس والطباع البشرية على تقلب أهوائها . وكانت هوايتى الأولى الملحة ، تفهم كل ما هو مبتكر وحديث ، ثم التمعن فيه وتسجيله .

لكنى قط لم أجرب من قبل مثل المغامرة التى تحتوينى الآن .

* * *

"الجمعة ١٨ يونيو ....

استيقظنا مبكرين ، ساعة قمرتنا كانت تشير وقتها على الخامسة صباحاً .

لكن مصابيح الكهرباء المستترة خلف أفريز بالسقف استقبلتنا بأضوائها الخفية بدلاً من نور الشمس الذى لم نره لثالث يوم على التوالى .

وجبة الإفطار كالعادة شطائر اللحم المقدد ، بعد الفطار لم نجد ما نفعله ، لا شيء على الإطلاق فيما عدا أحاديث عابرة كنا نتبادلها على فترات متباعدة ، فقد وجد كل منا ما يشغله داخلياً وإن لم يبح بلسانه .

"اللهفة العارمة الممضة على سرعة الوصول كانت تعصف بأفئدتنا التصورات المتضارية الشاذة عما سنجد ونلقاه ونراه لدى وصولنا ، بل أن الصوت حين أخبرنا بأننا موشكون على بلوغ نهاية الرحلة ، ثم دعانا لنشاهد لحظة الوصول إلى مدخل المقر السرى . وطوال سير ثلاثتنا الصامت يتقدمنا الصوت من مكبر إلى مكبر ، فإننى كنت أتخيل نقطة غامضة بالقطب الشمالى فهكذا قدرت وزميلاى أن اتجاه الغواصة يأخذ خطًا متعرجاً نحو الشمال ، نحو الدائرة القطبية المتجمدة ، عبر مضيق بيرنج ، حيث تقوم مدينة إسمنتية تغطيها أستار بيضاء مبرقة صنعت من مادة الألومنيوم أو غيره بقصد التعمية والتخفى .

احتوتنا قاعة جديدة كانت أقل حجماً من قاعة القيادة .

جلسنا متجاورين على مقاعد جلدية قبالة ما يشبه شاشة التليفزيون أقيمت بطول وعرض الحائط المواجهة لجلستنا ، اتضح أنها لم تكن شاشة التليفزيون ، فقد انشقت

من منتصفها إلى جزئين ضخمين راح كل جزء منها ينكمش فى الاتجاه المضاد ليتوارى بداخل الجدار المقابل لنهايته ، وطالعتنا قبة بلورية شاهقة تفتح على مياه المحيط وتتوغل بنا فى أعماقه ، تسمرنا فى مقاعدنا لا نقوى على التنفس .

بدت بمقدمة الغواصة مطرقة الصلب التقليدية لتحطيم الثلوج ، وعلى جانبى المطرقة لمحنا كشافين قويين بنيران الطريق إلى مسافات بعيدة ، واتضحت قبالتنا أعماق المياه السحيقة ، بصخورها المغطاة بالأحياء الدقيقة خضراء وحمراء فى إيقاع داكن متلاشى ، وبشجيراتها المسامية الأوراق فى لون الفضة وأعشابها الطويلة المائجة ، وبتلك القطعان من الأسماك بزوائدها المضيئة قبيحة الشكل ، وبالكائنات المفلطحة والمكورة والعصوية فى قوام الزجاج وشفافيته ، لكن لم يكن على مرمى البصر أثر لأى قوام ثلجى متجمد .

أين نحن إذاً ، أى موقع من عرض المحيط الهادى ذلك الذى يطالعنا ؟ أم ترى الغواصة قد انسابت بنا إلى أعماق محيط أو بحر آخر دون أن ندرى .

تابعت أنظارنا الممر الذى يخترق دغلاً كثيفاً للأعشاب البحرية ، على جانبى الممر بينما كنا نتقدم من خلالها استقامت سيوف أو حراب من نباتات ورقية مستطيلة زرقاء ذات حواف صفر وتتدافع بعصبية كلما حاذاها جسم الغواصة الثقيل ، فى حين انفرش من أعلى خضار قاتم تملؤه أسراب السمك وكائنات الأعماق الشفافة والتى كانت تتلألأ أو يضوى بعضها فى لمحات خاطفة كومض عيون القطط أمام شعاعى الكشافين ، ثم بان فى النهاية حاجز صخرى .

لا بل كان بناءً عاليًا يشبه سورا غريب التكوين ، هل أقول إنه سور الصين العظيم قد شيد تحت سطح المحيط ، فى أعمق بقاعه . وكلما دنت الغواصة كانت تتضح لنا أكثر ، ضخامة السور وصلابة بنيانه ، وبها كتل الصخر الطبيعى تقويه وتربط أجزائه الممتدة بالارتفاع لا يقل عن ٣٠ متراً ، وبدت هناك مستديرة تتوسط السور لها ارتفاع موحد وأبعاد متساوية ، كما اعتلته أعمدة تشبه المداخن ذات قطر تقارب ربع المتر .

وارتفاعات تساوى متراً أو تقل قليلا وقد تقاربت المسافات بينها ، ومن أعلى فواهات المداخن أو المدافع هذه كانت تتصاعد نافورات عجيبة من فقاعات ذات وميض .
وفى قلب السور اتضحت بوابة عملاقة الغواصة مثمنة الأضلاع ، على جانبيها جسمان شاهقان يشبهان القدمين الأماميتين لأسد رابض .

توقفت الغواصة على نحو ٥٠ مترا من البوابة ، هبطت قليلاً لأسفل .

لاحظنا أن هناك نوعا من التراسل الضوئى بين الغواصة وإحدى الفتحات المستديرة ، ثم بغتة راحت البوابة المثمنة تنفرج عن نفسها كما تتفرج عدسة آلة التصوير ، ومن الفتحة التى اتسعت بصورة يصعب تصديقها نفذت الغواصة إلى الداخل ، إلى ما وراء السور العريض .

يا إلهى ....

أحلم الذى نرى من خلاله كل هذا ؟ أم حقيقة واقعة بالفعل ؟

يا لسحر المنظر وروعته ، يا لأسطوريته وإبداع لمساته وإيقاعه !

هذا الذى تراه أعيننا ، تتوه فيه ولا تلم بثناياه ، ولا تصل إلى أغواره .

أهو قائم ، راسخ ، موجود حقا ؟ أم مجرد خيال مبهج انسكبت إليه مشاعرنا العطشى بوسيلة لا ندريها ؟

المياه هادئة ، ساكنة ، بالغة الشفافية .

ومن ثنايا الخضار القاتم بعض الشيء انبعثت أضواء ، أجل أضواء رقيقة فيها لمسات الإنسان ، علمه . وخبراته ، وانطباع فنه الغريزى .

كانت هناك عمارة ملساء ذات طوابق متعددة ، وأبنيه على شكل مصاطب وأخرى على هيئة أقماع حلزونية ، مقلوبة ، وبناء ضخم متموج السطوح ذو قباب تصلها أنفاق وممرات مغلقة مستطيلة وحلزونية ، وبدت العمارة تلاصق جرفا صخريا هائل الفجوة ممتد السقف ، كأنه أكبر من كهف وحش ديناصورى بدائى . وقد نحت عدد من الأبنية متلاصقة مترابطة ثبت بعضها بكمرات فولازية أو هى أسمنتية أو صخرية .

كما ظهر بخارج نصف الدائرة مباشرة نموذج آخر من الأبنية بلورية الجدران كأنها حظائر لقطعان من الأسماك أو الحيوانات البحرية . وعلى جانبى دائرة المبانى قريبًا وبعيداً منها ، خططت حقول متجاورة مترامية ، ملأتها أنواع مختلفة من نباتات البحر وأعشابه .

« أيها السادة ... نحمدالله على سلامة وصولكم .. إلى .. مدينة القاع »

وتقدمت الغواصة فى يسر إلى داخل الفوهه .

* * *

الفصل الثانى

"الأحد ٢٠ يونيو عام ٢٠٩٩" ...

بداخل ما يشبه نفقًا من أنفاق المترو الممتدة تحت أرض مدينة عادية ، كان رسو الغواصة النووية الحارس ٦، قبالة رصيف مرجاني غطى بطبقة من الأسمنت ، ويتوغل فى أعماق النفق إلى ما لا نهاية . ارتفاع النفق من فوق سطح الماء حيث تطفو الغواصة بلغ بين ٦ ، ٧ أمتار وعرضه يقارب ١٢ مترًا أخرى ، وعرض الرصيف ٤ أمتار . وكانت تضيء النفق كشافات مصفرة الإشعاع تبث من أوله لآخره . وقد نفذت الغواصة إلى النفق بعد أن عبرت ثلاثة بوابات فولاذية تماثل بوبات الأهوسة ، وتفصل بينها مسافات تزيد على طول الغواصة قليلاً . وبين البوابات الثلاثة خفض ارتفاع المياه ليصل إلى حجم ارتفاعها بالنفق ، وأجرى التعادل بين الضغط الخارجى المرتفع تحت الماء ، وبين ضغط التنفس العادى . "انتباه .. على السادة القادمين أن يستقلوا المركبة الكهربائية للتوجه إلى خارج المحطة البحرية (مرفأ المرجان) " .

انشق الجدار عن مركبة لها عجلات ست قد رصت عليها مقاعد صنعت وهيكل المركبة من مادة بلاستيكية غطاها طلاء أحمر براق ، ولم يكن أحد يقودها كما لم نلحظ أى قضبان تحتها ولا اتصال كهربى أعلاها . جلست إلى جوار يوسف بمقعدى المقدمة ، وجلس راجي بمقعد خلفنا ، وسرعان ما استدارت المركبة فى التفاتات عجلة متتالية جعلتنا نتأرجح ، ونفذت فى سهولة من فتحة الجدار لتسير عبر نفق طويل ضيق ، وقاد النفق إلى آخر كثير المنحنيات بسرعة لم تتجاوز ٤٠ كيلو مترا فى الساعة .

توقفنا بعد ربع ساعة ، انفرج باب نفذت منه المركبة إلى ساحة أو ميدان مستدير صعدنا سلما آليا ، دلفنا إلى قاعة رحبة خلت من الأثاث وإنما فتحات مستديرة

وأزرار ولمبات برتقالية برزت من الحائط الأملس الذى واجهنا ، ثم ما يشبه عشر كبائن غائرة استقامت فى جدار الحائط ، وتقع على يسار الفتحات .

"انتباه .. انتباه .. الرجاء من السادة القادمين وتحت شعار (الوقاية خير من العلاج) اتباع تعليمات الوقاية الصحية الآتية : أولاً : يجب على كل منكم أن ينزع كافة ملابسه عن جسده ، ثم يلقى بها فى الفتحة رقم واحد ، وهذه ستعاد لأصحابها فيما بعد . ثانيًا : يتوجه كل منكم عاريًا إلى إحدى كبائن التطهير وبمجرد دخلوها يضغط على الزر الوحيد المواجهه ، ويبقى حتى ينتهى عمل الرشاشات ثم التنشيف . ثالثًا : العودة إلى الفتحات وبعد الضغط على الزر الذى يعلو الفتحة رقم اثنين يتناول كل منكم ربطة ملابسه ليرتديها ، وإلى لقاء ، صحبتكم السلامة" .

نفذ كل منا تعليمات الصوت بدقة .

حين احتوتنى الكابينة استقمت كما ولدتنى أمى على أرضية لينة من المشمع ، وعبثًا حاولت أن أعثر ببصرى خلال الجدران المصنوعة من الألمونيوم على رأس الدش أو خروم رشاشات على أى صورة من الصور .

فشلت ، امتثلت وضغط على الزر .. من أسفل .. من بين قدمى وحولهما . تصاعد نوع من البخار الدافئ اللزج ، ولفتنى رائحة كافور نفاذه ، لم يستغرق الأمر طويلاً حتى انقطع تصاعد البخار ، وحل محله تيار ساخن من هواء لطيف . ونشف جسدى ، فغادرت الكابينة ، أمام الفتحة ٢ وقفت ، تسملت كيسا من النايلون به ربطة ملابس عليها اسمى ، وتسلم راجى ويوسف قبلى ربطتى الملابس الخاصة بهما . فى النهاية تجاورنا بملابسنا الجديدة ، السروال الضيق والسترة طويلة الأكمام بسوستة طويلة تغلقها من أمام ، ثم شارة منسوجة من خيط ذهبى على كم السترة الأيسر بالأحرف س . أ . ف . وكانت الملابس من نسيج تيلى أو شئ من هذا القبيل واللون يقرب إلى الزيتونى الغامق مع لمعة خضراء ثم صفراء تتغير حسب تغير الإضاءة ، وحملقنا فى بعضنا البعض .

كانت تتراقص فى نظراتنا ومضات رفض واغتراب .

"مرحباً بالسادة مندوبي دول الحياد العريقة" .

خرج الصوت خافتا وديعًا ، قد بلغ أقصى درجات التهذيب ، واستدارت رؤوسنا ، أبدًا لم يكن مكبرا للصوت هذه المرة ، وإنما شاب فى العشرين من عمره يرتدى نفس نوع أرديتنا وعليها الشارة الذهبية ، ويحمل بسمة لامعة تملأ وجهه الأسمر البشوش ، هو الذى يوجه إلينا كلماته الفرنسية بلكنة أهل شمال أفريقيا .

واصل الشاب كلماته العذبة :

"أيها السادة ، وابتداء من اللحظة ، فأنتم وبكل الترحاب تنزلون فى ضيافتنا ، معززين أينما حللتم ، وإلى أن يحين رحليكما سوف تقيمون بيننا بمدينة القاع ، نخر الفكر الإنسانى القابعة فى الأعماق الخالية من الزوابع ، تأكلون طعامنا وتتنفسون هواءنا وترتدون زينا ، وسوف تعيشون معيشتنا التى نرجو أن تألفوها بسرعة ويسر" .

وأنبرى راجى – الأكبر سنا – يعبر عن شكرنا فى كلمات لبقة مختصرة .

فما انتهى ، قال الشاب : إن لم أكن مخطئا فمحدثى هو السيد راجى كومار الممثل الهندى لدول الحياد التى نكن لها أبلغ الاحترام .

ثم نظر الشاب إليَّ بدورى ، وأكد أننى شادى الصادق ممثل جمهورية مصر . والتفت يوجه كلامه لثالثنا يوسف مناديا إياه باسمه الأصلى ، وأضاف موضحا أنه سبق له الاطلاع على صورة لكل منا توطئه لاستقبالنا ، كما أضاف : " وأود أن اعتذر عن أنه لن تقدم إليكم وجبة العشاء ، الليلة فحسب" .

واقترب يعطى لكل منا شريطا به قرصين ملصوقين بينما يستطرد ، وتنفيذًا لإجراءات الوقاية المتبعة بمدينتنا ، أرجو ضرورة أن يبتلع كل منكم قرصًا واحدًا قبل النوم ، ثم يبتلع الثانى لدى استيقاظه . والآن تفضلوا باتباعى .

وعدنا نستقل المركبة عبر نفق جديد ، يرافقنا هذه المرة مضيفنا الشاب الذى اكتفى بأن قدم نفسه بأنه صاحب الرقم ٢٩٠ ، وزهاء ثلث الساعة استمر انطلاقًا فى

النفق الأقل إضاءة دون انحناءات ، ثم توقفنا قبالة مصطبة تعلو أرضية النفق بنحو مترين ، وحين أكملنا صعود سلمات عشر منحوتة ، قابلنا فوق المصطبة ممرا يصطف على جانبيه عدد من المصاعد ، واستقلينا أقربها وكان مكشوف الجوانب . وبينما المصعد يرتفع بنا طابقا وراء آخر خلال أنبوب بيضاوى شاهق من مادة نصف شفافة إذ بنا نطل فى الجانب المقابل لباب دخول المصعد على فرجات فيما بين الطوابق تشع منها أضواء قوية مخضرة ، كما تناهت إلى أسماعنا أصوات حركة وكلام قصى .

قال رقم ٢٩٠ : نحن نصعد بداخل بناية الحرية ، أضخم عمائرنا ، فهى تتكون من ١٢ طابقًا . وتطل على شارع السلام قلب مدينة القاع وعصبها التجارى .

قلت لنفسى : هكذا بكل بساطة ، شارع تجارى فى قلب مدينة تستقر على قاع المحيط .

وتساءل يوسف : أنصعد إليه ، أقصد إلى شارع السلام ؟

أجاب ٢٩٠ : بل نمر بجواره فهو يشغل ارتفاع يوازى أربع من طوابق العمارة .

بدت الحيرة على وجه يوسف من غرابة الإجابة لكنه عاد يوجه سؤالاً جديداً :

– إذن سنمر عبره ، أليس كذلك ؟

ابتسم ٢٩٠ : فيما بعد .

وسألت بدورى : وماذا يشغل العمارة ؟

– يشغلها القيادة المركزية للمدينة ، ومراكز التحكم فى الطاقات المحركة ، والحاسب الالكترونى الرئيسى ، وحجرات نوم القادة بالطوابق ٧ و ٨ ، ٩ ، أشياء من هذا القبيل .

– وحجراتنا نحن ، أبهذه البناية ؟

على أن المصعد كان قد توقف ، فى حين همس ٢٩٠ وهو يتقدمنا : الطابق الثامن تفضلوا ، وقادنا مرشدنا عبر ردهة تكسوها سجادة صنعت من مادة مسامية بالغة الطراوة ، وقبالة أبواب أربع تتجاور على أبعاد متساوية توقف وقال :

إنها حجراتكم يا سادة ، والرابعة حجرتى بجواركم ، فأنا ضابط الاتصال بينكم وبين القادة الحكماء .

ونفذنا إلى أغرب حجرات شاهدها أحدنا .

كانت الوسطى من نصيبى ، وفى اطمئنان تقدمت ، وبحركة عادية ، بل ربما بطيئة ضغطت المقبض النحاسى إلى أسفل ، فماذا كنت أتوقع مهما اشتط خيالى أن أجد فى حجرة للنوم ، لكن الباب انفتح ، ودخلت ، فبهت .

لم تكن حجرة للنوم فحسب ، فبطول ثمانية أمتار فى عرض يقل عن الطول بمتر أو بعضه كانت الحجرة إن جاز على ضخامتها أن نسميها حجرة ، بلا أى نوافذ وإنما فتحات لها مصاريع دائرية لم أعن بالنظر عبرها ، وتضم ركنا يحوى مكتبات ومكتبة تثبت فى الحائط ، وركن آخر للطعام به منضدة وكرسيان وحوض ذو صنبور للغسيل وأرفف عليها عدد من الأوانى الورقية ، وركن ثالث خصص للملابس ، ورابع يحوى أريكة إنسيابية ومجموعة من المقاعد ذات مساند مبطنة ، وكان يفصل بين الأركان سواتر كسيت بالجوخ أو الصوف الصناعى ، كما بدا جهاز التكييف وفتحة لإمرار الهواء ظاهران بالركن الأخير ، وقد ثبتا فى الحائط خلف الأريكة .

أما الفراش ، فلشدة عجبى لمحته يتوسط الحجرة المتسعة ، وكان معلقًا بعواميد أربع ثبتت فى السقف بارتفاع يعلو الأرض بقامة رجل ، درت دورة كاملة وأنا أتطلع إليه متفحصا من أسفل ، كان مصنوعًا على الأرجح من مادة السيليكا الخفيفة الوزن والمتينة فى نفس الوقت ، وكان مسورًا بحاجز يلفه ويمنع كما قدرت سقوط من ينام عليه ، وأيضًا بدت فتحة فى الحاجز لدى القدمين تدلى منها سلم معدنى .

من خلفى جاء صوت ٢٩٠ موضحًا : هنا تجد كل ما يلزم لإقامة كاملة كما نأمل ، أما هذا السرير فقط علق بالكيفية التى نراها بسبب ما تتعرض له المنطقة من هزات باطنية .

– ورفعه هكذا يمنع اهتزازه ؟

– كلية ، فالعواميد الأربع التى تشده إلى السقف يتحكم فيها نظام إلكترونى ، ماص للصدمات . على أنى تمتمت بقلق : ماذا عن المبنى نفسه ؟

أجاب فى ثقة : لا خوف عليه بالمرة ، نحن نضع لكل شئ حساباً دقيقًا ، ثم إن الهزات هنا ليست خطرة وإن بدت فى أحيان ما ، مزعجة .

عدت أتفرس فى الفراش المعلق : أكاد لا ألمح غطاء عليه .

– وما الداعى ، بمجرد صعودك ، سوف يتحرك جهاز يزيد من تدفئة الحجرة .

– طيلة نومى ؟

ضحك : طيلة بقائك فوقه ، بالمناسبة لا تنس إذا ما رغبت فى استدعائى أن تضغط على الزر الأسود الملازم لزر الكهرباء الأبيض بجوار الباب ، وزر إضافى أحمر للموسيقى بركن المكتب . والآن أبقى ما تريده منى قبل أن أغادرك ؟

– لا ، وشكراً لك .

– لا تشكرنى ، أنه عملى ، عمت مساء .

رددت شفتاى تحية المساء ، وإن كنت فى داخلى لا أعرف أى مساء يقصد ، فأنا لم أر النهار منذ أيام خمس لأحس بوطأة الليل الذى يعقبه .

وأدرت زر الموسيقى ربما من باب الفضول .. ورطبت بشرتى بعطر فواح سكبته من زجاجة كتب عليها "خلاصة الأشنة البمبى" ، وبلعت حبة الدواء التى أعطيت إياها بقطرات من ماء الصنبور ملأت بها كوباً ورقية وقد وجدت طعم الماء مستساغًا برغم رائحة المطهر فيه . فى النهاية دلفت إلى الفراش .

ارتقيت السلم ، تشبثت ، جلست أولاً ، تفقدت الحجرة من عل ، ثم استلقيت على مرتبة من الحرير والموسيقى الدافئة . لكن إصبعى لم يلمس زر الكهرباء ، أو سواه ، حتى استيقظت فيما بعد .

* * *

"الاثنين ٢١ يونيو عام ٢٠٩٩" ...

تن .. تن .. ترن .. ترن .. تيرن .. تيرن .. تيرن ..

أيقظتنى الرنات الخافتة ، المتواصلة ، الشبيهة برنات منبه مكتوم تمتزج به نغمة موسيقية ، وفوق باب الحجرة اكتشفت مكبرا للصوت فقط سمعته يدعونى إلى التوجه لحجرة مرافقنا الشاب ٢٩٠ خلال نصف ساعة ، وحين خرجت ولحتها وجدت رفيقى قد سبقانى إليها .

حييتهما وحييت مرافقنا الذى بدا أكبر سنا الآن .

ودعانا للجلوس حول مائدة مستديرة لتناول أولى وجباتنا بمدينة القاع ، كانت تتكون من بيض السلاحف البحرية المسلوق ، ونوع من مرق أم الخلول .. وأقراص من خبز دقيق الطحالب الغنى بالفيتامينات . وقد التهمت وحدى ثمانى بيضات مع قرصين كبيرين من الخبز البنى ذى النكهة المحلاة قليلاً ، أما المرق فقد اكتفيت بتناول معلقتين منه .

– والآن يا سادة .. دعونى أسمعكم شيئًا طريفًا .. قطعًا سيسرى عنكم بعد ليال شاقة من السفر المتواصل المرهق .

وصاغرين للهفتنا إزاء كل ما هو جديد صعدنا بصحبة ٢٩٠ طابقين .. وسرنا فى ممر ضيق واطئ تراصت على جانبية أبواب مغلقة . لكن الأصوات المتنافرة المختلطة بهيئات الطنين الموجى وصفيره المزعج كانت تفصح أن ما يستتر خلف الأبواب إنما كان نوع من حجرات البث أو الاستماع اللاسكى . وحين دلفنا إلى الحجرة الضيقة ، المبطنة الحوائط بعوازل الإسبستوس ، وما صات الصوت المخرمة والمتماوجة ، والهرمية تأكد لدى ظنى .

قبالة منضدة تضم مجموعة من أجهزة الاستماع جلسنا ، بينما انهمك ٢٩٠ فى إدارة بعض المؤشرات فى واحد ضخم منها ، وقد ظل على وقوفه .

فى أعقاب محاولات هينة جرت بها أصابع خبيرة انضبطت الموجة وحددت المحطة ، وأن بدا صوت المذيع قصيا يتراوح انسيابه بين الخفوت والارتفاع المفاجئ .

"وللآن ، وقد مر أكثر من ١٢٠ ساعة . فقد فشلت كافة الجهود التى بذلتها وحدات الضفادع البشرية ، من رجال الأساطيل المتواجدة بالمنطقة . والمنتمين إلى عديد من الدول أكثرها يتبع البحرية الأمريكية . قد زودوا بالنفاثات والطائرات العمودية وغواصات الأعماق ، وبكل ما تحمله سفنهم من أجهزة كشف وتنصت فائقة الفعالية ، نقول قد فشلت كافة الجهود المبذولة حتى سماع هذه النشرة فى العثور على أثر لأحد مندوبى دول الحياد الثلاثة " .

رنت الخيبة فى نبرات راجى الخافتة : مازالو يبحثون عنا ، أما قدروا أننا قد نبلغ هدفنا حقا!

"وقد وجد قارب الجماعة المطاطى خاليا فى ساعة مبكرة من فجر اليوم . كما سبق وأوردنا فى نشرتنا السابقة . هذا ويؤكد مراسلونا الذين يتابعون عمليات البحث المتواصلة من على ظهر البارجتين ، الروسية (لننجراد) ، والصينية (التنين العظيم) . إن كافة الآراء تجمع على أن العاصفة التى ثارت يوم الحادث بالقطع قد ابتلعت الشهداء الثلاثة الذين راحو ضحية أعجب مهمة عالمية عرفها التاريخ . تلك التى قد يتضح زيفها فى نهاية الأمر ، فحتى الساعة ، وبعد مرور ما يزيد على ليال خمس ، فإن أى أثر لم يظهر لمدعى إرسال البرقيات المسماة بالغامضة" .

همس ٢٩٠ ساخراً : أسمعتم أطرف مما يقال ، بل هى فكاهة ، أنهم يرفضون تفوق غيرهم فى أى اتجاه من اتجاهات البحث والتفكير .

وتمتم راجى : هم يعزون اختفاءنا للعاصفة وليس لكم .

بينما أضاف يوسف : وإن وجودهم ، يا من أرسلتم برقيات التحذير ، وجئتم بنا إلى مقركم ، ما زال مشكوكا فيه .

اغتصب ٢٩٠ ضحكة مبتورة وقد بدا عليه الحنق : ترى ، فماذا يقولون لو عرفوا ، ليس بالتقاطنا لكم ، ومرورنا بكم رغم حصارها فحسب ، وإنما أيضاً ، بأن العاصفة التى ثارت على غير توقع ، إنما كانت من صنعنا .

صاح يوسف ، استفزته الكلمات فطرق حافة المنضدة وعليها الجهاز بقبضته ثم صاح :

– آه ، كانت عاصفة صناعية . هذا ما دار بخلدى يومها وإن استبعدته ولم أصدقه .

– بل هى مفتعلة ، مصنعة ، قد سببتها غواصة أخرى تابعة لأسطولنا . الغواصة رقم ٨ ؛ وذلك بواسطة توجيه آلات سرية إلى ذرات الهواء أنا نفسى أجهل كيفية عملها .

فى هذه الآونة اضطررت للصياح داعيا إياهم إلى الصمت : هش ، يبدو أن هناك جديدا سيضاف إلى نشرة الأخبار .

وجاهد ٢٩٠ أن يعلى الصوت الذى يستقبله الجهاز :

"أيها السادة ، قد جاءنا الآن الخبر التالى . تم منذ قرابة الساعة التقاط برقية جديدة مثيرة ، ممهورة بتوقيع حكماء (س . أ . ف) المهم ، تفيد البرقية أن ممثلى دول الحياد الثلاثة قد وصلوا سالمين إلى مقر الجماعة السرى . منذ يومين مضيا . هذا ونحن فى انتظار المزيد من التفصيلات . سنذيعها فور ورودها إلينا" .

أغلق ٢٩٠ الجهاز ، فى الوقت الذى دخل فيه لفيف من رجال يلبسون الأردية الزيتونية ، وبينما اتخذ الوافدون أماكنهم قبالة أجهزة اللاسلكي ، اتخذنا نحن طريق العودة بعد أن استمعنا بما فيه الكفاية إلى لغز اختفاء ثلاثتنا راجى ويوسف وأنا كما يحدث فى أفلام السينما .

وسألت ٢٩٠ بغتة قبل أن ألج حجرة نومى : ماذا عن الضباب الذى انتشر قبيل ظهور الغواصة التى أقلتنا إلى هنا ، ألم يكن صناعيا كذلك ؟

أجاب : بالطبع كان كما تقول ..

قلت : إذًا فدعنى أتخيل صورة ما حدث بعد وضعه فى تسلسله المنطقى .. الغواصة رقم ٨ تأتى من اتجاه الغرب ، على بعد مناسب لنقل ٤٠ كيلو متراً، وبوسيلة ما تزال مخفاة يتم إحداث العاصفة ، السحب الغريبة ، اشتداد الريح ... إلخ . ثم يزداد اقتراب الغواصة رقم ٨ وهى سابحة تحت الماء ، وعلى بعد نحو ١٥ كيلو متراً من مكان القارب وبه رفيقاى وأنا ، يحدث الضباب ثم فى لحظة الصفر تطفو الغواصة رقم ٦ - والتى كانت فى الانتظار - من قلب الضباب . وتلتقطنا ، وتسير الغواصتان متخطيتان حصار السفن فى اتجاه مدينة القاع .

قال : أصبت فيما عدا نقطة واحدة . فلم ترحل الغواصة رقم ٨ فى أعقاب الغواصة رقم ٦ التى التقطتكم ، إنما تخلفت فى المنطقة لتنجز مهمة متبقية .

سأل يوسف وقد استهواه الحوار : وما الذى يؤخر الغواصة الثانية حقًا ؟

قال : الانتهاء من فض العاصفة الصناعية .

أكمل يوسف مستغربا : وإعادة الجو لصفائه !

بينما تمتم راجى : لماذا بعد الهرب بالغنيمة ؟

- يحدث أحيانًا ، وكما جابهنا فى تجارب سابقة ، أن تتحول العاصفة الصناعية إلى إعصار ، وقد أردنا أن نجنب السفن المنتشرة أية أخطار من هذا القبيل .

همس راجى مقتنعا : تعملون من خلال تفكير إنسانى .

وهنا أبدى ٢٩٠ رغبته فى تركنا لكنى استوقفته : لحظة من فضلك ، فقد تبقى سؤال يلح على ، شبك ٢٩٠ يديه وهو ينصت إلىّ فى أدب : تفضل ، أسأل .

قلت : من قلب الضباب ظهرت الغواصة رقم ٦ ، والتقطتنا ، ثم وفى قلب الضباب أيضًا كان غوصها بنا ، ولى وقفة هنا ، فلو نجح الضباب فى إخفاء جسم الغواصة ، فحسب علمى لن ينجح فى بقائه كساتر لها وللغواصة رقم ٨ فى مواجهة حشد أجهزة الكشف الرادارى والليزرى وأشعة ما تحت الحمراء ، وأجهزة استراق السمع

مثل السونار وغيره ، والتى يمكنها النفاذ من خلال كافة الحواجز والأجواء ، فبالله كيف أمكنكم اجتياز كل هذه العوائق ، كيف تم لكم اختراق حصارهم الالكترونى ؟

تطلع إلى ٢٩٠ طويلاً .. وابتسم بعرض وجهه ، وراح يزن كلماته وهى تتهادى متعلقة مستريحة :

– سؤالك يا سيد شادى سؤال ذكى ، والإجابة عليه يجب أن تكون بالتالى دقيقة بمعنى أن تكون علمية ، ولو التزمت بمبدأ الدقة العلمية فقد يطول ردى وربما يأتى فى النهاية غير مقنعًا. لذلك سأكتفى بشرح الفكرة باختصار ، على أن تكمل أنت تفصيلاتها العلمية بقراءة كتاب « عالم الموجات الخفية » لمؤلفه أحد قادة حكمائنا ، الأول : مع ملاحظة أن الكتاب يشرح الفكرة ولا يتعرض لتنفيذها . فالثانية : من أخطر أسرارنا ، وبحجرتك نسخة منه بالإنجليزية التى تجيدها .

– صدقنى ، سألتهمه الليلة .

قال ٢٩٠ : جميل ، والآن ، للنح جانبا موضوع الضباب فهو لا يحجب سوى الرؤية . أما الذى قدر على إخفاء تحركات الغواصتين تماما فإنما هو كشف علمى غير معروف عند أحد ، سوى علماء مدينة القاع . إنه ساتر نسميه نحن "الجدار الموجى" يتم توليد نوع نادر من إشعاع عالى التردد يتخلق بوسيلة متشابكة صعبة وينطلق فى دوائر متتالية من نقطة البث ، الذى تقوم به أجهزة إلكترونية تستخدم فكرة إشعاع الليزر مع بعض التحويرات الجوهرية . وحين تتكون دائرة "الجدار الموجى" فإنه يستحيل على أجهزة الرادار والأزدك والسونار وغيرها ، أن تخترقه بموجاتها مهما حاولت ، ومن هنا ، عن طريق ستر الرؤية بالضباب ، وحجب الأصوات ، وإيقاف عمل الرادار وما شابه بالجدار الموجى ، أمكن لغواصتينا اختراق الحصار والابتعاد عنه فى أمان .

سأل يوسف : وهل يتحرك الجدار الموجى بتحرك جهاز بثه ؟

أجاب ٢٩٠ : هو يثبت بثبات الغواصة ، ويتحرك بتحركها فيظل ملازما لها ، ضاربًا نطاقه حولها ، حتى يوقف بثه ، ثم إن مدينة القاع نفسها يحميها جدار موجى دائم السريان .

عند هذا الحد توقف الكلام ، وغاب كل منا وراء باب حجرته .

* * *

غذاؤنا كان بحريا خالصًا ، وكان حافلاً ، فقد ضم أكوامًا لا حصر لها من أنواع السمك المختلفة ، وقطع كاملة من سمك الدنيس المحمر عليها صلصة سميكة ، وشرائح من ثعبان العشب المدخن ، وسلطة جنبرى بالليمون ، ونسائل مقطعة رفيعًا من الحبار وخيار البحر المخلل . بينما توسطت المائدة وحولها هذه الأصناف سمكة وقار ضخمة لا يقل وزنها عن وزن خروف صغير ، حشيت ، بنوع لاسع من زهر الأعشاب البحرية كروى الشكل .

عقب الغذاء استقل ثلاثتنا المصعد يرافقنا ٢٩٠ - هبوطًا إلى الطابق الخامس ليجرى على كل منا فحصاً طبياً ، أخطرنا بمدى أهميته . انتهى بنا المر من المصعد إلى قاعة صفراء الطلاء ، وجدناها مترامية الجوانب ودافئة ، وكانت تضم أريكة طويلة جلدية بلا مساند وضعت مجاورة لباب الدخول . وفى مواجهة الأريكة قبع ما يماثل جهازًا معدنى الأجزاء لحاسب إلكترونى يرسم هيكله عملاقًا جالسًا ، ذا رأس وكتفين وقامة غليظة بلا تفاصيل . فى حين بدا فى منطقة الصدر منه تجويف على شكل نصف مدخنة شقت بطولها ، وتخرج منها ، وتحيطها أزرع ميكانيكية ، بينما تلفها مجموعات أسلاك كهرباء مختلفة الأنواع والأحجام .

وأما الجهاز الضخم على شكل عملاق جالس بمدخنة ، وما بها من عدسات وزوائد ، وما يتصل به من أسلاك ، فقد وضع برمته داخل ما يشبه صندوقا مربعا من البللور السميك ، المصنع من كتلة واحدة مصبوبة ، شاهقة بلا فتحات ، سوى التى شقت فى ركنه الأيسر للنفاذ إلى داخله .

وبرز الطبيب المختص ومساعداه ، حيّانا بإيمائه من رأسه ، وكان قصيراً ، أصلعاً ، غائر العينين ، يرتدى نفس الزى الذى نرتديه ، وتمتم : الأول :

وتقدمت أنا ، بينما سكن رفيقــاى على الأريــكة فى ترقب صــامت ونظراتهما لا تحيد عن اتجاهى ، وهممت بخلع ملابسى حين أشار الطبيب أن لا داعى .

ثم قال ، وهو يقودنى برفق إلى داخل الصندوق البللورى ، ويسلمنى إلى التجويف بصدر الجهاز الحاسب :

– وفى ثوان ستؤخذ كافة الفحوص اللازمة لكل ثنية فى جسدك ، عن طريق قياس ذبذبات خلاياك .. كهربائية مخك .. ضغط دمك وانتظام دقات قلبك ، مع عمل أشعات متغلغلة ، متعمقة لأجهزتك الحيوية .

وتناول يمناى ليدفع فى وريدى قدرا يسيراً من محلول رائق ، بينما يواصل كلامه :

– بعد تركيب جهازنا هذا ، الفاحص الطبى الإلكترونى ، لم يعد هناك داع لسماعة الطبيب .

أو لفحص الدم والبول وما أشبه ، لقد بطل استعمال هذه الوسائل منذ خمس سنوات لدينا .. وبالنسبة لفاحصنا ، فكل المطلوب منك هذه اللحظة ، أن تتبع كافة ما يصدر عنه من تعليمات . وتركنى الطبيب ، أغلق علىّ فتحة الصندوق البللورى بينما الجهاز الحاسب بداخله يضمنى ، وتوجه ومساعداه إلى لوحة جانبية تحمل مجموعة مفاتيح التشغيل .

اتبعت التعليمات بحرص ، أصبحت شبه مقيداً دون أن أحس وطأة قيدى . من ذراعى معا تسللت سخونة لذيذة شملت جسدى حتى فخذى ، سرى فى أعماقى خدر بالغ العذوبة . أزت أصوات متقطعة . ضوت لمبات ومسارات من أشعات متعددة متداخلة الألوان . أحسست وخزا فى ظهرى . هبط على رأسى كشاف تحت عدسة

تبرز منه ضوى فى قوة وانتشار ومضة آلة التصوير فأعشى بصرى . استمر يضوى ست مرات . التفت حول وسطى وكتفى أربع زوائد ، بل خمس . ضمتنى ضمة طويلة إلى الجهاز ، ثم ردد الصوت الأجوف : انتهى ، انتهى .

هكذا فيما لا يتعدى دقائق ثمانية تم فحصى طبيا ، وخلال ثلث ساعة إضافية تم فحص رفيقاى راجى ويوسف كذلك .

وسأل يوسف الطبيب قبل أن نتركه : متى تظهر النتيجة ؟

– عادة بعد ساعتين ، لكن قيم العجلة بالنسبة لكم ، قد نخطركم بها غداء فلدينا حالة عاجلة أبلغت بها لاسلكيا خلال فحص ثلاثتكم .

وسألت : أهو إجراء دورى يتبع دواما بمدينة القاع . أم خاص بالنسبة لمقدمنا ؟ .

أجاب : فيما عدا الأحداث الطارئة ، فلابد من متابعة الحالة الصحية والبدنية لأفراد مدينتنا متابعة منتظمة متقاربة ، وذلك بفحص كل فرد – حسب دوره – على الأقل مرة كل ٣٠ يوم .

فى طريق العودة إلى الطابق الثامن من عمارة الحرية ، حيث توجد حجراتنا ، وجه إلى ٢٩٠ سؤالا فى لهجة يعتريها نفاد الصبر :

– أرجوك ، متى يكون لقاءنا بقادتكم الحكماء ؟

– ياه ، كنت على وشك أن أخبركم ، أن اللقاء بهم سيتم فى الغد صباحًا ، عقب إفطاركم بساعة ، ولدى تناول العشاء ، مع شطائر دقيق الطحالب المملحة وكفتة كبد سمك القرش ، وحين دلفت إلى المكتبة بعدئذ ، حيث حاولت دون جدوى تفهم ما يقصده مؤلف دراسة "عالم الموجات الخفية" ، وأنا مستلقى على ظهرى فى سريرى ، وعينى تلفان ما بين السقف وجوانب الحجرة مستمتعا بالدفء الذى بدأ يتزايد من حولى ، وأنصت إلى عزف قيثارة خافت شجى ، رحت أتمثل عشرات الصور والمشاهد ، القامة ، الشكل والملامح ، طريقة الكلام ، السلوك الشخصى وقوة الإقناع ، وأفراد الحكماء قادة مدينة القاع ، بينما أقلب فى رأسى منتقيا لهم مئات الأسئلة من بين عشرات ، لا بل ، آلاف وآلاف غيرها وددت لو أغرقتهم بها .

* * *

الفصل الثالث

"الثلاثاء ٢٢ يونيو عام ٢٠٩٩ – صباحًا ...

أأنا السجين أم هى ؟

أأنا القابع فى تية موقعى ، الخفى أم هى التى يجب أن تكون ، فهكذا نعرف عنها منذ نقبنا عنها ، وعن عالمها البعيد بكل ما لدينا من سبل شيطانية ، ولم نرحمها ولا رحمنا ذريتها .

تطلعت إلىّ طويلا ...

بعينها الجاحظتين ، وبأنفها أو بوزها الأفطس المنحنى ، وبالرفيع الحاد من أسنان فكيها ، وهزت رأسها المبطط فانكشف جانبها ذا الألوان المتداخلة اللامعة ، البالغ حد الإعجاز فى رقته .

كنت قد استيقظت مبكرًا ، أو أنا لم يستغرقنى النوم ساعات ثمانية كما بدا عادة استبدلتها بنومى القليل المعتاد قبل أن أهبط هذه المدينة والمحاطة بالمياه من كل جانب .

وبرغم بعد دورها عن ضوء الشمس وعن تتابع اختلافات النهار والليل ، فإن مرافقنا – هكذا لمست .

– إنما يتبع فى الغالب ، وربما معظم سكان مدينة القاع يتبعون مثله نفس العادات وأسلوب المعيشة التقليدية على سطح الأرض .

أما متى يستبدل الطابع الأرضى فذلك أمره مرهون بإيغال الزمن وتطور عمليات الاستقرار والتأقلم ، حتى يتم ظهور طابع قاعى مائة فى المائة .

لذلك فحين استيقظت فوجدت الساعة تقارب الرابعة فجراً ، أسقط فى يدى ، فأنا لم أدر ماذا أفعل والقوم لم يحن بعد موعد يقظتهم .

على أى حال أضأت الكهرباء .

اغتسلت وبدلت منامتى واتجهت إلى ركن الكتب بالحجرة ، لكنى لم أجد ميلا لتناول إحداها ، كما أن البث الموسيقى لم يكن ليشغل وحدتى فى ظروف كهذه .

وتحيرت .. ماذا أفعل والحيطان الصماء تطل علىّ ساخرة فتزيد من حيرتى . كانت عادتى بمنزلى بالقاهرة إذا ما استيقظت قبل شروق الشمس أن أخرج إلى الشرفة لأستقبل أولى لمسات الأشعة الوليدة من خلف زجاجها وبعيداً عن بلل الندى .

فكيف لى فى هذه اللحظة ، وأنا هنا بإحدى حجرات المدينة بقاع البحر أو المحيط ، أن أنفس عن مشاعرى التى يجتاحها الحنين إلى عادة أرضية ، شاءت أن تداعبنى وأنا فى مكانى المغلق السحيق .

تعلق بصرى دون قصد بالفتحات ذات المصاريع الدائرية ، كان عددها أربعا بالحجرة ، بكل ركن فتحة ، ترى ما الغرض من تواجدها أهى مناور ، أو نوافذ ، أو فتحات تهوية ، وعلى ماذا تطل .

واعتليت ظهر المكتب أفتح المصراع المعتم من جهتى لأقرب الفتحات إلى جلستى ، وكان أن أطلت علىّ هى ، سمكة شلبة ذهبية ، لا يقل وزنها عن أربعة كيلو جرامات .

ملا رأسها المنحنى ، الدائرة الداكنة التى تطل على مياه المحيط من خلف سطح زجاجى سميك .

لم تفزع ، ولم تهرب ، حين نزعت المصراع عن الفتحة ، وإنما اقتربت ، ولصقت وجهها البرئ فى اتجاهى وركزت عينها الدهشتين بالتبادل على ، وتحت الضوء المتسلل من حجرتى لمعت قشورها الذهبية الضاربة إلى الصفار مع خط أحمر يمتد بأعلى من الرأس إلى الذيل ..

أجل أينا السجين أنا سمكة الشلبة ؟

إن كلا الموقفين منطقى وصحيح !

بالنسبة لقدراتى ومفاهيمى أنا ولسابق حركتى ولا حقها ، ولتحكمى فى الذهاب والإياب من سطح الأرض إلى قاع البحر ثم العكس . أنا المطلق السراح والسمكة هى السجينة ، سجينة حد الماء الضاغط على جسمها . لكن النسبة تتغير من وجهة نظر السمكة ، فهى التى تتفرس فى الآن بمكمنى المحدود بينما ينطلق سراحها فى مساحات المياه اللانهائية . بل إن مساحة الماء الأكبر من اليابسة .. والأولى فى مجال السمكة ، والثانية مجالى .

وأرى فى نظرات الشلبة سخرية مرة من حالى ، من أفكارى ، وألمح فمها ينفرج عما يشبه ضحكة هازئة ، أسمعها تهمس فى تشف : " لا تتفاءل كثيرا يا صاحبى ، ولا تتعالى على ، فكل منا سجين أبدى لواقع وجوده ، إن كنت أنا سجينة الحيز المائى حولى ، فأنت أيضًا سجين ومقيد مثلى ، سجين جاذبية الأرض التى عليها تدب ، وسجين كتلة الهواء التى خلالها تتنفس ، فإن استطعت على كسر أحد قيديك فلن تقوى على تحطيم الثانى ، وحتى أن ملكت السيطرة عليها معا . وانطلقت فى الفضاء الفسيح بين النجوم والكواكب وأجرام السماء ، لضاعت معالم شخصيتك ، ضاعت ، وتلاشت فى تيه الكون المترامى ، الملئ حتما بمخلوقات اللّه العديدة ، المتنوعة ، التى تتفوق عليك بعقولها وقدراتها وإمكاناتها الخرافية " .

أخيراً استدارت سمكة الشلبة بعد أن اقتنعت بتشابه واقعينا ، وابتعدت وهى تلقى علىّ نظرات رثاء عميقة !!

وجلست لأتناول إفطارى من بليلة بقل بحرى غير معروف إلى جانب أقراص مقددة من خبز دقيق الطحالب مدهونا بزيت عجل البحر .

وبعد ساعة أخذ مرافقنا ٢٩٠ للقاء المرتقب بحكماء مدينة القاع . فى الطريق أخبرنا أن الحكماء الأربعة – وكانت أول مرة نعرف فيها أن عددهم أربعة – موجودين بمنطقة التعدين السفلى (د) ، وهى منطقة مناجم بحرية تضم عددا من المعادن على رأسها النحاس تم اكتشافها حديثا تحت سطح المحيط على بعد ٤٥ كيلومتراً عن المدينة القاع .

من باب دائرى خفيض ببناية الحرية نفذنا إلى خندق رطب بدت جدرانه كلها من الحديد المصمت فيما عدا الأرضية التى كسيت بطبقة من الموزايك البراقة السطح . وضغط ٢٩٠ زرا فى الجدار المقابل ، وانفرج باب ضيق لننفذ إلى ما يشبه عربة قطار كهربائى اتضحت من مـادة بللورية أو بلاستيكية بالغة الشفافية ، وكأنها بلا جدران أو سقف .

جلس ثلاثتنا ومعنا ٢٩٠ فى مقدمة العربة التى انطلقت عبر باب أغلق خلفنا بهدوء ، اندفعنا فى الظلمة ، ثم بغتة وجدنا أنفسنا ننساب عبر أنبوب أسطوانى شفاف تدعمه كمرات غليظة من الحديد ، ويخترق مياه المحيط المخضرة مباشرة .

على عمق قدرناه كبيراً من العتمة الغالبة على مدى البصر ، وسط أسراب من أسماك هلامية بدت كأطياف أو أرواح شاعرية ، وأجسام دقيقة فسفورية علقت وكأنها نجوم بعيدة . وبينما تظهر على البعد هضاب منبسطة تغطيها حقول عشب كثيف ، كان اختراقنا لذلك العالم المجهول ، الجديد كل الجدة على مفاهيمنا وإدراكنا ، والمثير لأقصى لما ينسحق فى أغوارنا من أحاسيس وتصورات نائية ، شاذة ، قد نستنكر مجرد تواردها .

قال ٢٩٠ بينما يتفحص وجوهنا فى شغف ، ويخفى فى نفس الوقت ابتسامة خبيثة : الذى نستقبله نموذج مبسط لقطارات المستقبل القريب ، صممناه منذ خمسة أعوام ، وأتممنا صنع وحدتين منه ، وركبنا بهذا الخط منذ عامين ، ونحن نسميه (الرصاصة الحية) ، وهو نوع بدائى مصغر لما ستكون عليه قطارات الأنابيب التى سيعم استخدامها أواخر القرن ٢١ . والوحدة التى تضمنا تسير عبر أنبوب من وصلات من ألياف صناعية سبق استخلاصها كيميائياً من مواد بحرية ثم لحمت بوسائل مبتكرة متفوقة ، وطريقة الدافع عبر الأنبوب تتم بضغط الهواء بسرعات مختلفة .

وصمت محدثنا دون أن يزيد ، ولم نسأله بدورنا ، كانت المشاهد تشدنا وتبهرنا . أخيراً انقذف القطار فى يسر إلى أعماق جسم صخرى عرفنا أنه الجانب القاعدى لواحدة من سلسلة جبلية تحت الماء تقع فى قلب المحيط .

أى محيط ؟ . لم يفصح ٢٩٠ عن شئ حينما سألناه وإنما اكتفى بقوله : فى الوقت المناسب قد تفادون بإجابات لكل ما يدور فى خلدكم يا سادة .

سيرا على الأقدام - بعد أن ترجلنا - انتهى بنا ممر حجرى بالغ الضيق وانخفاض السقف إلى ناصية مثلثة وتحت سقف تشبثت بنتوءات فيه تجمعات فطر أو عفن باهت الاخضرار تتساقط من خلاله قطرات من ماء دافئ توقف بنا مرشدنا الشاب ٢٩٠ أمام باب مصعد عريض مما يشغل لنقل الأثاث - متى وصل المصعد ، فاستقلوه إلى الطابق الثانى ، فهناك سيكون اللقاء . أما أنا فلم تعد لكم حاجة بى حتى تنتهوا .

قالها ٢٩٠ وتركنا وانصرف .

وتأخر انفراج باب المصعد ، فى هذه الأثناء اقتربت منا جماعة لا يقل عدد أفرادها عن عشرين من العاملين رجحنا أن يكونوا من المهندسين الجيولوجيين . فبرغم ارتدائهم لنفس الزى الزيتونى وعليه الشارة الذهبية ، إلا أنهم كانوا يضعون خوذات بها مصابيح كاشفة على رؤوسهم ، وينتعلون أحذية مطاطية ذوات رقاب .. كما حمل بعضهم مثاقب كهربائية وأدوات للقياس الإشعاعى ، وحين حازونا لاحظنا رجلا نحيفًا يتوسطهم وقد احتضن بين زراعيه حيوانا يغطيه فراء رمادى ، ظل باب المصعد موصدا .

همس يوسف وهو يتلفت حوله بقلق : أننى فى اشتياق لتدخين لفافة .

قطب راجى جبينه : واللافتة فوق رأسك ؟

- ممنوع التدخين .

عقبت : الممنوعات هنا كثيرة : ممنوع التدخين ، والضجيج ، والخمور ، وتناول الأطعمة أثناء العمل ، ولعب الورق خارج قاعات التسلية ، وممنوع الاقتراب من العنابر ١٢ ، ١٣ ، ١٤ ، ٤٦ ، ٥٨ بدون الوقاء الإشعاعى وغيرها وغيرها .

ضحك يوسف : عموما ليست معى لفافة .

وبرزت فتاة يصحبها شاب يرتديان الزى المعهود ، للفتاة مثل الفتى سروال وسترة عليها الشارة الذهبية . كانت أول فتاة نقابلها ، وكانت على قدر من الملاحة ، وخفة الحركة . أما الفتى فكان أبطأ منها لكنه بدا متناسق التكوين لامع الشعر .

وعدت أركز بصرى على الرجل حامل الحيوان الرمادى الواقف بجوارنا ، ورغم هدوئه الظاهرى وانشغال يمناه بالتربيت على ظهر الحيوان فى حجم قط كبير فإن عينيه لم تكفا عن تفحص وجوهنا بتمعن شديد تحاولان سبر أغوارنا .

انفرج باب المصعد أخيراً .

عند الطابق غادرنا المصعد ، الرجال فى المقدمة ونحن وراءهم .

– من هذا الاتجاه .

ما الذى يدريه هو حقيقة اتجاهنا ، مع كل سرنا فى أعقابه ، قادتنا إلى حجرة ليست بالمتسعة ، لكنها كانت دافئة جدا ، قد غطت حوائطها ألواح خشبية جوزية الطلاء ، وغطت أرضيتها سجادة من صوف زاه غاصت فيها أقدامنا ونحن نطؤها، وكان السقف وحده يشع بتلك الإضاءة السحرية النابعة من خلال الجدران ذاتها .

وكانت تتوسط الحائط على يسار باب الدخول الوحيد فتحته متسعة شاهقة تكبر التى شاهدناها بالغواصة رقم ٦ ، وتفتح بدورها على المياه من وراء حاجز بللورى ينبعج قليلا إلى الخارج ، وأسفل الفتحة شاهدنا أريكة هلالية الشكل .

قبعت فى حضنها منضدة واطئة مستديرة بقطر عريض بحيث يصبح سطحها فى متناول الجالسين على الأريكة من أى طرف ، وقد وضعت على المنضدة علبتان كبيرتان من لدين سميك طعم بقطع نجمية من الصدف اللون آخاذ البريق . كما كان هناك دولاب خشبى علق على الحائط وتعلوه آلة عرض سينمائى وشاشة مطوية . كذا تناثرت عدة مقاعد مكسوة بنفس كسوة الأريكة الجلدية برتقالية اللون . كما بدا على يمين الدولاب نموذج ضخم لكرة الأرض بتضاريسها المجسمة والملونة ، وهى تدور ببطء شديد حول محورها فى اتجاه من اليمين إلى اليسار بعكس عقارب الساعة .

على طرف الأريكة الهلالية جلس راجي ويوسف وقد لوى كل منهما عنقه واستدار بكتفيه إلى الخلف نصف استداره ليطلا على مشاهد المحيط الأخاذة . ولم أجلس مثلهما وإنما بقيت واقفا قبالة الفتحة البللورية اتفحص المياه الزاخرة بمخلوقات الأعماق المضيئة وإن ظلت مشاعرى اليقظى مسلطة فى اتجاه الباب .

بغته ارتطم شيء بالأرض ، ثم تتاهب أصوات نباح خافتة . كان الحيوان قد انفلت من بين ذراعى الرجل لينزوى بركن الحجرة بجوار الدولاب .

التفت الرجل إلينا محرجا . فى إنجليزية سلسة تمتم وهو يومئ إلى الفتحة المطلة على المحيط : لقد أفزعه مراى المياه ، بات يخشاها بعد تجاربى عليــه .. فاسمحوا لى أن أغطى هذا .

قالها ، ثم جذب سكينا ذات مقبض خزفى وضغط زرا أسود من بين مجموعة أزرار متجاورة ، فهبط ساتر من معدن داكن غطى الفتحة فى حين ازدادت الإضاءة السحرية سطوعا فى الحجرة .

سألت الرجل : أهو حيوان بحرى ؟

أجاب بعد أن اتجه نحوه وعاد إلى حمله والتربيت على ظهره فى عاطفة :

– أنه سبع البحر .

– أبهذا الحجم الصغير يوجد سبع البحر ؟

– إنه من بقايا نوع نادر .. انقرضت غالبيته .

تمتم يوسف : سبع بحر هه ، فكيف يخشى مرأى الماء ؟

بدت نظرة غامضة فى عينى الرجل : هى مجرد تجارب أولية لى . نوع خاص من العقاقير أعطيه له ، ونبضات كهربائية أعرض رأسه الصغير لها ، وكلها تؤثر على أجزاء معينة من مخه ، فتغير من تصرفه وسلوكه ، وعلى المدى الطويل : كما ترون ، قد نجحت فى تغير شخصيته كلية.

سأل راجى بشغف : كيف ؟

قال الرجل : شكلا هو سبع بحر ، ولكنه مستأنس جدا ، يخشى الماء .

ولا يحب أكل السمك بجميع أنواعه .

– وما الذى يأكله ؟

– ما يأكل أى قط عادى ، ويزيد بحب الفاكهة .

ضحك يوسف : تصوراً ، سبع البحر يأكل موزا .

رفع الرجل حاجبيه مستنكرًا : إن ما تذكره يحدث فعلا ، انظر .

وأخرج من جيبه أصبع موز قشره وقربه من فم سبع البحر فاختطفه والتهمه وقد بدا عليه السرور . للوهلة الأولى لم نصدق أعيننا ، إذًا فنحن قبالة عالم له تجارب موفقة ، وألقى كل من ثلاثتنا نظرة مغايرة على الرجل ، وأخذت بدورى أعيد تفحصه من جديد ، كان نحيفًا بصورة ملفتة ، ضامر الوجه أبيض البشرة شديد بياض الشعر ، رفيع الحاجبين باهت الشارب . وبينما يصفف شعره الأبيض إلى الخلف مرسله حتى يغطى قفاه فلم تكن تظهر له أى سوالف . وكان يضع عوينات نظر رقيقة الإطار ، ويعم بدنه وتصرفاته هدوء راسخ لأقصى الحدود . أما عمره فقد قدرته فيما بين الأربعين والخامسة والأربعين .

ومرت دقائق من الصمت متوترة .

وطرق الباب ليدخل رجلان ، لا ، بل رجل وامرأة يرتديان الزى الزيتونى .

كان الرجل طويل أصلع الرأس عريض الكتفين فى الثلاثين من عمره . وكانت المرأة ذات شعر أحمر غزير ، ممتلئة البدن ، رقيقة الوجه وأصابع اليدين ، وفى الثانية والثلاثين من عمرها .

تفرس الرجل القادم مليا فى وجوه ثلاثتنا ، ثم قال فى إنجليزية أهل ويلز : مرحباً بالسادة من دول الحياد فى مدينتنا الخفية ، اسمحوا لى ونحن نتعارف هنا بالأرقام

لا بالأسماء ، أن أقدم لكم أنفسنا وأشار إلى القادمة معه : السيدة رقم ٥١ الحكيم الثاني للجماعة ، وأنا رقم ١٠٤ الحكيم الثالث . أما الحكيم الرابع السيد ١١٢ فإنه يعتذر لانشغاله في مهمة عاجلة استدعت تواجده بمكان ناء وسوف يلحق بنا . وأما الحكم الأول ، كبيرنا لهذه الدورة ، كبير الحكماء ، فهو السيد رقم ١٨ الواقف هنا ، وأشار إلى الرجل المسك بسبع البحر .

عقدت الدهشة ألسنتنا ، انحنيت في وقفتي محييا . انتصب كل من راجي ويوسف بطرية آلية ، شبك راجي أصابع يديه وانحنى وهما تلامسان أنفه على الطريقة الهندية ، بينما بقى يوسف المندس اليوغسلافي يحدق في جمود .

تقدم كبير الحكماء من ثلاثتنا في بشاشة وهو ما يزال يحمل سبعه الأليف أخلى يمناه برهة ليصافحنا بود صاف ، ثم تقدمنا ببطء واستلقى في منتصف الأريكة الهلالية مريحا سبع البحر على ساقيه معا ، عن يساره جلس الحكيمان الثاني والثالث ، وعن يمينه جلس راجي فيوسف ، أما أنا فجذبت مقعداً جلست عليه في مواجهة الخمسة تفصلني عنهم المنضدة المستديرة .

تناول الحكيم الثالث إحدى العلبتين الصدفيتين ، فتحها أدناها منا فتصاعدت إلى أنوفنا رائحة مميزة .

– لفائف تركية ومصرية وأمريكية ، وسيجار طازج ، فنحن إنما نجلس بإحدى الحجرات المباح فيها التدخين .

لكن لم يدخن غير يوسف وحده .

ووجه كبير الحكماء حديثة إلينا وقد استكانت نظراته في وجه راجي الوديع .

– أرجو ألا يسيئكم استخدامنا للأرقام بدل الأسماء ، فالقانون هنا يحتم إخفاء الشخصيات .

فلما أبدينا تسامحنا تمتم كبير الحكماء بينما الحكيم الثاني – المرأة – تتناول من الدولاب دورقا ذات عنق طويل وعدداً من الأكواب ، سكبت الحكيم الثاني سائلا قرمزيا في كوب كل واحد منا .

وتابع كبير الحكماء : السيد راجى كومار مندوب الهند ، الفيلسوف ، لقد أعجبتنى قصائدك "تأملات حزينة فى عصر الذرة" ، والسيد يوسيب يوفان المندوب اليوغسلافى ، المهندس ، دون شك فإن الكثيرين هنا وأنا منهم يتتبعون أخبار اختراعاتك بشغف كبير ، أما سيادتك فمندوب الدولة العربية مصر ، الأديب شادى الصادق ، اسمح لى يا سيدى أن أهنئك بخاصة على كتابك الأخير "بناء دولة "، لقد أعطيتنا من خلاله صورة رائعة لمصر اليوم ، بالحب والإخلاص أكرر ترحيبى وترحيب كل فرد منا ، بمقدمكم إلى مدينة القاع .

وتبادلنا كلمات الترحيب والود ، وتبادلنا الأنخاب بشرب السائل القرمزى فى طعم شراب التوت وقد عرفنا أنه نتاج غلى وترويق خليط من الأعشاب البحرية .

أخيراً ابتسم كبير الحكماء وهمس : تفضلوا ، إننى رهن كل سؤال تودون إجابة عليه .

قال راجى بجدية : قبل كل شىء نريد أن نعرف من أنتم ، وحول أى فكرة أو هدف كان لقاؤكم ؟ ثم اتحادكم .. هز كبير الحكماء رأسه فى دهشة مصطنعة ، وقال وهو يتساءل بالتربيت على ظهر سبع البحر بينما أفكاره تذهب إلى بعيد :

– حسن ، سوف أكون صريحاً معكم لأقصى الحدود ، ببساطة ، نحن مجموعة من العلماء الشبان صحيح بيننا قلة من المتحمسين من تعدوا مرحلة الشباب مثلى ، لكن أغلبيتنا علماء شبان من مختلف التخصصات والجنسيات ممن يعانون المرارة والأسى لعجزهم عن تحقيق مثلهم العليا . لذلك ، فنحن نرفض الأوضاع السائدة على كوكبنا الأرض بعد أن وعينا مدى اتساع الهاوية المخيفة التى يسعى الجنس البشرى إلى التردى طواعية وبحمق بالغ فى أعماقها .

من أجل ذلك تفاهمنا ، وقررنا أن نفعل الشئ الذى تأخر فعله مدة قرن أو يزيد من الزمان ، قررنا أن نتخذ خطوة إيجابية تمنع وقوع الكارثة مستخدمين فى سبيل تحقيق هدفنا شتى الوسائل والطرق بما فيها اللجوء إلى العنف .

توقف كبير الحكماء برهة ، تناول جرعة كبيرة من الشراب القرمزى ، ثم عاود الكلام كأنه يحدث نفسه .

– أنت ، من أجل الإبقاء على الجسد ككل قد تضطر إلي بتر عضو من أعضائه .. أليس هذا ما يقوم به الطبيب بالفعل .

عاد فتراقصت فى عينه نظرة صارمة ، بدا صوته وكأنه يخرج من أعماق قبر سحيق :

– أما فى حالة فشلنا ، بالرغم من كل ما اتخذناه من حيطة ودراسة وتضحيات ، أما إذا تمادى الإنسان فى غيه وضلاله ، إذا أوغل فى عدائه لوجوده وأصر على إفناء نفسه بنفسه ، فلما لا نعجل له بلوغ النهاية . بلا شك أن الإسراع بقتل المذنب دون تعذيبه أكثر رحمة به ، وهذا ما قررناه فى حالة الفضل ، أن تعجل بتفجير كوكبنا الأرض ، ما دامت هى أيضاً النهاية الحتمية المرتقبة لمصيره المحزن .

ساد صمت عميق ، حتى الحيوان تجمد بداخل فرائه الغزير وقد خمدت فيه أقل حركة ، فجأة تساءل يوسف بعصبية : وهل تؤخذ الأغلبية المسالمة بجزيرة القلة المنحرفة المعتدية ؟

زمجر الحكماء : لا أريد مغالطة ، إن كلا منا مشترك ومنغمس ومدان ، ولو حتى بسلبيته وتقوقعه على نفسه .

عبست أسارير يوسف عن آخرها : لكن كيف تتكلمون عن إعدام شخص لم يثبت جرمه !

– أهو غير آثم حقا ؟ ألا يسعى إلى قهر أخيه وسلبه رزقه وحريته بل وشخصيته ! ألا يقتل فى تعال كأنه يمنحه البركة !

ألم يفعل ذلك منذ بدء الخليقة إلى يومنا الحالى ، وإلا فماذا تسمون حروباً مثل التى دارت وتدور بأنحاء عالمنا منذ أعوام . ومع كل ، فهل سمع أحدكم أن حيوان اعتدى على حيوان آخر غدرا ودون ما حاجة لدفاع أو طعام أو جنس .

– الحيوانات بالفعل تتقاتل للأسباب التى ذكرتهما .

أما الإنسان وحده من دون حيوانات الأرض فهو الذى يفعل الشئ البغيض ، إنه المخلوق الأنانى الأوحد ربما فى الكون كله .

ولو كان عذره فى الماضى ترى فما هى حجته فى عصرنا الحديث ؟ . لقد نقل الإنسان الصوت والصورة مجسمة ، وحطم الذرة ، وسيطر على أجواء الأرض ، ووطئت أقدام رواده سطح القمر ومن بعده المريخ فالزهرة ، وأنشأ مستعمراته ، وهو الآن فى الطريق إلى المشترى . لقد قفز ملايين القفزات التقدمية بيديه وقدميه ، لكن عقله ، أفكاره ، ما تزال غير ناضجة ، جامدة ومتخلفة . أنه متقدم ماديا ، لكنه شديد التخلف روحيا .

همهم الحكيم الثالث : نحن فى مسيس الحاجة إلى المزيد من قوى الروح ، تستمد من نور الآلة الأعظم الخالد المهيمن على الكون بأسره ، لتضبط قوانا المادية ، وتحد من شهواتنا وشرورنا . عاود يوسف اعتراضه وإن فترت همته : لابد أن تمنحوا الشخص فرصة .

رفع كبير الحكماء حاجبيه : ومن ثم قال اننا لن نمنحه إياها ، ثق إننا لا نبغى اغتياله من وراء شهره ، كما أوضحت فإن لجوءنا لما نكره لن يكون إلا فى حالة فشل كل جهودنا كلها نحو إقرار سلام حقيقى على سطح الأرض – ستمنحونه فرصة .

– أكبر مما تتصور .

هنا انفرجت شفتا راجى فى تردد : دعونا نعود إلى حديثنا الأول . كلمنا يا سيدى كبير الحكماء ، كيف تم أول تجمع لكم ؟ وبأية وسيلة تلاقيتم ، وتوصلتم لقراركم الخطير ؟

تكلم كبير الحكماء بينما سبع البحر شبه نائم على حجره :

لذلك قصة بدايتها كانت عام ٢٠٧٩ ، أظنكم تتكرون أحداث ذلك العام المفجعة والاسم الذى أطلق عليه ليسجله عاما أسود فى تاريخ التقدم البشرى .

– عام الخسارة العظمى .

– تمامًا ، إنه الاسم الذى أطلقوه ، لكنه كان اسمًا مزيفًا . مثله مثل الأحداث التى جرت فيه فقد كانت بدورها مختلفة .. وإليكم ما حدث حقيقة .. فمنذ عشرين عامًا ، بالضبط فى ٢ يناير ٢٠٧٩ ، كان عقد «المؤتمر الدولى للعلم فى خدمة الإنسان» ، بمدينة جنيف بسويسرا وقد ضم أكثر من ألفى عالم ، من شتى التخصصات وشتى البلدان . وقد بحث ذلك المؤتمر العديد من مشاكل البشر على ظهر الأرض ، وطرح يومها العديد من التساؤلات الجريئة حول مصير الإنسان وسط تيارات الجذب بين القوى العظمى ، وبين غيرها الأقل شراهة ، وحول مصير المخلوق التعس فى ظل تلوث البيئة والتسابق نحو التسلح ، وفى ظل التجارب النووية والحروب المحدودة وضغوط ازدياد السكان وقلة الموارد ... آه ... ما أكثر الظلال بل الظلام الحالك الذى أثارته التساؤلات حول مصير الإنسان وكوكب الإنسانية ، ولم تكن التساؤلات وليدة يومها ، وإنما كانت وليدة أيام وأعوام وقرون من الجشع والأنانية المطلقة .

توقف كبير الحكماء تابع وعيناه تشعان نارا أكثر اتقادا من طرف السيجار المشتعل :

– فى النهاية كان السؤال الأكثر إلحاحا على ألسنة العلماء الشبان ... «لماذا جيلنا بالذات» .

لماذا ؟ لماذا توضع على كاهله كل هذه الجبال من المعاناة ؟ لماذا التهديد كل حين بقيام حرب ذرية أو غازية أو ميكروبية للقضاء على العالم فى لحظات ؟ لماذا أعمال القمع والتجسس والتدمير فى السر والعلن ضد أرزاق الناس ؟ لماذا المرض والجهل والبطالة بأرقامها المرعبة ؟ لماذا التفاوت الصارخ بين ثروات الدول .. بين الفقر المدقع والغنى الفاحش ؟ ولماذا يكون التمييز الطبقى والعنصرى بين بنى الإنسان والكيل بمكيالين

فى السر والعلن ، لماذا يجوع الناس والطعام يكفى ويزيد ؟ تصوروا ! ونحن على أعتاب القرن الثانى والعشرين ، نسمع بموت آلاف الناس جوعًا فى أنحاء آسيا وأفريقيا وشعوب أمريكا اللاتينية ، لماذا كتب على جيلنا أن يعرف الحساسية ، التوتر ، القلق النفسى ، الأرق ، ضعف المناعة الجسدية ، آلية الحياة ، التفكك الأسرى ! . انفصال الإنسان عن تراثه ، جنون الضوضاء والزحام والتلوث ، أى نوع من الحضارة يحتوينا ! . إن جيلنا جيل مريض ، شاك ، ساخط ، ملول ، ممزق ، بلا كيان ، مسلوب الذات ، مسلوب الجوهر ، جيل الخنافس والوجوديين والمستهترين العابثين ومدمنى لذة الجنس وشذوذ الجنس ومدمنى المخدرات ، والمنتمين للجمعيات السرية والعصابات الإجرامية ومستبيحى المحرمات ، وكلها من علامات الضياع ، وافتقاد الأمن ، والخروج على الدين . هناك رفض من الشباب ، ما نتيجته ؟ ، إنه لا يلقى أى صدى لدى المسئولين وحكوماتهم ، فيكون التقوقع أو السلبية ، يكون الضياع ، ويكون التمادى فى طريق الكارثة . إن عالم اليوم تعمه الفوضى . فالثورة العلمية أدت إلى ضغوط الآلة وسطوة المؤسسات بأنواعها وتسليط سلاح الإفناء الشامل ، فأين ضمير العالم وسط ذلك ؟ وتوقف برهة وهو يهتز منفعلاً ، ثم تابع : لقد ناقش العلماء الشباب فى مؤتمرهم كل الذى ذكرت وأثاروا حوله أسئلة نارية ، لكنهم لم يحصلوا فى نهاية أيام عشرة هى عمر المؤتمر على أية نتائج عملية ، إنما مجرد قرارات هزيلة معدومة التأثير ، بينما تستمر كل مؤشرات الخطر فى اتجاهها المخيف ، يستمر التمادى الأحمق فى طريق الكارثة .

وسكت كبير الحكماء .. كان العرق يتفصد غزيراً على جبهته وحول عنقه ، وبدا أن سبع البحر قد أثاره شئ خفى فقد رفع رأسه وراح يتطلع إلى مربيه فى جزع .

تمتمت رغما عنى : من هنا نبع تلاقى الأفكار ، وأعقبه تلاقى الآراء .

بينما استطرد كبير الحكماء مكملا : ومن ثم عقد أول اجتماع سرى منظم وضم ثمانية ، من العلماء الشبان الثائرين ، فاجتماع ثان سرى كذلك زاد عدد علمائه فبلغ ٢٤ ، اتخذ المجتمعون فيه أجرأ قرارات عرفتها البشرية على مدى تاريخها الحافل بالإثارة .

وطلب كبير الحكماء من الحكيم الثانى أن تتلو علينا ملخصا للقرارات بينما يغيب هو برهة لإيواء سبع البحر فى حجرة مجاورة . وتكلمت الحكيم الثانى فى صوت رفيع خلت نبراته من الإيقاع الأنثوى :

– كان قرار العلماء الشبان الأول ، البحث عن مكان سرى يختبئون فيه مدة من الزمن قدروها ب ٢٥ عامًا ، زيدت إلى ٣٠ عامًا ، ثم جد مؤخراً من الأسباب ما عجل ببتر المدة المحددة لتنقص إلى ٢٠ عاماً وبضعة شهور فحسب ، وكان ثانى قراراتهم تكريس مدة الاختباء أو الاختفاء بغرض العمل جديا وبكافة الطاقات المتاحة من أجل خدمة الجنس البشرى لإسعاده وتثبيت أقدامه فوق كوكبه لا إبادته من عليه .

سأل يوسف : والقرار الثالث ؟

– كان إيجاد الوسيلة الفعالة لإجبار الدول العظمى وغير العظمى على سماع صوتنا ، معرفة فكرنا ، ثم قبوله ، وتنفيذه ، لتنعم البشرية ولأول مرة بتذوق السلام الحقيقى على ظهر كرة الأرض .

– والقرار الرابع ؟

قالت : بل كان عدد من القرارات أقل أهمية ، قرار باختيار المقر السرى المناسب لاختباء الجماعة ، وكيفية تزويده بالمعدات والأدوات اللازمة .. وقرار بالمداومة على مد جماعة العلماء بالأفراد ، وثالث بضرورة مراعاة إبعاد الشبهة والافتعال عن حوادث اختفاء العلماء كى لا يتطرق الشك إلى حكومتهم ، وغيرها من القرارات الجانبية التى التزم بها مقرورها فى حماس منقطع النظير . ولم يخرج عليها إلا عدد محدود من الرجال تم اتخاذ اللازم نحو تلافى أى خطر قد يصبحون مصدرا له دون المساس بحياتهم أو حرياتهم ، وذلك عن طريق غسل أمخاخهم قبيل إبعادهم عن مقرنا .

أملت رأسى أوجه سؤالاً يضغط على مشاعرى :

– لماذا أدانتكم الدول العظمى الثلاث قبل غيرها من الدول ؟

وجاء الجواب من خلفي . كان كبير الحكماء قد عاد لتوه بعد أن ترك الحيوان في مقر بياته :

- لأنها أكثر من غيرها امتلاكا لأكبر الطاقات والقدرات ، وتوجيه اللوم يكون لمن يملك ولا يفعل مع إنه قادر على أن يفعل وليس لمن لا يملك فلا يفعل لأنه عاجز عن أن يفعل ، توجيه النقد واللوم والإدانة يكون لأصحاب أكبر رصيد في الثروات وفي السلاح وفي الطاقات البشرية وفي التقدم العلمي والتكنولوجي ، وللأسف وأيضاً في الأطماع .

قلت في إصرار : فلماذا لم تركزوا جهودكم إلى الداخل ، تجاه الشعب والحكومة بكل بلد ، ولو لدرجة الثورة العلنية .

هز كبير الحكماء كتفيه : أو لم يفعل ذلك غيرنا . منذ بد الخليقة والأحرار يثورون ضد ظلم الإنسان ، فماذ جنوا غير النبذ والتشريد والسجن ، ثم القتل في أغلب الأحيان .

اعترض راجي : إن دولاً عريقة معروفة تطبق أنظمة حرة .

- آه .. على أنفسهم فحسب ، ولعل يا سيد راجي ما عانته بلدك الهن ، أو ما عاناه المصريون على أيدي المستعمر ليس أمره ببعيد ؟

تمتم راجي في خجل : بل قل في الأصل لماذا يسيطر بلد على آخر ؟

في حين أطلق يوسف آهة طويلة مكلومة : وما العمل ؟؟

وأضفت محنقا : الحق معكم فالتسابق الذرى ما يزال موجودا . الحرب الاقتصادية على أشدها . السلاح ينتج بوفرة . هناك أحلاف وتكتلات .. وقواعد عسكرية تنتشر وتتبعثر بالمئات ودون أبوابها أسرار الإفناء المرعبة ، وفوقها راية الجمجمة والعظمتين ، وهناك حروب مذهبية خفية وعلنية ، وهناك تدمر وثورات رفض تخمد بشراسة إن جسد كوكب الأرض مثخن بالجراح القاتلة .

عادت شفتا يوسف تتذبذبان في انفعال : لقد استرد العرب أراضيهم في الماضي بعد أن لقنوا إسرائيل درسًا قاسيًا ، وسكنت جبهة فيتنام بعد أن فشل الروس

والأمريكان فى إخضاعها ، وانتصرت إيرلنده العاجزة على إنجلترا المقتدرة ، وأيضًا هناك اعتداءات غيرها قامت ، وحروب قذرة غير متكافئة نشبت فى كل مكان .

همس راجى : من الظلم والإجحاف على آدميتنا أن يترك مصير البشر فى أيدى دولتين أو ثلاث دون غيرها ، دون بقية الشعوب . فمن حق كل بشرى ، أن يسهم فى توجيه مصير كوكبه .

– ما يزال هناك أمل كبير ومثمر ، قالها كبير الحكماء فى ثقة . فسأله راجى : ما الذى تعنيه ؟

– لقد واجهنا إنذاراً ، وسنملى شروطًا ، وصدقنى أنهم سوف يرضخون فى النهاية .

على أن راجى قلب شفتيه امتعاضا وقال بمزيج من السخرية والآسى :

– إن كيفية تقديمكم للإنذار وما صاحبه من ترتيبات حادة قد تمت كأنها بصيغة القهر ، بطريق العنف الذى تنددون به وتؤكدون نبذكم لأى صورة من صوره ، وستملون شروطكم بنفس الأسلوب خرج الجواب سريعاً ، انطلق المقذوف النارى من فم كبير الحكماء :

– بل العنف الذى سيوصلنا إلى غرضنا ، إنه اللغة الوحيدة التى يفهمونها ، لأنها لغتهم ، من صنعهم ، وطالما خاطبوا بها غيرها .

وأضاف الحكيم الثالث موجها كلامه إلى راجى : لقد ارقنا الموضوع طويلا قبل أن نبت فيه برأى ، فليس هو بالأمر الهين أو المحدود ، لكن الذى أريدك أن تفهمه وتعيه كما نعيه تمامًا ، هو إننا حين نهدد بإفناء العالم ، إنما بقرارنا هذا نوقظ البشر من سباتهم العميق ، الثقيل ، وتضعهم دفعة واحدة أمام مسئوليتهم ، أمام هول ما يقومون هم أنفسهم بفعله دون .

قلت أضم صوتى إلى صوت راجى ، وإن كنت فى داخلى أشارك الحكماء مذاق كلماتهم المرة : وهل إغراق السفن الثلاث يدخل فى إطار نظريتكم أيضًا ، إننى أراه عملا يضر بسمعتكم أكثر مما يفيدها !

أجاب كبير الحكماء : بل أنت تتجاهل لغة العصر السائدة ، لغة الدم !

– إن لغة العصر هى لغة العنف فى إطار الإثارة غير المألوفة .

– أين الكلمة الهادئة إذن ؟ .

– هذه مفاهيم قد تلائم عصر عربات الجياد ، سفن الشراع ، وليس عصر الذرة والنفاثات وغزو القمر والمريخ . أنت تنشد المستحيل يا صاحبى .

– قد تأتى الكلمة الهادئة بمنطقها السليم المقنع من واحد من صفوة مفكرينا المشهود لهم .

هز كبير الحكماء رأسه سلبًا فى غير اقتناع : أنا لا أنكر وجودهم ، بل كثرتهم بل لطالما أدلوا بالتحذير المنطقى المرعب المرة تلو المرة ، فماذا كانت النتيجة ؟ تحذيراتهم فى واد وآذان الحكومات والناس فى واد . وتكلم الحكيم الثالث من جديد : إن الصفعات بالكيفية التى نطلقها نحن ، إنما لن تؤدى سوى إلى التراجع فالإذعان . إن حقائق الحياة الفعلية لا النظريات وحدها تؤكد ، إن أكثر الدول عدوانًا وعجرفة أكثرها جبنًا . هم مردة طالما اختبئوا خلف أسلحتهم ، لكن انزع عنهم سلاحهم أو وجه إليهم سلاحًا أشد فتكًا . تجدهم ينهارون ويستسلمون ، لأن دعواهم من الأصل باطلة . إن المجرم فى داخله رعديد لأقصى الحدود .

أبدى راجى ملاحظة : أفلا تخشون غدر مجرم رعديد ؟

– اطمئن ، إننا مستيقظون تمام التيقظ .

هنا وجهت سؤالاً نسيت أن أوجهه فى حينه : سيدى كبير الحكماء .. فى مبدأ الحديث معنا ذكرت الحكيم الثانى كلمة عابرة لا شك أنها تثير تساؤلاً ، فقد قالت إن قرار العلماء الشبان كان الاختباء لمدة ٢٥ عامًا ، زيدت إلى ٣٠ عامًا ، لكنها فجأة ولأسباب لم تذكرها بترت المدة قبل أن يتم اكتمالها ٢١ عامًا ببضعة شهور ، ترى إن لم يكن هناك داع لتكتم هذه الأسباب ، فماذا تكون ؟

– آه .. معك حق .. هى ليست سرية فقط نسيت أن أذكرها لكم . فى المبدأ كان قرارنا بأن نظل فى منطقة الظل أو النسيان بالنسبة للعالم أكبر قدر ممكن من الزمان ، حتى نعطى تجربتنا فى خدمة الجنس البشرى حقها الكامل من الدراسة والإعداد ، خاصة وإن مشكلة التزود بالمعدات فى مكاننا النائى كانت مشكلة تؤرقنا بشدة ، ثم والأهم ، حتى نعثر على السلاح الفعال الذى يمكنه أن يفرض وجوده الفعلى وسط ترسانة الدول المهولة . لكننا فجأة اتخذنا موقعاً مغايراً ، قبل نهاية السنة ال ٢١ قررنا بإجماع الآراء الانفتاح على أبناء الدنيا كلها . وكانت الأسباب التى دفعتنا لاتخاذ ذلك الموقف ، خطيرة وملحة .

لكنه أمسك بغتة . شاهدناه يتفحص وجوهنا المركزة عليه الواحد تلو الأخرى . لمعت فى عينيه نظرة إشفاق ، مال على الحكيم الثانى التى نظرت فى ساعة معصمها ، ووقفت وهو يتمتم لقد مرت أكثر من ساعات ثمان ، وأظن أنه قد حان الوقت لنصيب شيئًا من الطعام .

وإزاء إحساسنا المباغت بقرصة الجوع فلم يكن فى وسعنا غير الموافقة على كلامه . وبينما الحكيم الثانى تتناول صحافًا وعلبا بلاستيكية من فتحة انشق عنها الجدار لدى نهاية الأريكة الهلالية أخذ كبير الحكماء يوضح سريعاً .

أول الأسباب كان توصل العضو رقم ٢٠٩ ، وهو شاب نابه ، عالم فى الكهرباء والإلكترونات ، إلى اكتشاف دائرة "الجدار الموجى" حاجبة كافة الأصوات والإشعاعات . لقد كان اكتشافه بحق مذهلا زودنا بالسلاح الذى نحتاجه ، وراحت منضدة متوسطة تكتسب ألوانا متعددة شيقة .

– وثانيهما بلا جدال : هو ذلك النزاع الذى نشب مع أوائل العام الحالى دون مبرر بين الدول الثلاث العظمى ، أصل النزاع كما تعرفون تافه ، لولا تدخل الكبار . المهم أن الموضوع تشعب ، تضخم ، تطور إلى الأسوأ ، تحول من نزاع محلى محدود إلى صراع عالمى ينذر بحرب نووية حمقاء ، قد يندلع أوارها فى لحظة من اللحظات .

قلت أكمل كلام كبير الحكماء على ضوء منطقة : الحرب العالمية الثالثة تنذر بالاندلاع ، الإفناء الذرى يهدد بالبدء ، ولديكم غواصاتكم وأدواتكم المتفوقة ،

ثم لديكم سلاحكم السرى "الجدار الموجى" . من هنا فلا مفر من تدخلكم الحاسم قبل أن يفلت الزمام .

– عظيم ، ثم أيضاً كانت لنا مشاكلنا الخاصة الداخلية .

وقد برزت من بينها واحدة حادة تحتاج إلى علاج فورى ، إلى رؤية أوسع . وفاحت روائح من وسط المنضدة أثارت شهيتنا لذراها .

استطرد : فمذ خمسة أعوام وتحت ضغوط متعددة سمحنا بالتزاوج بين أفراد الجماعة من الجنسين بعد أن كنا نحرمه . فما الذى حدث ؟ لدينا حالياً ١٨ طفل سن أكبرهم ٤ سنوات ، وقد أمضوا عمرهم القصير دون أن يشاهدوا أو يتعرفوا على أكثر من حدود هذه الجدران المحاطة بالمياه من كل جانب ، فما هو مصيرهم تحت سطح الماء ؟ وبأى كيفية يمكنهم الاستمرار هكذا ؟ إنها مسئولية كبرى وددنا لو يشاركنا تحملها المزيد من العلماء غيرنا . ثم هل دعت الحاجة حقا لبقاء الإنسان تحت سطح البحر أو المحيط ؟ لكن كى تفهموا المشكلة لابد أن تلموا أولاً بكيفية استقرارنا هنا بمدينة القاع . ولذلك قصة أخرى لن نتناولها قبل التهامنا هذه الأطعمة البحرية من ابتكار طهاتنا . ولم نكن بعد ذلك فى حاجة لدعوة ، فقد بلغ جوعنا مداه ، وبلغ انتظارنا أقصاه . فانطلقنا نجهز على صحاف الطعام الشهية من صدور أسماك التروت وسلطة طماطم وخس البحر ممزوجاً بالأنشوجة المملحة .

* * *

الفصل الرابع

"الثلاثاء ٢٢ يونيو عام ٢٠٩٩ – مساءً"

تعالى رنين موسيقى ، نغم حنون له وقع أسر لكنى لم أكترث له فى المبدأ . لم أفتح عينى . كان الفراش الوثير يشدنى ، تقلبت على الملاءات الناعمة ، تقلبت وتقلبت ، دفنت ذراعى عميقًا تحت الوسائد الرطبة ، أغرقت وجهى فى الأغطية الطرية ، الرحيمة ، بينما تدغدغ حواسى .

"استيقظ يا ملاك . اليوم موعد افتتاح البرج ".

أى موعد ؟ أى برج ؟ ومن الملاك ؟ لا يهم .

غادرت فراشى مكرها ، عشرات الأيدى البضه تلقفتنى ، حملتنى ، أسالت اللبن تغسل وجهى ، عبقتنى بعطر نفاذ ، وضعت العوينات الوردية على أنفى ، ثبتت طرفيها خلف أذنى ، بعدها عشرات الأيدى تسابقت على الباسى الثياب ، يالقماش حلتى ! لم أر فى سخائه ، فى بهاء ألوانه وربطة العنق هفهافة ، منقطة مثل أبو العيد ، والسروال ضيق ، انسيابى ، أيضًا فى البطانة تختفى أداة التدفئة بمهارة .

ولفوا قدمى بنسيج شفاف ، وأدخلوهما فى آخر صيحة للأحذية ، قالب الكاكاو من لدين بترولى بالغ الطراوة بين شطرية وسادة الهواء .

حملتنى الأيدى البضة غادرت بى المكان عجلة ، أدرت رأسى ، أحببت نظراتى أن تعانق النعيم قبل أن تنتقل إلى غيره . الأرض تتحرك ، شريط فيها يتحرك ، وقفت ، التصقت ، والتصقت حولى عشرات الأقدام اللامعة ، انساب الشريط ، مر بنا أصص مليئة بالزهور ، بالورود ، مالها صامتة ، تمايلى ، اضحكى ، ورشت يد الرذاذ

خلسة .. آه .. الأريج الآن ينسل إلى روحى ، كف الشريط عن الحركة ، بدت الساحة ، لا مناص من اجتيازها على الأقدام .

وجاءت العمودية ، هبطت بحقائبها المعقمة وفتيانها زرق الأردية .

تحت ذقنى غرسوا حبة أرز ، طيرتنى النشوة ، الملاك مع الملائكة ، يحلق ، ما الذى يفعلون بجسده ، شقوا الصدر ، بماذا ؟ الأدوات أرفع من عيدان الثقاب ، نقية ، مرهفة ، تضوى ، أخرجوا القلب الساكن ، وضعوا بديلاً آليا ، تدفقت الدماء القانية ، امتلأ ، تصاعدت دقات عذبة ، تنفس الجسد ، عندئذ أغلقوا فتحة الصدر بجذب سو ستة لا تصدأ ، هبط الملاك إلى جسده ، عدت عفيا كما كنت ، علقوا على عنقى ضمان عمل قلبى ، مائة عام أو مائتين ، لا يهم .

أخيراً حاذينا الصاروخ ، ولجت سفينة السماء ذات الوقود البلازمى ، سفينة ثمانية أو تسعة أضعاف الصوت ، انفتح الباب إشعاعيا ، وأنا أهم بإلقاء جسدى على أحد المقاعد لمحتها ، مليحة الوجه هيفاء القد فى رقة النسيم .

ولها الجدائل المتاطيرة ، أشرت إليها بإصبعى ، تتبعتنى آلاف العيون ، رموشها تصنع أقواسًا ، شفتاها توعدان الجنة ، الزحام مزق قميصها ، انجابت الألوان الشجية وبقى لون العسل ، ذهبى ، مصفى ، بقيت الانحناءات والثنيات ، الملتاعة ، ألقوا بها فى حضنى ، اغلقت زراعى ، انضغط نهديها على صدرى ، غيبتنى أنفاسها وغليان دمائها ، وانغلق باب سفينة السماء علينا ، بينما الحناجر تهلهل والأنغام تصدع بالخارج .

شقت السفينة كبد السماء . ضربت عرض الخواء .

فى ثوان حطت على قمة جدار يبرز من أعماق سحابة .

نحن الآن على البرج .

وبدت قبالتنا مائدة بالغة الطول ، مهيبة الاتساع ، وفرشت عليها ألوان من اللذة لا حضر لها . سوائل ، عصائد ، أقراص ، خرائط ، حبوب ، برشام ، أنواع من المزيج من الحشو ، من الشطائر .

لكن ، الآن : أيها الملاك ، الق نظرة من أعلى البرج" .

ألا أنهى طعامى ، ألا أنوب فى معبودتى ، لا ، تضايقت ، اكتأبت ، ترددت ،

لا يهم .

أذعنت وخرجت إلى شرفة البرج .

الشرفة دائرية ، مكشوفة ، ممتدة ، ترتكز على خيوط فولاذ مائلة ، والهواء يلفح وجهى بارداً ، عليلاً ، منعشاً .

"انظر يا ملاك" ، انظر عن يمينك وعن يسارك .. آلاف المداخن تحتها ملايين التروس والعدد والآلات . وذرات تولد طاقة ، والطاقة تحرك جبلا ، جبالا ، ومن جانب تخرجة ملايين الأجهزة والمعدات ، متفوقة ، زاهية ، جذابة .

ثم "انظر يا ملاك" ، لا ، ليس إلى تحت ، بل إلى فوق ، آلاف المسارات بين الأرض وأجرام السماء ، سفن كونية غير سفينتك تتدافع ، تتسابق إلى الزهرة ، إلى عطارد ، ومن المريخ إلى المشترى ، وإلى غيرهم ، إلى داخل مجموعة الشمس وإلى خارجها ! ، إلى كواكب معروفة وأخرى مجهولة . عالم النقل والمواصلات لم يكفه سطح الأرض تحت الماء ، إنما شق السماء ، ملأها ، وربط أنحائها ، أغوارها ، بخيوط عنكبوت تنسجها مغازل آدمية ، تخرج من رؤوس البشر ، من ذرى أمخاخهم فتربط الكون . فى المبدأ ذره ، ثم ذرات ، ثم ذرات وذرات ، ثم من يعلم .

بغته تتعالى دمدمة ، يتمايل البرج ، لا يهم .

الصخب حولى يتباطأ ، حبيبتى أصابعها تبرد ، لا يهم . الدمدمة تتحول إلى فرقعة ، هدير ، يترنح البرج ، القوم يصمتون وحبيبتى تبتلع بسمتها ، لا يهم ، لا يهم .

فى عنف هذه المرة الصوت المدوى يجلجل ، الصدمة تسحق صدرى ، البرج يترنح ، كسرت عيناى ، الغشاوة تملأ بصرى ، أمد عنقى أتفرس ، ما هذا ؟ على البعد ما يشبه شجرة باسقة ، ما يشبه دغلا ، هو عش الغراب ، أنا أعرفه ، ذاكرتى تعيه ، تبغضه ، تلعنه ، ارتعب ، ارتعد ، أكاد أسقط ، أسنانى تتناثر وشعرى يسقط وجلدى يتهدل ، يتقيح ، الأمر أصبح هاما بالغ الأهمية ، حيويا ، حيويا .

عش الغراب يقترب ، يكتسح ، الرماد يملأ الدنيا ، لزجًا .. كريهًا ، الضياء يتضاءل والظلام يعم . الهواء يخف ، يذوى . يتلاشى ، لابد أن أهرب . لا مفر . البرج ينهار ، والأجساد تتناثر ، تتيبس ، تتفحم ، تسحق . والجو يسخن ، يسخن دون حريق ، دون لهيب ، يسخن ويظلم .. أغنية الضياع تنشد لحنها الجنائزى يسود ، ينشب مخالبه فى الوجود ، أهرع إلى السفينة ، السفينة تضيق ، تصغر ، تنكمش هى تسع فرداً، أنا ، لكن حبيبتى تريد دفعى ، إقصائى ، تريد السفينة لها وحدها . أبداً، أصابعى المجنونة حول عنقها ، تريد خداعى بصدرها العارى ، بساقيها الملساوين ، أبدا ، أصابعى تضغط ، فقراتها تتحطم ، تتكفئ على بطنها ، أفوز بالسفينة ، دونها ، دون واحد منهم . الملايين يهلكون وأنا أعيش ، الكون ملكى .

واتجه إلى المريخ ، طالما حسدت أهله ، آسفين يا ملاك .

الزهرة ، أناسها طيبون ابتعد عنا يا ملاك .

إذن إلى المشترى ، أهله خيرون وادعون . مستحيل كوكبنا لا يسعنا وإياك يا ملاك .

أورانوس ، ارحل عنا يا ملاك ، داخل مجموعة الشمس ، خارج مجموعة الشمس ، خارج مجموعة الشمس ، خارج مجرة التبانة ، لا نريدك يا ملاك .

فى مجرات قريبة ، فى مجرات نائية ، قصيه ، إنا ننبذك يا ملاك ، فى دهاليز الكون ومتاهاته الأبدية ، إلى الجحيم ، إلى الجحيم يا ملاك .

* * *

– استيقظ يا شادى ...

– هه ، ماذا ؟

– لقد غفوت على مقعدك ، يبدو أنك لم تأخذ كفايتك من النوم بالأمس ..

– لم أتصور أننى سأغفو لدرجة الحلم .

– ما علينا ، هيا ، قد حانت العودة للقاء الحكماء .

– ثوان ، وأكون مستعداً .

وعدنا إلى الحجرة الدافئة . كان الحكماء الأربعة مكتملين . لقد أنهى رابعهم مهمته وحضر . حين دخلت رأيتهم جلوسًا تحت الفتحة البلورية المنبعجة إلى الخارج ، وكان الساتر المعدنى منزوعًا عن الفتحة .

بدا المحيط من خلال مادة البلور رائقًا هادئًا دون حراك ، اللهم إلا من بعض الفقاعات المتصاعدة ، ومن بضع سمكات منتفخة ، شكلها كمثرى ولها لوامس مروحية متشعبة ، وسرطان صغير التصقت مصاصات ثلاث أو أربع من أرجله بالصفحة الملساء فى مواجهتنا ، وكتلة من المجهريات والعصيات الدقيقة تتجمع حول سمكة عريضة مخططة الجلد ، كانوا جميعًا يتململون بينما يراقبون ما يدور بالداخل فى شغف كبير .

– أقدم لكم رابعنا ، رقم ١١٣ ، الحكيم الذى كان غائبًا فى أول اللقاء ، قالها كبير الحكماء وقد وقف بجواره من يتحدث عنه بثوب زيتونى مثل ثيابنا ، قصير الشعر ، حليقًا ، متوسط القامة ، ناحل الجسد مع صلابة فى التكوين باديه ، كأنه جندى طحنته معارك الحرب وويلاتها فأماتت مشاعره ، لكن شفتيه كانتا تنغلقان على خط مركز من التحد ، أما سنه فيقارب الثامنة والأربعين .

صافح الحكيم الثالث ثلاثتنا بيد قوية ، فلما اتخذنا أماكن جلوسنا جذب هو مقعداً إلى يمينى ، قال كبير الحكماء : والآن ، على ما أظن فقد توقف بنا الحديث قبل ساعتين ، لدى قصة وعدتكم بسماعها ، عن كيفية استقرارنا بمدينة القاع ، حسن ، ولما كان ١١٣ هو المكتشف الأصلى للمقر ؛ لذا فلن نجد خيراً منه يقصها علينا .

استقرت أنظارنا على ١١٣ ، الذى بدأ الكلام وأصابع يديه تداعب سلسلة مفاتيح معلق بها فص فيروزى فى حجم الزيتونة الكبيرة بينما وجهه جاداً وعيناه تائهتان .

– درست الكيمياء الحيوية وفيما بعد هويت كيمياء التربة وتخصصت فيها . وبدلاً من استغلال مواهبى فيما يعود على البشر بالخير ساقونى بإغراء المرتب الخيالى تارة ووعود الدعاية المغرضة تارة أخرى ، لاشترك مع عشرات غيرى فى حرب غير متكافئة لا تمت لنا بصلة . كنت أقوم ضمن سرب من الطائرات المروحية بإلقاء أشد سموم الكيمياء فتكًا على مزروعات وأشجار الأعداء لإبادتها دون أن أرى عن قرب عاقبة فعلتى على كل ما هو حى بالمنطقة. ولا تسألونى عن ضميرى ، لقد كان مخدراً أو نائمًا وإن لم يكن ميتًا، حتى أصيبت طائرتى بقنيفة مباشرة ذات يوم وسقطت بى . بعدئذ وخلال هربى طيل ١٢ يومًا فإننى لم أشاهد منذ مولدى من التخريب والدمار والإبادة الوحشية للحياة مثلما رأيت على مدى أميال من أرض العدو إلى أن عبرت الحدود لأرض أخرى محايدة . كل ما قابلته كان مخربًا مباداً والأرض متفحمة ، الأشجار محترقة ، والمبانى خاوية مهدمة ، وما أكثر ما قابلت من جثث الإنسان والحيوان والطير المشوهة المتعفنة ، حتى الأسماك كانت تطفو ميتة على أسطح البرك والمستنقعات الآسنة .

عدت إلى وحدتى إنسانا مشتت الفكر لحق السقام روحه قبل جسده ، على أن الصدمة ردت إلى ضميرى فأسرعت بالعودة إلى بلدى ، وكدت أقدم للمحاكمة نتيجة تمردى لولا تقرير قدمه أحد الأطباء فى صالحى .

وصمت الحكيم الرابع ، أطلق آهة كظيمة ، مد يده المرتعشة من الانفعال وتناول لفافة مصرية أشعلها .. وراح يتتبع حلقات الدخان الرفيعة المنبعثة عنها وعيناه نصف مغلقتين .

وهز رأسه وطأطأ برأسه وهو يتمتم شارداً : «ذكريات بغيضة .. بغيضة ..»

على أن الحكيم الثانى رقم ٥١ همهمت : بل إليها يرجع الفضل فى أخذك طريقنا .

عندئذ أسرع الحكيم الرابع يقول : إنه أقل تكفير ، أبديه فى حق الضحايا الأبرياء .

بينما رحت أحدث نفسى ، ترى كم منا نحن الأدميين ، من يحس الندم من أجل أخ له ، من أجل شريك متساو يقاسمه قطرة الماء ونسمة الهواء وفرشة الثرى على ظهر كوكب واحد ؟ ... آه قليلون أن لم يكونوا معدودين ، نادرين .

وتعالى صوت الحكيم الرابع مسترسلا : فى طريق العودة غرقت السفينة التى أقلتنى وسط المحيط ، وعبرت أمواج كالجبال ، حملنى طوق نجاة يقود تيار بحرى ورياح عنيفة إلى جزيرة بركانية قاحلة ، مساحتها ميل فى نصف ميل ، وعلى سفحها الجبلى وجدت نبعًا شربت منه وبعض الثمار أكلتها بعد أن ظللت أكافح لجه المحيط أيامًا أربعة بلا طعام أو شراب . وفى الجزيرة وطيلة شهرين حاولت أن أحدد موقعى عبثًا ، حتى عندما نجحت فى صنع طوق من جذوع بعض الشجيرات النابتة فإننى كنت أجهل أى اتجاه آخذ لدى رحيلى ، إلا أن اليأس لم يتطرق إلىّ .

وتوقف الحكيم الرابع يلتقط أنفاسه ثم تابع : وعقب أسابيع ثلاثة من تركى الجزيرة التقطتنى سفينة لصيد الحيتان ، وحينئذ تمكنت فيما بعد من تحديد موقع الجزيرة . والآن هذا الموقع أصبح سرنا الذى تعاهدنا على كتمانه ، ولما كان موقع الجزيرة يبعد عن نطاق خطوط الملاحة الدولية المطروقة ؛ لذا وكما توقعت فلم أعثر على ذكر لوجودها بأى من أطالس الجغرافيا المعروفة أو لدى أى هيئة دولية علمية .. ومن هنا بقى مكانها حبيس صدرى لا يعلم به سواى !!!

توقف الحكيم الرابع ليعاود التدخين بشراهة . بينما حاول راجى إمساك بقية الكلمات ليصل لختام القصة : والتقيت فيما بعد يا سيدى بزملائك العلماء الشبان فى المؤتمر الدولى الذى عقد بچنيف فى شهر يناير عام ٢٠٧٩ ، وكان التعاطف ثم الاتفاق ، وفى النهاية لم تجدو خيرا من جزيرتك النائية المجهولة لتتخذوها مقرا سريا لكم ؟

وأضاف يوسف وهو لا يخفى إعجابه : ولتشيدوا أسفلها أول تجمع سكانى عرفه كوكب الأرض تحت سطح مياهه ، ونما المشروع وكبر مع الدأب المتواصل ، ليصبح ما تطلقون عليه مفتخرين .. "مدينة القاع" .

ابتسم كبير الحكماء ، إلا أن نظرة جادة يعتريها الاكتئاب سرعان ما غطت ملامحه .

– على أن الأمر لم يكن سهلاً . فحتى الآن وبعد مرور عشرين عاما ما نزال نناضل فى عناد . علق راجى : إن النضال غريزة كامنة فى الإنسان !

بينما تابع كبير الحكماء : أولى المشاكل التى صدمتنا كانت كيفية انتقال أول جماعة لنا وعددها ٦٤ فردا إلى المقر السرى بالجزيرة دون أن نلفت إلينا أنظار أحد ، وقد نفذنا خطتنا بعد سرقة غواصة قديمة تتبع إحدى الدول الأفريقية .

قلت بسرعة : مازلت أذكر اختفاء الغواصة ، كانت من طراز (ت) البريطنى يرجع تاريخ صنعها إلى أواخر الحرب العالمية الثانية . لقد تناولته صحف العالم طوال عام ٢٠٧٩ ، بكثير من الإفاضة لكنها لم تستطع حله .

– المشكلة الثانية والأكثر تعقيداً . كانت خلو الجزيرة من المياه العذبة .. فقد نضب ماء النبع الذى أخبرنا الزميل ١١٣ بتواجده .

سأل يوسف : ألا تتعرض الجزيرة لهطول الأمطار على مدار السنة ؟

أجاب كبير الحكماء : الجزيرة صخرة بركانية محدودة ، من ناحية أخرى قد يساعد ماء المطر على إنماء النباتات البرية لكنه لا يعطى الضمان لبقاء عدد من الناس أحياء فى حجم جماعتنا .

قطب يوسف جبينه : إذن هى مشكلة عصية .

قال كبير الحكماء : بالفعل ، كاد مشروعنا أن يتوقف من أساسه لولا أن طرأت برأس واحد من علماء جماعتنا ، ممن شاركوا فى ارتياد القارة القطبية الجنوبية فكرة بالغة الذكاء ، فقد إقترح علينا جلب كتل الجليد ومكعباته من أقرب القطبين وتخزينها بكهوف جزيرتنا الشديدة البرودة بداخل جبل البركان ، ثم نستخدمها فى الشرب وفى غيره فيما بعد .

تبادل ثلاثتنا نظرات دهشة ، تمتم يوسف مبهوراً : يا لها من فكرة غريبة .

بينما تساءل راجى فى امتعاض : وهل تصلح المياه المذابة للشرب ؟

أجاب الحكيم الثالث وكأنه ينتظر سماع فحوى الاعتراض بحذافيره :

– بالطبع هى أنقى مياه عذبة على سطح كوكبنا ، بل إنى لا أستبعد إذا ما استفحل تلوث الأنهار والبحيرات ولم يسعفنا حفر مزيد من الآبار ، أن يأتى الوقت الذى يصبح فيه جليد القطبين المتراكمة طبقاته من قبل عصر التلوث بالآلاف السنين ، وهو الملجأ للإبقاء على حياة البشر ، وقطبت الحكيم الثانى حاجبيها .

– وكذا ثلوج قمم الجبال وثلوج السهول الباردة شمالاً وجنوبياً . إن الجليد والثلج يكسوان نحو عشر سطح كوكبنا بصفة دائمة .

– ألا يتلوث الجليد ؟

– إن طبقته السفلى تظل بعيدة عن التلوث ونقية تماماً .

عاد كبير الحكماء يتابع الكلام : واعتمدنا على جلب كتل الجليد خمسة أعوام حتى تم لنا تصميم أول محطة يديرها مفاعل نووى لإعذاب المياه المالحة اقمناه أسفل جزيرتنا .

توقف كبير الحكماء مرتاباً من جمودنا لكنه حين لاحظ مدى انصاتنا لحديثه استطرد .

– وما أكثر الذى اعترضنا من مشاكل ، وما أقسى ما جابهناه من صعاب ، بذلنا المستحيل للتغلب عليها ، الطعام ، والدواء ، والعزلة عن العالم ، وفيما بعد

افتقاد أشعة الشمس ، ومراعاة إخفاء وطمس كل أثر يرشد إلينا ، وجلب المزيد من العلماء عن طريق التوسع فى نشر دعوتنا سراً ، هذا بخلاف ما كنا نتعرض له فرادى وجماعات من أخطار الحوادث خلال عملنا الصامت المستتر الدؤوب فى هذه البقعة النائية عن كل عون آدمى .

توقف كبير الحكماء يأخذ نفساً طويلاً ، ثم قال بغتة فى نغمة ضارية :

– على أن مشكلة المشاكل تركزت فى افتقارنا الشديد للأدوات ، للعدد ، وللمادة الخام فإن واقعنا الملموس كان هزيلاً محدوداً بالنسبة لطموحاتنا .

تساءلت وأنا أدفع مقعدى خطوة إلى الأمام متناسيًا أننى غريب على الحكماء لست واحداً منهم :

– وكيف بالله أمكنكم أن تحصلوا على كل الذى حصلتم عليه ، وتشيدوا هذه المدينة المستقرة على القاع ؟

قال بصرامة : فى المبدأ ، ولنقل خلال السنوات الثمانية الأولى ، كانت ظروفنا الشحيحة تلجئنا إلى نوع من السطو البحرى ، أسميه مجاذاً (بالقرصنة المهذبة) . فى الليل الحالك نعترض بعض السفن التجارية ، نستولى عليها ونقطرها إلى جزيرتنا ، نجرى على بحارتها وركابها جلسات غسيل مخ مأمونة ، بحيث يرددون لدى عودتهم قصصاً وهمية تفيد تعرضهم لكوارث بحرية ، بعدئذ نتركهم بقرب سواحل مأهولة على قوارب نجاة سفنهم ذاتها ، بينما نغنم نحن السفن بكامل حملها الثمين .

قلت معاتبًا وقد أمسكت هنة لا تغتفر : إن القرصنة مهما أطلق عليها من أسماء براقة فهى انتهاك لحرمة الغير بأوضح معانيها ، أفلا يتعارض ذلك مع دعواكم !

تفرس كبير الحكماء فى وجهى يقيس كل كلمة نطقت بها ميزان دقيق :

– عاطفيًا معك كل الحق فيما ترمينا به من تناقض ، لكن مهلاً ولنعد إلى أسلوب الأطباء فى التصرف . أنت ، إذا ألم بك مرض طارئ ، ألا يسعفك الطبيب بأى علاج فى متناوله . ألا يسقيك أمر الأدوية ، ويؤلمك بالحقن وغيرها ، ويحرم عليك أشهى

الأطعمة ، ألا يجرى لك جراحة إذا تأزم الموقف ثم فى النهاية ألا يتقاضى أجراً ، فلماذا تشكره وتثنى عليه ؟؟

– لأنه يهدف إلى شفائى .

– آه .. بالضبط .. نحن أيضاً هدفنا البر والشفاء والصحة والسلامة للإنسانية جمعاء . ثم أحب أن أوضح .. أننا لا نتعرض أبداً لسفن الدول الفقيرة بل لا أذيع سراً حين أقول أن مخابراتنا كانت تقتفى بالذات السفن التابعة لمؤسسات مشبوهة سيئة السمعة . وبذلك ربما كنا نقوم بأداء خدمة مزدوجة دون أن ندرى .

وتمتمت الحكيم الثانى : يضاف السفن التى أغرقتها العواصف بقرب جزيرتنا وتلك التى كنا نعثر عليها مطمورة منذ أزمنة بعيدة .

حينئذ ألقى يوسف سؤالا بدا أنه يهمه : ترى أى أنواع الطاقة تستخدمون بمدينتكم ؟ ..

أجاب كبير الحكماء : فى المبدأ استخدمنا البترول .

– بالقرصنة أيضاً ؟

– بالطبع فحاملات النفط كثيرة ، وما يحدث للسفن التجارية يمكن أن يحدث لها ،

– فهمت .

اعتدل كبير الحكماء فى جلسته على الأريكة الهلالية ، قال وهو يهز رأسه فى رزانه .

– على أن كل ما حولنا تغير الآن ، استبدلنا البترول بالطاقة النووية والطاقة الشمسية ونحصل على الثانية من سطح الجزيرة ، والمواد الخام لم نعد تجلبها فمناجمنا تحت المحيط تمدنا بالحديد والفسفور والمنجنيز والنحاس والكوبالت والنيكل واليورانيوم وأيضاً الذهب وخام البترول والماس واللؤلؤ وغيرها . إن المحيط يا سادة

هو مستودع المستقبل لكل معادن كوكبنا . فحجم الموجود منها بالفعل تحت الماء طبقة سمكها ٤٥ كم تلف كرة الأرض بأكملها .

قال يوسف : هذا بخلاف العناصر الكيميائية ؟

رد عليه الحكيم الرابع : بصفتى متخصصًا أجيبك بوجود أكثر من ٤٢ عنصرًا كيميائيًا .

تابع كبير الحكماء : أما مصباح الكهرباء فتزاحمه لدينا "الخلايا المشعة" وهى ذرات معدن بحرى اكتشفناه مؤخرًا .. وبعد استخلاصه نقيًا ثم معاملته كيميائيًا تطلى به الحوائط من الداخل حيث يتفاعل مع أقل جهد كهربائى . على سبيل المثال فخلايا الحجرة التى تضمنا يضيئها تيار قوته ٨ وات فقط . همس راجى لنفسه فى صوت سمعناه وأنامله تعبث فى طرف لحيته المدبب :

– معنى ذلك ، أن تخطيطكم كان منذ بدايته سليمًا منظمًا .. معناه أن عزائمكم صلبة وتحملكم للشدائد عظيمًا ، ومعناه أنكم أثبتم وجودكم برغم عزلتكم المضنية ، المميتة !!!

أضاف يوسف : وقمة نجاحكم فى استغنائكم عن الأدوات المعروفة لتحل محلها أدوات بديلة ، مطورة ، متفوقة .

بانت السعادة على قسمات كبير الحكماء ، هب واقفًا ، ابتعد وهو يسير الهوينا وإن ظل صوته يأتينا واضحًا ، أرى أن الوقت قد حان لتناول خصوصياتنا الداخلية ببعض الشرح والتفسير .

استدار يواجهنا : الإحصاء الأخير لجماعتنا هو ٥٨٠ فردًا من مختلف جنسيات العالم وشعوبه ، ربعهم نساء ، وجميعهم كما سبق وذكرت من خيرة العلماء الشبان ذكاء ونقاء فى ضمائرهم ، وكلهم من المؤمنين بسمو الخلق الإلهى للبشر ، لحكمة إبقاء ذرية آدم متمتعين بنعم الله على ثرى كوكب الأرض ، لكنهم فى الوقت نفسه من الغاضبين المناهضين لاتجاهات وأفعال حكومات تهدف فى حمق واضح إلى إشعال

العالم ومحوه . وهل عقب قيام حرب ؟ نووية ، هل ينجو كائن ؟ هل يتبقى شيء مما عهدناه وألفناه بكرتنا الأرضية على حاله ؟

هززنا رؤوسنا سلبًا نوافق كبير الحكماء على ما يقول . فلا يمكن لعاقل أن يعترض .

– وقد ارتضت جماعتنا سكنى قاع البحر ، قبلا للتخفى . وحاليًا – وبعد أن وعت عقولنا الفكرة المدهشة – لتجربة بدء عصر جديد ينقل فيها الإنسان مجالات نشاطه إلى أسفل مياه البحر أو المحيط . كما نظمت جماعتنا لنفسها أبسط أنواع الحكم وأقلها تعقيداً . فالجهاز السياسى لدينا إن جاز لنا أن نطلق عليه هذه التسمية يتكون من ثلاثة مجالات حاكمه ، هى من القمة . (مجلس الحكماء) ويتكون من أربعة أفراد يختارون بالانتخاب ليحكموا سنوات أربع يتولى فى كل عام منها أحدهم رئاسة المجلس وصوته يكون بصوتين لدى الاقتراع . يلى مجلس الحكماء (المجلس الاستشارى) وعدد أعضائه ثلاثون يختارون بالانتخاب من أكثر علماء الجماعة تألقًا وعبقرية .. ثم تجد لدى القاعدة (اللجان التنفيذية) ، وتضم بقية أفراد الجماعة وينبثق عنها لجان الدفاع والأمن ، والتموين ، والتعدين ، وصيانة مرافق مدينة القاع ، وشئون الصحة والطب الوقائى ولجنة الإمداد بالعلماء ، وغيرها من لجان فنية وأخرى اجتماعية ، ولعل أهم هذه اللجان وأكثرها فاعلية لجنة الترفيه وشغل أوقات الفراغ . انتصب راجى يقف بدوره ، بدأ وكان طول الجلسة قد آذى ساقيه . اقترب من كبير الحكماء وسأله .

– فى موقعكم هذا تحتاجون بالفعل لنوع من الترفيه مدروس ومبتكر .

قال كبير الحكماء : لدىَّ أول حلولنا بالجزيرة كنا نسمح للفرد منا بأجازة شهر كامل كل ستة شهور يمضيه على هواه شريطة الابتعاد عن الأماكن المعروف بها ومنها بلدة الأصلى . لكن تعرض أحد رجالنا لانكشاف أمره ألغى الموضع برمته . ومن يومها أصبح الترفيه محليًا . لدينا اليوم دار السينما المجسدة بمدينة القاع ، ولدينا أربعة أندية ، ومكتبة عامة ضخمة بخلاف المكتبات الخاصة وبخلاف حجرات التدخين مثل تلك التى نجلس فيها ولدينا فرقة مسرحية وأخرى موسيقية ، كما نقوم برحلات

قصيرة للدراسة والبحث لا تخلو من ترفيه وذلك فى أعماق للمحيطات تتم بواسطة غواصاتنا النووية المتطورة . وأيضًا بداخل وحول مدينتنا بقطار الرصاصة الحية أو تاكسيات القاع أو أردية الغوص الفردية ، أو نلف طائرين بالحملات العمودية فوق جبل جزيرتنا البركانى وحول شواطئها ، ولدينا .

قاطعة راجى مازحًا : ولديكم معاملكم ومصانعكم ودور بحوثكم التى تضم أحدث الأجهزة ، وهذه فى نظرى تكفى لملئ المشاعر والوجدان قبل ملئ أوقات الفراغ .

لكن يوسف أخذ الموضوع من زاوية جادة لذا اعترض بقوله : أنت تنس يا راجى أن االشباب له اهتمامات أخرى ملحة ، مضنية .

رمقه راجى بنظرة عاتبه : من قال أننى نسيت الجنس أعنى فقط أن سكان مدينة القاع وقد وضعت تحت أيديهم أرقى العدد والإمكانيات لا يتبقى عندهم الكثير من وقت الفراغ ، أو على الأقل هذا تصورى لو كنت واحد منهم .

على غير توقع راحت الفتحة المطلة على مياه المحيط تظلم ، ستار كثيف راح ينسدل بطيئًا من جانبيها الأيمن إلى الجانب المقابل له ، وقطع الصمت صوت الحكيم الثانى توضح حقيقة عادية بالنسبة لها :

- أنه جسم حوت الذى يمر من أمامنا .

رفع يوسف حاجبيه متشككا : أبهذه الضخامة ؟

- أنه حوت العنبر .

قلت : العنبر ... تلك المادة السوداء النفاذة التى تشبه المسك ، إذًا فمصدرها ذلك الجرم المهمول من اللحم المتحرك .

ابتعد الحوت عدة أمتار فاتضحت معالم جسمه العملاق برمته ، كان لا يقل عن ٢٢ مترًا طولاً يشغل ثلثها رأس كبير يحدها من أسفل خط رفيع ضيق هو فكه وبه أسنانه المخروطية .

أومأت الحكيم الثانى : مسكين . حوت مسن أتى يطلب العلاج :

- أو تعالجون الحيتان !! قالها يوسف وهو يراقب فى فضول كبير الحيوان البحرى الضخم الرابض ، ساكنا عن بعد .

أجابت : هذا الذكر ولعلك تلحظ الرقم ١١ مختوما بالكى على ذيله ، قد ربى بمحطة تربية الحيتان بمدينتنا القاعية ، ثم أطلق سارحة حين كبر ، وهو حوت أليف ، تعود المجىء إلينا كلما أحس بوعكة وكما تفعل بقية الحيتان المرباه بالمحطة .

– وأى الأمراض يلحق الحيتان ؟

– إذا أصابه الصياد ثم أفلت ، أو حين يكثر من أكل الحبار فتتراكم مناقير الحبار الصلبة الشبيه بمناقير الببغاوات بأمعائها وتهيجها ، ومن جهة أخرى فإن التهيج هو الذى يسبب تكون مادة العنبر .

فى هذه الأثناء ، ظهر رجلان بملابس الغوص يتقدمان ببطء شديد من الحوت الذى تعلق فى الماء ساكنا دون أن يعيرهم التفاتا ، وكانا يحملان ما يشبه خرطومين فى نهاية كل منهما سن مدبب . وتقدم أقرب الرجلين وغرس الطرف المدبب بالخرطوم الذى يحمله أسفل الحوت فى وسط بطنه .

قالت الحكيم الثانى تفسر ما نرى : أنه طبيب بيطرى ، يحقن مادة مذيبة للأشياء الصلبة ببطن الحوت .

سألت وأنا أرى الرجل الآخر يدفع بمحقنه عميقًا فى جانب من رأس الحيوان البحرى فى الوقت الذى ظهرت فيه غواصة جيب راحت تقترب حثيثا من الجسم والرجلين ملتصقين به :

– وما الذى يفعله الرجل الثانى ؟

– هو واحد من الأخصائيين يغرس طرف محقن خال من مكان مستودع الزيت السائل برأس الحوت والذى يسمى بدهن الحوت ، وبواسطة الغواصة سوف نسحب ثلاثة أرباع الزيت الموجود بالمستودع الحى حيث نستفيد به فى استخداماتنا الخاصة .

تعجب يوسف : دون أن يتألم الحوت ؟

– دون أن يشعر سوى بوخزة الطرف المدبب .

– ما حجم كمية الزيت بالمستودع ؟

قالت : بين ١٠ إلى ١٥ برميلا وتصل فى أحيان نادرة إلى ٢٥ ميلا .

– أنتم تقيسون الكمية أولاً ، وعلى ضوء القياس تسحبون الجزء المحدد منها ، أليس كذلك ؟

هزت الحكيم الثانى رأسها موافقة نفعله مع الحوت الواحد مرة كل عام ، وهو قادر على تعويض ما يسحب منه فى مدى شهرين .

أضفت المرة الثانية : وقرأت أن الزيت هو غذاء الحوت لدى نقص طعامه .

– هو ما تقول .

– وفيم تستخدمون هذا الزيت ؟

قالت بمرح : إن له استخدامات عديدة لدينا ، كتزييت الآلات الدقيقة ، وصقل الأسطح المعدنية ، وتحضير بعض الأدوية والمراهم والمعاجين ، وأيضًا طهو أنواع من الأطعمة .

انصرف الحوت وعاد الرجلان وهما يسبحان فى حين اختفت الغواصة فى اتجاه مضاد . وعاد كبير الحكماء إلى الجلوس ، وإلى التكلم فى تؤده :

– كما قلت لحضراتكم فى مبدأ حديثنا ، قبل الغذاء ، فإن نظامنا وإن أباح الإختلاط فقد فرض قيودا صارمة حول التعامل بين الجنسين فى شتى المناسبات ، إلا أن الحكماء قبلنا ، وغيرهم من المسئولين على التوالى ، كان يعتريهم القلق مع مرور الوقت من كثرة الضغوط النفسية والوجدانية الجسدية الملقاة على عاتق سكان مدينة القاع . صحيح لم يحدث ما يكدر صفو النظام والأمن ، لكننا كنا نقرأ التعاسة والضيق على وجوه بعضنا البعض . أنا نفسى أكثر من مرة أحسست التوتر ، الملل ، الاختناق .

تمتم راجى من بين شفتيه شبه المغلقتين : عشرون عامًا دون حوادث من النوع الذى تذكر !

– صدقونى ، ولا حادثة واحدة مخلة بالشرف مرت بنا .

- ولا واحدة .

- ولا واحدة ، اللهم إلا حالات الحب الصامت العميق وهذه لم تكن نملك حيالها شيئًا . وفي الآونة الأخيرة تزايدت طلبات عقد الزواج بمدينتنا . وفي عام ٢٠٩٢ ، أي منذ سبعة أعوام اضطر أسلافنا من الحكماء إلى السماح بعقد تسع زيجات ، ومن يومها عقدت واحدة وثلاثون زيجة أخرى ثم ماذا كانت النتيجة ؟

- أجاب يوسف : إنجاب ١٨ طفلا أكبرهم سن أربع سنوات كما أخبرتنا .

- أجل ، ومن ثم نشأت المشكلة التي باتت تؤرقنا بشدة .

قال راجي وقد أغمض عينيه تماما بينما قسمات وجهه توحي بالانغماس في وهده التأمل العميق : أنا لا أرى أي مشكلة فيما تنكر ، على العكس ، هؤلاء الأطفال هم بلا جدال طلائع لسكان المجال الثاني من مجالات كوكب الأرض ..

انطبع الاهتمام ممزوجا بالدهشة في عيني كبير الحكماء وهو يردد : "المجال الثاني لكوكب الأرض" .

وضح راجي كلماته : في نظرية لي سبق أن قدرت لكوكبنا الأرض مجالات ثلاثة للنشاط الإنساني ، سطح اليابسة ، وتحت سطح الماء - البحار والمحيطات - بمعنى قيعانها أو ما يسمى بالفضاء الخارجي .

همس كبير الحكماء : الطبقات العليا من التروبوسفير حتى الحد العلوي القصي الاكسوسفير ...

- بالضبط ، فكما وأن الإنسان قد عمر سطح الأرض ، فلا مانع ، بل لا مفر إن عاجلا أو آجلا ، من أن يعمر المجالين الآخرين .

- كلامك يا سيد راجي يدعو للكثير من التأمل والبحث ، ويوحي بآمال عراض قد تطمس التشاؤم حول الموضوع .

وقال راجي ببساطة : أن السؤال المطروح "هل يسكن قاع البحر ويعمر" . وأنا أؤكد بلا حرج إن هذا سيحدث بالفعل ، وقد عجلتم أنتم باختصار الكثير من الوقت

نحو بداية ذلك الحدث الخطير فى تاريخ البشرية ، اجتاحت مخيلتى رؤى مبهمة شاهدت من خلالها مجالات الأرض الثلاثة وقد عمرت بنماذج متباينة من البشر . ولا أدرى كيف شابت قامات الناس بعض التغيرات العضوية باختلاف مجال عن الآخر ، فتحت البحر ، نبتت لهم زعانف بدل الأطراف . وفى الأجواء العليا ظهرت لهم أجنحة . أما على سطح الأرض فقد ظلوا على حالهم وإن اتضحت لهم ذيولا قصيرة مريبة . لكن فكرة غلبت على فاستدرت أطرح سؤالى على كبير الحكماء :

– لم تفسر لنا ، أى نوع من القوانين والنظم يطبق بمدينة القاع ؟

أعطانى وجهه وبصرة وقال بأدب وشفتاه تسيلان عذوبة : أو لم أفعل ، أرجو المعذرة ، قبل كل شيء فلكل فرد بجماعتنا إيمانه وعقيدته الدينية ، ولكل فرد علاقته الخاصة الخالصة مع خالقه . ولدينا بمدينتنا الكنيسة والمسجد والمعبد ، لا تفرقة فى الدين كما لا تفرقة فى اللون والجنس . وبعد ذلك فإن القوانين المطبقة لدينا يا سيد شادى مأخوذة عن مصدرين :

القانون الفرنسى ، وأحكام شريعة الدين الإسلامى . لقد خَلَقَنَا اللّـه من ذكر وأنثى وجعلنا شعوبا وقبائل ، ليسود بيننا العدل ، لنتعاون ونتحاب ونتآخى لا ليفنى بعضنا البعض . فإن لكل منا حقا على أخيه فى الإنسانية . وكما بين إعلان حقوق الإنسان فقد ولد الناس أحرارا متساوين فى الحقوق . وقبلا حددت الحكمة الإلهية قمة المساواة بين الإنسان فيما يقول القرآن الكريم" وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل" ... وأيضًا المؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض . يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ".

أومأت مؤمنا وأنا أردد سورة من القرآن الكريم : ﴿ وَالْعَصْرِ إِنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ﴾

أضاف يوسف : معكما حق ، إن الهدم ممكن فى كل وقت ويأسهل الطرق ، لصعب هو البناء ، وتحقيق العدالة والعيش فى سلام .

هنا وجه كبير الحكماء إلى ثلاثتنا سؤالا غريبا نادرا :

– بالمناسبة ... هل يوجد فى تصوركم من يعمل الآن من أجل السلام على ظهر الأرض ، عن عقيدة وإيمان صادقين ؟

حاول راجى أن يعطى إجابة موازية : المؤمنون بسيادة السلام كثيرون .

– آه ... مهلا .. أنا أحدد فى سؤالى «من يعمل» ولا أقول «من يؤمنون» ، هناك فرق شاسع بين مجرد اعتناق الفكرة ، وبين تطبيقها والعمل بها .

هم راجى أن يفتح فمه ، لكن كبير الحكماء أسرع يقول مستطردا : لا عليك ، ساجيب بدلا منك . فى الواقع الذين يبذلون الجهد فى سبيل نشر العدالة والمساواة والسلام بين الناس موجودون على مر التاريخ بل إن أغلبهم ضحى بروحه .

– لكن عددهم خمسون ، مائة ألف ؟ لنقل ألفا ، وفى المقابل كم يبلغ عدد الذين يعملون من أجل تحطيم القيم الإنسانية وإفناء البشر . للأسف الشديد يصعب الإحصاء ، لأنهم يبلغون ملايين الملايين . إن كل واحد منا يا سادة سواء بفعله أو بسلبيته وتوقعه وقصور إدراكه ، متهم مدان . استدار كبير الحكماء فى حركة حادة يواجهنا وقد أحمد وجهه وارتعش فكاه :

– بالله خبرونى ، كم من العلماء عاكف – فى هذه اللحظة – ليبتكر المزيد من الوسائل الشيطانية التى تبيد الإنسان ؟ كم من الحكومات تصدر الأوامر إلى علمائها ليقوموا بابتكار وصنع السلاح ثم تخزينه ؟ وكم من الجيوش تقوم بالعدوان على بلدان آمنة كل عام بل كل شهر وكل يوم وكل ساعة ؟ وكم من الطائرات تلقى – بينما نتكلم – بأطنان المواد المتفجرة والناسفة ؟ وكم من الأحياء يموتون وكم من الدور والمبانى يدمر ؟ بل كم من عبارات التهديد والوعيد تلقى جزافًا كل لحظة وكل ثانية . بينما يتم ذلك كله وفى إصرار أحمق ، من خلال بيانات مزورة وحجج مفتعلة ، وأسانيد ملفقة مغرضة ؟ وكما نراه يحدث تبريرا لأغلب الاكتساحات العدوانية على أراضى الغير ، وكأن العقول على اتساع رقعة الأرض قد نضب معينها من أفكار السلام ، ولم تعد تحوى سوى أفكار الشر والعدوان .

قال راجى صاغرا : إن كافة ما تذكر صادق وصحيح .

بان الفوز فى نظرات كبير الحكماء همس بتؤده :

– فى عصرنا الذى نعيش ، الضغوط المحلية والعالمية ، مريعة ، متشعبة ، لا حدود لسطوتها وسلطانها ، مثلها مثل السرطان الخبيث حين يفتك بالخلايا الحية ، مثلاً – فلا مهرب لأى رئيس دولة حتى ولو كان رجل سلام مليون فى المائة من الخضوع لعوامل تخرج عن إرادته ، الحزب ، المخابرات ، أجهزة الأمن ، المستشارون ، الوزراء ، الجيش ، الشركات والمؤسسات ، الأحلاف والمعاهدات ، مواقف الدول الصديقة والعدوّة واللامبالاة . لكل هذه الاعتبارات ووسطها ، تضيع الحقيقة ويتبخر السلام .

اعترضت محتداً: ما تقوله فيه إجحاف بجهود وتضحيات الكثير من الوطنيين .

– ليكن ، فقوى الشر فى النهاية تفوق قوى الخير أضعافًا مضاعفة .

سألته : ودول الحياد ، ماذا عنها ؟

قال : دول الحياد وعدم الانحياز جهودها واضحة كل الوضوح ، لكن قواها محدودة غير مؤثرة ، وإلا فهل كفت المؤمرات ؟ .. وهل تراجع إنتاج المزيد من السلاح الاستراتيجي والتقليدى وتخزين الأطنان وراء الأطنان منه ؟ وهل توقف إقامة المزيد من القواعد العسكرية وتهيئة المزيد من وسائل التجسس ؟ طبعًا ، لا جواب غير النفى ، ومع كل فدول الحياد الجديد هى الصوت الوحيد الموجع اليوم .

دمدمت فى لهجة مكتئبة : إن آخر إحصائيات الأمم المتحدة والتى أذاعتها منظمة اليونسكو منذ عام تقدر المخزون النووى حاليا بما يعادل مائتى مليار طن من مادة «الترى نيترتولدين» المعروفة بمادة (ت . ن . ت) شديدة الانفجار أو ما يوازى ٤٥ طنًا من هذه المادة لكل فرد من سكان كوكب الأرض .

ولم يعقب كبير الحكماء على كلامى وساد صمت ملئه التشاؤم والغل ، لكن جاءنا صوت الحكيم الثالث يعلن أن الساعة قد قاربت منتصف الليل . وهنا آثر كبير الحكماء أن نتناول وجبة أعدت سريعة من لحم الحوت المطهوة فى نفس زيته والمنتقاه

شرائحها من أماكن مختارة بالذيل وتحت زعنفتى الجنب . وبينما نلتهم طعامنا راح الحكماء وكبيرهم يغرقوننا فى فيض من أقاصيصهم الشيقة عن الحيتان متجنبين الخوض ثانية فى أمور عداها .

وقد وعدنا كبير الحكماء برؤية جبانة الحيتان حيث تتوافد عند إصابتها بالشيخوخة كما تفعل الأفيال لترقد رقدتها الأبدية بغار ضخم يتعمق فى باطن الجزيرة ويفتح أسفل المياه .

حين فرغنا من طعامنا كان إحساسى وقتئذ بالتعاطف مع هؤلاء الذين جمعهم مبدأ يؤمنون به ويلتفون حوله حتى الموت .

وبينما أن أتقدم الخارجين من فتحة الباب تم حدوث الوقائع التالية فى سرعة وتلاحق مذهلين ، بالخارج وعلى مقربة من الباب كانت فتاتان ترتديان الزى الزيتونى تعبران الممر وهما تتحدثان خلفهما بمسافة كان يسير فى نفس الاتجاه فتى يحمل صندوقًا ، لسبب ما انكسرت قاعدة الصندوق أو انفتحت ، سقطت منه مجموعة كرات حديدية صغيرة فى حجم حبات البلى .

جرت الكرات فى اتجاه قدمى الفتاتين ، تعثرت أولاهما ، ثم سقطت وهى تلف حول نفسها ، تمايلت الثانية بعنف ، حاولت أن تحتفظ بتوازنها دون جدوى . اندفعت لحظة بروزى من الباب إلى الممر فاصدمت بى لننقذف سويًا فى اتجاه الجدار المقابل نرتطم به ثم نسقط معًا سقطة قاسية .

خلال ثوان كان كل ما حولى مجمداً مشلولاً ، تحركت حدقتاى فى ضياع ، لمحت نفسى أفترش الأرض والفتاة ساكنة بين ذارعى .. وشعرها الأصفر فى لون سنابل القمح يطوق معصم يدى اليمنى ، وهب عبيرها غامضًا ، فنقلت عينى إلى وجهها على قرب الأنفاس بدا رائعا مغريًا ، ومع فتح رموشها وجدتنى كذلك أطل على صفاء البحر مباشرة .

* غرد صوت بالفرنسية: ماذا جرى ، كيف سقطت ؟

همست معتذراً : لقد اندفعت أنت ، فأجبرتني على السقوط معك .

جاهدت حتى فردت صدرها فدفع نهداها قماش السترة أمامًا ، أمالت خدها نحوى :

- آسفة ، لكن كيف تم ذلك ؟

وجلست وهى تخفى ما تعرى من وسطها فى خفر . فى حين أشرت ببصرى تجاه الكرات المتدحرجة ، تتبعت عينى ، فهمت ، دون توقع حاولت أن تكبت ضحكات جذلة أفلتت برغمها بينما تهرب ببصرها بعيداً عنى ، ضحكت أيضًا . جذبنى يوسف فى هذه الآونة لأقف ، فى الوقت الذى خرج فيه كبير الحكماء وزميلاه على الضوضاء التى أحدثناها وقاموا بإسناد الفتاتين لتقفا بدورهما .

أخيراً غادرنا المنطقة كلها مستقلين قطار الرصاصة الحية فى طريق عودتنا . طوال جلوسى بالقطار كان وجه الفتاة بشعرها الأصفر المتطاير يطل على ولا يفارقنى ، ورحت أسأل نفسى ونظراتها الخجلة ترمقنى خلسة ، أهى عالمة !! ترى فى ماذا ؟ ما قصتها ، وما اسمها ؟ لابد وأن يكون اسمها موسيقيًا مثل قسماتها .

واستيقظ بداخلى نوع من الأحاسيس لم أكن ألتفت إليه بالمرة .

* * *

القسم الثالث

مع الإنسان لا ضده

الفصل الأول

« الأربعاء ٢٣ يونيو ٢٠٩٩ ... »

– أسف يا سيد راجى إذ أبلغك أن الكشف الطبى عليك أثبت وجود حالة مرضية ببدنك .

– أهى خطيرة ؟

– إطلاقا .. لكنها تحتاج إجراء فوريا ، خاصة إذا تعذر العلاج فى مكان آخر بمثل الحسم الذى لدينا .

كنت قد استيقظت واغتسلت ثم لبست ردائى .

وبينما أعبر الردهة أمام حجرة راجى تناهى إلى الحديث القصير الذى دار بينه وأحد الأشخاص .

فاستدرت مستنكراً ..

قبالة زميلى الهندى طوى بصرى الرجلين المنتصبين كل على جانب فعرفت فيهما الطبيب الذى استخدم جهاز الفاحص الإلكترونى للكشف عن ثلاثتنا طبيا . وكان الآخر المرافق ٢٩٠

تقدمت أسأل الطبيب :

– أرجوك مم يشكو زميلنا ؟

– الكشف الذى أجريناه أثبت وجود أربع حصوات من ملح الإكسيلات تستقر بكلية السيد راجى اليمنى .

ومن ورائى أيضاً تعالى صفير ، ثم جاءنا صوت يوسف :

– يالحظه . إنه النوع الوحيد من الحصى الذى يستعصى إخراجه إلا بالجراحة ، على أن الطبيب رقم ١٩٩ أكد لنا فى ثقة :

– لن نجرى له جراحة .

تمتم راجى فى قلق : إذن فهى إجراءات وقتية حتى أغادركم . وركز بصره على وجه الطبيب .

مسكنات مثلا ؟

– كلا يا سيد راجى ، بل سنخلصك من الحصوات نهائيا . سوف تدخل خلال ساعة " مستشفى الشرفة الصخرية ، المقامة أعلى بروز صخرى على الجانب الآخر من قاعدة الجزيرة . وأما مدة بقائك بالمستشفى حتى يتم تخلصك من الحصوات بكليتك فلن يزيد عن أيام ثلاثة تمضيها تحت سيطرة نوع جديد من المخدرات لا يعرف بخارج مدينتنا القابعة على قاع البحر .

وعندئذ عرفنا أن علماء مدينة القاع قد توصلوا لإيجاد وسيلة لتفتيت الحصى بتركيز أشعة الليزر عليها .. ويختلف كم ومدة تركيز الأشعة من فرد لآخر . وتجرى عمليات التفتيت بعد تناول نوع جديد من المخدر ينقل المتناول له إلى حالة تشبه البيات الشتوى لدى الحيوان ، حيث تبطئ دورة الدم ، وتقل ضربات القلب ، ويعم الكمون والسكون كافة خلايا وأجهزة الجسم .

وبالتجربة اكتشفت كذلك خواص مدهشة للمخدر ضد مضاعفات الرقاد الطويل مثل تجلط الدم والتهاب الرئة وتيبس العضلات وغيرها ؛ لذا فقد أسموه "المخدر الآمن" .

ولما أبدينا دهشتنا الصادقة لما توصلوا إليه من كشوفات طبية ، وانهالت أسئلتنا تطلب المزيد من المعلومات ، اتضح البشر على قسمات الطبيب رقم ١٩٩ ، وقال وهو يومئ برأسه آخذاً اتجاهه نحو الباب .

– سأخصص لكم وقت المساء ، لأصحبكم فى جولة نستعرض فيها إنجازاتنا فى مجال الطب طيلة عشرين عاما .

على هذه الصورة كان افتراق راجى عنا مؤقتا . فنزولا على توجيه الطبيب بعد إن التقط غيارا داخليا طواه تحت إبطه . ودعنا بنظراته الشجاعة ليأخذ طريقه فى صحبة ٢٩٠ إلى المستشفى .

على أن الشىء الذى استرعى انتباهى وزميلى يوسف المتبقى معى أثناء تناولنا الإفطار دون شهية ، رغم تنوع أصنافه من بيض بعض الأسماك العملاقة مقليا وبسكويت دقيق الفطريات ، بالإضافة إلى كوب ساخنة من مغلى عشب بحرى يقارب فى مذاقه طعم الشاى وشابته بعض الزرقه. أقول أن الشىء الذى أثار انتباهنا وعجبنا تلك الثقة التى بدأنا نحسها فى تصرفات هؤلاء العلماء الذين وفدنا عالمهم الجديد كل الجدة ، صحبنى يوسف إلى حجرتى وقد أزف الموعد الذى ضربة لنا رقم ٢٩٠ لنبدأ سوياً رحلة تفقد أجزاء مدينة القاع .

لم يطل انتظارنا فسرعان ما بلغت آذاننا طرقات رقيقة . وأطل رأس صغير من فرجة الباب . وتدلت جدائل صفر ومن خلفها برزت جدائل أخرى تميل إلى الاحمرار . لقد كانتا الفتاتين اللتين سبق اصطدامى بذات الشعر الأصفر منهما . وقفت الفتاتان لدى باب الحجرة صامتتان برهة . تقدمت أولاهما وهى تزيح شعرات صُفر من على جبينها بينما تتحاشى نظراتى وقد اعترت بشرتها حمرة زائدة ربما من أثر حادثة الأمس التى ما تزال تحتل ذهنها .

قالت فى صوت رخيم : إننى رقم ٢٠٥ . (وأشارت إلى زميلنا) وهذه رقم ٢١٤ . أما الزميل رقم ٢٩٠ فقد كلف بمهمة فى مكان آخر ؛ لذا فهو يعتذر عن القدوم ، وقد جئنا نحن بدلاً منه .. أيها السيدان . نحن فى خدمتكما .

وحتى أزيل الحرج البادئ على العالمة الشابة رقم ٢٠٥ ، بادرت بمد يدى إليها أرحب بمقدمها فى بشاشة وود .

وهكذا خلال تصافح أربعتنا وتبادلنا كلمات المجاملة ثم تآلفنا بصورة مرضية ، ومن ثم استقلينا المصعد المكشوف الجوانب يهبط بنا إلى محطة المركبات الكهربائية وبها مركبة تنتظرنا بأسفل العمارة .

ولم نتبادل والفتاتان من الحديث خلال سير المركبة التى ركبناها جميعا إلا قدراً يسيراً دار أغلبه حول نوعية المواصلات التى نستقلها بالفعل .. والتى تعمل آليا بلا سائقين . وعلمنا أن كل محطة قد زودت بلوحة أزرار يسهل تشغيلها لاستدعاء المركبات وتوجهها عبر مساراتها قبل ركوبها . وأصلتنا المركبة إلى المحطة البحرية (مرفأ المرجان) ، لنفاجأ برؤية غواصتين نوويتين من طراز الغواصة النووية التى أقلتنا لدى أول قدومنا ، وقد وقفتا داخل نفق المحطة قبالة الرصيف المرجانى الواحدة وراء الأخرى .

على أننا فوجئنا بظهور كره سوداء يسبقها عمود نور رفيع تظهر من أول النفق . دنت ببطء ، حتى توقفت وأطفأت كشافاتها ، ليتضح قوامها من مادة شفافة . وبدت الكرة كاملة الاستدارة بقطر ثلاثة أمتار ، ويلتحم بالكرة من أمام ومن خلف نتوءان يختفى أسفلهما كأنهما حربتان أو منخاران ذا سنان مدببان ، وكان النتوء الخلفى منهما يضم كذلك ما يشبه دفة الطائرة لدى ذيلها .

وقالت رقم ٢١٤ ، ذات الشعر الأحمر بصوت أرفع من صوت صاحبتها ، بينما تنفتح طاقة فى جانب الكرة :

– إنها غواصة جيب ، وهى التى ستطوف بنا رحلتنا الوشيكة .

حيّانا قائد الغواصة بإيماءه من رأسه ، بداخل القوام الشفاف جلست ويوسف وجلست الفتاتان قبالتنا ، أما قائد الغواصة فكان مجلسه يعلو إلى الخلف منا .

حين انفلتت الغواصة الكروية من البناية ذات الطابق الواحد والتى تعتبر بمثابة بوابة الخروج فى موقعها المتوسط بين الأنفاق ، فإن المنظر الذى قابلنا اتضح متبايناً عما شاهدناه عند قدومنا منذ يومين مضيا . وذلك بحساب أرضى رغم أن الإحساس بالزمن تحت قاع البحر وداخل دورة المحكمة يكاد يتلاشى كلية .

فقد بدت على يميننا الكثير من الدور والمنشآت والأسوار الخفيضة بخطوطها الفسفورية وهى إضاءة مصنعة بوسيلة غير الكهرباء تنير جوانبها لتبدو وكأنها تصارع ظلمة المياه الأبدية .

ويتصل فيما بين الدور والمنشآت ما يشبه الانابيب الدودية . متفرعة ومتقاطعة ، وممتدة مثل شلة الصوف أنفرط عقد خيوطها فتعذر معرفة أولها من آخرها .

وفيما يقابل الأنابيب الدودية تتناثر على أبعاد متجاورة أو قصية حظائر مختلفة الأحجام . بينما ترامت فيما حول الإنشاءات يمينا ويسارا مجرات وأحواض الزراعات بحيث تتوب نهاياتها فى الظلمة السائدة لدى الأقاص البعيدة .

ولمحت النباتات تختلف فى أشكالها وأحجامها وإن اشتركت جميعها فى حركتها الموجية الدائبة .

وحين حدقت متعمقا فيما وراء الزراعات اتضحت لى معالم السور العظيم المحيط بمدينة القاع .

وبانت فى منتصفه تلك البوابة العملاقة وهى مغلقة الآن تماماً .

فلما توغلت غواصة الجيب بامتداد جدار السور زاد وضوح الفتحات المستديرة فى بنائه ، تبرز من أعلاها المرتفعات الشبيهة بالمداخن التى تخرج منها بدورها نافورات الفقاعات ذات الوميض .

سألت مرافقتنا رقم ٢٠٥ : إذا كانت النافورات تولد مجالات الجدار الموجى الحامى لمدينتكم من تسلل الأصوات عنها ، فما الذى يحمى مدينتكم من الأقمار الصناعية ، وأعين الطائرات والسفن الحربية ، بل والأهم الغواصات التى تجوب كل شبر فى بحار ومحيطات الدنيا .

تفحصت ٢٠٥ أنحاء وجهى وقد اكتسى قوامها بطابع من الجمود خفف حدة الأنوثة الصارخة فى أنحائه :

قالت : أن مدينتنا تحميها من أعلى – وهذا أمر حيوى بالدرجة القصوى – لدى المنتصف شبكة مهولة من صفائح الصلب السميكة تتركز على جسم الجزيرة الصخرى من اتجاه ، وعلى عواميد حديدية عملاقة مثبتة فى القاع من الاتجاه الآخر المضاد ، وهى غير مرئية لبعدها وسط المياه المعتمة .

رفع يوسف رأسه يتفرس فيما يعلوه :

- بالفعل لا أرى ولو ظلالا لهذه الشبكة !

بينما ألححت فى سؤالى عن عمل الشبكة بالتحديد ؟

أجابت ٢٠٥ ، ورموشها تتدل فى اتجاهى : أولا فالشبكة تحدث مجالا أيونيا ممغنطا يؤدى إلى انحراف مسارات الضوء إلى أعلى فتزداد عتامة القاع فى أسفل فتتعذر الرؤية على أقوى العدسات لأبعد من عشرة أمتار تحت سطح البحر . وهنا توقفت ٢٠٥ ، قليلا فقد تأرجحت غواصة الجيب لعبورها أحدى الدوامات ثم أكملت :

- أما المهمة الثانية لشبكة الصفائح الصلب فهى حماية مدينتنا من تساقط السفن الغارقة وما أشبه . كما أنها وسيلة فعالة لاطلاق نوع من الموج الردارى المطور من تحت الماء للإنذار . متى تخطى أى جسم مجالنا ومقداره مائة ميل بحرى تحيطنا فى دائرة كاملة . وتوقفت الغواصة قبالة لوحة مربعة - يفسر معالمها نور أخضر - برزت على غير انتظار .

ومن العالمتين عرفنا أن اللوحة واحدة من خرائط القاع المرشدة . وبدأ التقسيم على الخريطة يوضح أن مدينة القاع تتكون من سبعة قطاعات رئيسية . أولها قطاع الإدارة ومقره العمارة المركزية حيث يستقر الجهاز السياسى وعلى رأسة الحكماء . وإلى اليسار من قطاع الإدارة يمتد قطاع البحث العلمى ، وهو ثانى القطاعات ، ثم قطاع علوم البحار وبحوث التغذية ، وهو الثالث . أمام الطرف الأيمن فيضم القطاع الرابع للخدمات فالخامس ومجاله حظائر الحيوانات ، وهذه القطاعات الخمس تتجاور لدى جانب قاعدة الجزيرة الصخرى الذى نواجه فى حين يحتوى الجانب الآخر المقابل من قاعدة الجزيرة سادس القطاعات ، وهو الطبى ، ويختص بمهمام الأطباء ومنجزاتهم . وأما عن سابع القطاعات وآخرها ، فهو الذى سبقت لنا مشاهدته ، وأعنى به قطاع التعدين النائى عن المدينة القاعية بـ ٤٥ كيلو مترا .

واستطردت ٢١٤ والغواصة آخذة فى التحرك من جديد : وكما تريان . فهناك نقطة لامعة من الضوء الأحمر فى مكان ما على الخريطة . إن كل قطاع زود بخريطة مماثلة . وكل نقطة حمراء بالخريطة تبين موقع القطاع التابعة له بالخريطة بالنسبة لبقية القطاعات .

صاح يوسف : أننا بداخل قطاع الخدمات .

وقالت ٢٠٥ : بل ونوشك الدخول إلى محطة الإعذاب المائى ، وهى أولى مرافق قطاع الخدمات .

سألت مندهشا أهناك هدف معين لرحيلنا بالغواصة خارجيا بدلا من انطلاقنا عبر الأنفاق ؟

ابتسمت ٢٠٥ فى إعجاب : ملاحظة واعية .. فى الحقيقة فإن النفق الرئيسى الموصل بين القطاع الأول والقطاع الرابع قد أصابه انهيار مفاجىء منذ أكثر من شهر نتج عنه تدمير جزء منه .

وهنا ارتسم الفضول الشديد على وجه يوسف : هه . كارثة ، وما الذى فعلتموه ؟

ازدادت الابتسامة على شفتى رقم ٢٠٥ : لقد أغلقناه فى الحال .

وتوقفت الغواصة الكروية .. وغادرناها .

وفى صمت انطلقنا يوسف وأنا نوسع الخطى خلف الفتاتين الرشيقتين .

* * *

شاهدنا محطة إعذاب الماء الحلزونية التصميم وهى تمتص مياه البحر المالحة وتحللها خلال دورات متباينة إلى مياه عذبة صالحة للشرب ولاستخدام الإنسان . وشاهدنا بعدها محطة الخياشيم الصناعية كما يسمونها، وتقوم باستخلاص الأكسجين الضرورى لتنفس الإنسان من المياه المالحة مباشرة . ثم محطة البث الإشعاعى والتى تمتد مدينة القاع بمسارات توهج الشمس الصناعية تعويضا عن ضوء الشمس الطبيعى الذى قدر لساكنى القاع أن يحرموا منه مددا طويلة تكفى للإضرار بهم .

بعدئذ قمنا بفحص المركز أو المقر الهندسى للتشييد والبناء ويشرف عليه نخبة من أقدر علماء مدينة القاع . وقد وجدناهم يختطون لهم شعارا فحواه (التصغير والتركيز والفاعلية سمة المستقبل) .

ولعل أبرز ما توصلوا لابتكاره نوع فريد من المادة المخلقة هى مزيج من اللدائن والزجاجيات لها قدرة مذهلة على مقاومة الماء بينما هى شديدة الصلابة وفى الوقت نفسه طيعة التشكيل . ومن هذه المادة التى أطلقوا عليها (مادة الغد) كانت تشيد ٨٥٪ من منشآت مدينة القاع .

كذلك فقد توصلوا لنوع مبتكر من الغراء ذى قوة التصاق عالية ولا تتأثر بالماء إطلاقًا . استعملوه فى البرشمة ووسائل اللحام والضم . واستخدموا أيضًا مسحوقًا ناصع البياض أسموه (الثلج الحديدى) يذاب ثم ترش به أماكن اللحام والشقوق ومصادر الرطوبة . فيجعلها عصية على الماء للأبد .

كما أتيح لنا أن نختبر أنواعا بالغة الصلابة من البلور ومن اللدائن الشفافة بينما هى رفيعة السمك للغاية . أما عن أجهزة التدفئة والتبريد وتنقية الهواء فقد أطلعنا على نماذج منها راقية وبسيطة الاستخدام .

فى نهاية جولتنا عدنا إلى غواصة الجيب وقد زدنا واحدا ، هو عالم مهندس شاب رقمه ٧٥ ، كلف بإرشادنا إلى إحدى المناطق الخلفية ، لنشاهد على الطبيعة خطوات تشييد بناية جديدة .

انسابت الغواصة مرة أخرى عبر المياه. شقت الغواصة واديا ضيقًا أو ممرًا مختنقًا بين صخرتين كستهما مستعمرات فطرية بدت بنفسجية رجراجة القوام . غير أن الوادى سرعان ما انفتح على أكثر المناظر إثارة للمشاعر ، ففى وسط رحبة من الأرض انضحت ثلاث نافورات من الفقاقيع الغازية ، لها ألوان برتقالية وحمراء وقرمزية تتألق متوهجة وهى تندفع من باطن الأرض إلى حيث تتجه آخذة طريقها السطح .

سبّحت فى خشوع : يا للروعة الإلهية .

أما يوسف فراح يردد مأخوذا : فقاعات غاز طبيعى هى خليط من غازات أساسها الميثان تفور وتنبعث من باطن الأرض .. لقد شاهدت مثلها على سطح اليابسة ، لكنها هنا بالقاع أكثر روعة بمراحل .

على أن العالمة الشابة ٢١٤ ، قالت موضحة : أن مقاومة الماء على هذا العمق الكبير يزيد الفقاعات الحارة المكافحة بريقا وبهاء .

لكن الغواصة استدارت يمينا ، لتأخذ طريق الابتعاد . بينما ظللت مقيداً إلى المنظر الفريد تحت طيات ١١٠ أمتار من أطنان الماء المالح .

عندئذ هتف المهندس رقم ٧٠ : ها قد وصلنا منطقة الإنشاء .

ووجدنا مفاجأة ضخمة ثانية تنتظرنا فى تحد ، مجموعة من أفراد العلماء منهمكين فى عملهم بأردية غريبة للغطس ، غير أن ٢٠٥ قالت ببساطة :

– أن جميع الذين يتحركون أمامنا مصنعون ، هم من فصيلة الآليات المقلدة للإنسان ، وليسوا بشرا .

سأل يوسف : ومن يتحكم فى تصرفاتهم ؟

أجابت ٢٠٥ : أنظر يا سيد يوسف . يسارا .

وعثرنا بالفعل على غواصة تماثل غواصتنا تقبع يسارا . ولمحنا الرجلين ينزويان تحت قبتها المستديرة وقد انكبا على لوحة فى مواجهتهما .

ثم استوعبنا المشهد برمته .

فى حضن جرف ذى حافة عالية برزت من الجسم القاعدى الصخرى للجزيرة استقرت خلية النحل تعمل فى همة وإصرار مثيرين . كان هناك فى الجانب الأيمن من المشهد ما لا يقل عن ستة من الآليين يتحركون فى بطء بطريقة متشابهة منتظمة لدى منطقة تراكم ألواح الجدران . ثم ثمة سيارة بلا سائق تحمل الألواح الجاهزة .

يسارا تزدحم المنطقة بأعداد أكثر من الآليين ، رافعة بلا قائد ، تبادر بتوصيل الألواح إلى أعلى بناية حديثة كملت جدرانها على شكل نصف بيضة هائلة وبقى السطح أو بعضه .

وفى قمة البناية اتضح عدداً إضافياً من الآليين يصعب حصره يؤدون مهام تبدو أكثر صعوبة ، وأكثر دقة .

استعطفه يوسف :

- بالله عجل بشرح تفاصيل اللوحة الرائعة التى أسكرتنا .

كتم ضحكة . اعتدل . اشار بأصبعه يمينًا بينما العالمتان الشابتان قد انهمكتا فى حديث طويل هامس :

- لنبدأ من البداية . من هنا . هؤلاء الآليون يتولون كما تريان إنزال ألواح الجدران المصنعة من (مادة الغد) .

وهذه تنقلها حمالة آلية إلى الناحية المقابلة ، فيتلقى الألواح جماعة أخرى من الآليين ينقلونها بدورهم إلى الرافعة ، التى ترفعها إلى السطح حيث تنجز آخر العمليات وأدقها بمعرفة نموذج أرقى من الآليين . ويتم ذلك بتوجيه العالمين المهندسين الموجودين بغواصة الجيب ، فهما يسيطران بواسطة اللاسلكى على الآليين ، والحمالة ، والرافعة .

لكن يوسف صاح فى غضب :

- أن كل ما تذكر نخمنه ، لكن تصرفات الآليين بأعلى البناية هى الغامضة . فما الذى يؤديه هؤلاء بمثل الاستغراق الذى يفوق استغراق البشر المتمتعين بحرية التفكير والتصرف ؟

لم تبد بادرة ضيق على وجه المهندس رقم ٧٠ ، قال : تقصد فئة الآليين الممتازين . المايسترو . أنهم يؤدون أدق مراحل البناء وهى لحام الألواح ببعضها البعض بذلك الغراء السحرى الذى سبقت معرفتكم به ورؤيتكم لنماذج منه ، لتكوين السطح البيضى الأملس .

قلت : نسيت أن أسألك عن الفارق فى استخدام الغراء كسائل منه كعجين .

قال : السائل يستخدم للأجواء العادية. وأما العجين فلا يستخدم إلا تحت الماء ، وأن الآليين المايسترو لمنهمكون الآن فى لصق ألواح الجدران بتلك العجينة المعجزة .

وطرحت سؤالا آخر : وماهى أهم أسس البناء تحت سطح البحر ؟

– معمارى الأعماق يراعى مبدأين رئيسيين لا غنى عنهما لأى بناء سفلى قاعى .. أولهما : ألا يخرج التصميم عن أحد الأشكال التالية (الدائرى – البيضاوى – القمعى – الحلزونى – الموجى – الطبقى) .. وثانيهما : ضرورة تقسيم المبانى إلى أجنحة منفصلة يمكن عزلها فورا متى تهدد أحدها انهيار مائى .

صمت برهة ولما اطمأن لإنصاتنا تابع :

– بعدئذ فإن البناء القاعى لابد وأن يمر بمراحل إقامة الجدران وربطها لتتماسك وسط المياه المفتوحة دون ساتر ، يليها قفل المنافذ وإحكامها ، ثم تدعم الجدران بألواح تثبت من الخارج . بعدئذ ، تأتى دور أجهزة الاختبار الإلكترونية فى فحص متانة البناء ككل ، ومدى تحملة الضغوط الخارجية لحد أمان معين ، وكذا الكشف مبكرا عن عدم وجود ثقوب أو شروخ أو ما أشبه تسمح بتسرب المياه . وحينئذ تضاف للبناية حجرات معادلة الضغط ، وتوصل بها فتحات الأنفاق الباطنية . وفى النهاية يجئ الأمر بسحب المياه من البناية برمتها – التى تكون ما تزال غارقة فى اللجة – عبر حجرات معادلة الضغط . ولا يتبقى بعدئذ غير التشطيبات الأخيرة .

توقف العالم المهندس عن الكلام برهة . فى هذه الحظه رفعت عينى عرضا تجاه الفتاتين فيما ورائه ، ولعجبى التقى بصرى ببصر رقم ٢٠٥ ، التى كانت ترمقنى بنظرات عميقة شاردة ؟

تمتمت ٢١٤ : لم تتكر لهما ماهى التشطيبات الأخيرة ؟

– آه ، إطلاق الهواء الجوى ، وتركيب أجهزة التدفئة والتبريد ، وتوصيل مسارات الأشعة . وأجراء عمليات الطلاء ، إلى آخر هذه الأشياء التى تنتهى بوضع قطع الأثاث على أنه تجدر الإشارة إلى خلو مدينتنا القاعية من نظام المجارى .

بينما تساءل يوسف : فكيف تتصرفون فى الفضلات ؟

بسط العالم المهندس كفه يقرر حقيقة واقعة :

– امرها يسير . أن آلات المرحاض تعزل السوائل وتطهرها . فى حين يتم سحق المادة الصلبة المتبقية وخلطها على هيئة سماد مجروش أو مسحوق يعبأ آليا فى أكياس خلال ثوان من التشغيل .

سألت : ومخلفات المعامل والمصانع ؟

أجاب : قلت لكما أن المخلفات لا تكوّن لدينا أى مشكلة . إنها تحوّل أولا بأول إلى أسمدة نافعة . وأما الضار منها فيكيس ويضغط مهما كانت صلابته إلى واحد على ألف من حجمه الأصلى . وهنا يسهل التخلص منه بعد تعقيمه وإبطال فعاليته ، فلا يثار موضوع التلوث من أساسه ..!

* * *

وتحركت الغواصة الكروية فى هذه الأثناء ، ارتفعت حتى اعتلت البناية بعمالها الآليين . ثم رسمت نصف دائرة متسعة انطلقت بعدها لتبتعد عن خلية النحل فى اتجاه عكسى .

ومن بعيد عادت الزراعات للظهور .

قالت العاملة رقم ٢١٤ : أن مروج البحر وحدائقه وحقوله . بل وصحاريه . تمتد وتترامى إلى ما لا نهاية وهى غنية بثرواتها النباتية ، ولو شئنا لأمكننا فلاحة قاع البحر بما يزيد عن ألف ضعف ما يماثلها على سطح اليابسة .

رويداً رويداً أخذ المنظر يزخر بأشكال النباتات القائمة ، والتى يغلب عليها الأحمر بتدرج ألوانه الصارخة .

وعاد صوت ٢٠٥ إلى الرنين وتشبث وجهها فى اتجاهه نحوى :

– النباتات المزروعة هنا ، نوع قاعى بحت يحتمل ضغوط الماء فى أسفل ، ويستقر كما ترون فى أحواض معراة مكشوفة حيث يزرع فى طمى القاع مباشرة . وهو يشمل ٣٥٪ فقط من جملة ما تزرع .

سألت وأنا أحاول من طرف خفى قراءة وجه ٢٠٥ :

– والثانى ؟

قالت وقد جمدت شفتاها بينما يعبث إصبعها بياقة ثوبها .

- إنه النـــوع الذى يعجز عن تحمل ضغـــوط الماء العالية . وهـــو ذلك المربى في أحواض بداخل صوبات من لدين البلاستيك البالغ المتانة ، ويمثل ٦٥٪ أى أغلبية ما نزرع .

وراحت عينا يوسف تجولان عبر النباتات المترنحة فى وقار . بلا أدنى صوت ، بسيقانها اللينة وأوراقها البوقيه وأزهارها المقعرة والكمثرية والقمعية والتى على شكل رأس الفرس، بينما ترقد الثمار على طمى القاع أو تتدلى فى كيزان أو عناقيد ..

تمتم يوسف مبهورا: أرى البحر مرعى لا يقل فى خصوبته عن المراعى الأرضية .

وقالت ٢١٤ : على أن الأغلبية للطحالب ، وتوضع فى منزلة تصنيفية أدنى بكثير من النباتات الزهرية وأن كان هذا لا يقلل من قيمة محتواها الغذائى ، وبخاصة اليود والفيتامينات والسكريات والمعادن . فبـدت الريبة فى نبرات يوســف وهو يتساءل : أكل ما نمر به الآن من نباتات الطحالب ؟

أجابت ٢١٤ : تقصد المخلوقات التى تجمع بين النبات والحيوان . أجل يا سيد يوسف . أن ما حولنا هنا طحالب مثبتة وطافية ، وأن كافة ما يشاهد على اختلافه من النوع المثبت ، هو الطحالب الخضراء والزرقاء والبنية والحمراء ، وكذا أنواع الأعشاب الجيرية .

انبريت بدورى : إن لم تخنى معلوماتى فقدرة الطحالب على ملاءمة البيئة تفوق تصور البشر .

فهى تعيش فى درجة الغليان ودرجة ٢٠٠ تحت الصفر، وهى حيوانات خضراء تستخدم طاقة الشمس أو هى نبـاتات تتحـرك وتلتهم فرائسها . إنها كائنات غـريبة لم يكشف الستار عن كثير من أسرارها .

وانسابت الغواصة إلى طريق طويل رصت على جانبيه صوبات البلاستيك مضيئة . متجاورة . ضخمة . لها أبواب وأجهزة لمعادلة ضغوط المياه .

وتحركت رموش ٢١٤ مع مسار الغواصة وانفرج فمها :

- هذه صوبات النباتات التى لا تتحمل ضغوط الماء الكبرى . مثل الإسفنجيات والوتريات والفيتوبلانكتون والغلق والدياتومات والشوكيات ، وأيضًا الطحالب الطافية .

وقالت ٢٠٥ : لاحظا أن الصوبات تعمها مسارات الأشعة لتمد نباتاتها بالإضاءة والدفء تعويضا عن أشعة الشمس الحقيقية التى يستحيل وصولها لهذا العمق كما تعلمان .

وهنا مررنا بواحـد من الآليـين يحمل ما يشبه مصفاة راح يجمع فيها كرات أو مكعبات صغيرة باهتة .

يستخلصها بالنبش لدى جذور نباتات إحدى الصوبات القصيرة السوق . وقد علقت عليها ٢١٤ فقالت : إنها نوع من الدرنات تماثل درنات البطاطس الأرضية وتستخدم استخداماتها .

وفيما وراء الزراعات اتجهنا بانحراف نحو اليسار إلى حيث حظائر الحيوانات .

سألت : لقد دخلنا عالم حيوانات القاع ؟

صححت ٢٠٥ معلوماتى على الفور : الغالبية من حيوانات قاع البحر. لكن هناك بعض حيوانات الطبقات السطحية من البحر ، بل عدد من حيوانات اليابسة .

- حيوانات اليابسة . هنا . على عمق ١١٠ تحت سطح الماء المالح !

- أن قدرة الإنسان لا حدود لها .

أمنت على كلامها : معك حق . فهى قبس من قدرة الإله العليا .

لأول مرة أشاحت وجهها بعيداً عنى ، الصقت أنفها بجسم الغواصة الشفاف .

- حيواناتنا مائية وبرية ، المائية قاعى منها . يربى بداخل الحظائر المفتوحة على مياه البحر ، والسطحى يربى بداخل حظائر البلاستيك المخفض ، ضغط مائها بما يتلاءم وضغوط مناطق سطح البحر .

– والحيوانات البرية ؟

– آه . هذه تحيا فى حظائر مفرغة من الماء كلية ومعادل ضغطها الداخلى بما يماثل وطبيعة المعيشة على ظهر كوكبنا ، وتحت نظام الأشعة الصناعية .

وخلال مرور غواصتنا عبر المياه الرائقة شاهدنا صغار الحيتان ، وأنواعًا من قرش الأعماق وسمك البجع والبلطة والمجداف والسمك الفانوسى ومن الأسماك المصفحة والبالعة .

بعدئذ قابلتنا الحظائر البلاستيكية وهى تضم حيوانات البحر السطحية والشاطئية ، كالاطوميات والفطريات والاستاكوزا والاربيانات ونجمة وخيار وبلحة وبراغيث البحر. وحظائر تسبح فيها قوابع ضخمة وأخرى للسرطانيات والسلاحف . ولعل أكثر المشاهد مفارقة وتناقضا واستدعاء للخواطر ، كان رؤيتنا مجموعة من أكثر من مائة سمكة من أسماك الصول المفلطحة بداخل حظيرة بلاستيكية وهى تراقب مجموعة متناثرة بالخارج من أسماك مربعة الرؤوس سيفيه الذيول أجهل نوعها . تجمدت حول ذات الحظيرة دون أن تفارقها وقد بدت بدورها تتفحص ما تضمه الجدران الشفافة فى فضول ودهشة مستنكرة لغزو الدخلاء المجهولين لعالمها الخاص بها .

كذلك لاحظت وجود الآليين هنا بكثره . اثنان بداخل حظيرة السلاحف يجمعان بيضها . وآخر بحظيرة مقابلة يدرب أو يداعب درفيلا . وثلاثة آليون بحظيرة ثالثة يقومون بترقيم أعداد من أسماك الوقار الضخمة لدى زعنفة الذيل بآلات يحملونها .

أما حظائر الحيوانات البرية فغالبيتها كانت خالية ، فيما عدا قرد شمبانزى انزوى فى ركن حظيرته وقد غطى وجهه بيديه الرفيعة الأصابع واستسلم لهلع طاغ . ربما كان مصدره مساحات المياه اللا نهائية وهى مَحيطة بما تحتويه من عالم عجيب يزخر فى ذات الوقت بالسكون والحركة .

ووجدنا كذلك عددا من الآليين يجمعون العسل الطازج من مناحل مستطيلة فى أوان تشبه أقساط الحليب المصرية علقت برقابهم . وقد تجمع النحل يلمع ذهبيا تحت أضواء الكشافات .

وعلق يوسف : طبعا . الآليون لا يحتاجون وقاء من لسعات النحل !

ألقى يوسف سؤالا مفاجئا : أنتم تستخدمون الآليين بكثرة . فهل معنى ذلك أنكم ترون مستقبل الجنس البشرى فى الاعتماد على الآليين .

وسألت كذلك : وما مدى قدرة تفوق الآليين مستقبلا ؟

همت ٢٠٥ أن تقول شيئًا إلا أن المهندس رقم ٧٠ رفع جبهته من الواجهة الشفافة واستدار إلينا :

- دعينى أتولى الاجابة . بالنسبة لسؤال السيد يوسف أننا نرى أن البشر سوف يعتمدون مستقبلا وإلى حد كبير على (النظير الآلى) أو (المنفذ الآلى) أو (التابع الآلى) كما نطلق نحن عليه وليس (الإنسان الآلى) كما يسمى خطأ . والهدف هنا زيادة رفاهية البشر والحد من تعرضهم للمتاعب والأخطار .

فإن النظراء الآليين أكثر قدرة واستعدادا وقوة لبذل الجهد وتحمل المشاق والعمل فى ظروف مناخية وصحية صعبة . ولمدد طويلة بلا حاجة لنــوم أو غـذاء أو ترفيه . كما أنهم لا يعرفون الملل والشكوى والتذمر ، وبالتالى لا يتمردون .

تمتم يوسف : أن العمل فى أعماق البحار أيسر على الآليين .

قال المهندس رقم ٧٠ : بل هناك كذلك اقتحام مجاهل الفضاء ، واستعمار الكواكب الأخرى ، والعمل فى باطن منجم أو بجوار بركان أو حيث يتراكم جليد القطبين .

وتكلمت ٢٠٥ : وحتى فى الخدمات المنزلية، تنجح هذه الكائنات الوديعة الصامتة.

ولحظة أن فكرت فى نسيان المهندس لسؤالى وجدته ينقل بصره من يوسف ليركزه علىّ :

– وأما السؤال المطروح من السيد شادى . فإننى – فى ضوء خلفية علمية مستفيضة وبينما ألقى نظرة واقعية للتطور المذهل الذى يلحق التكنولوجيا فى كافة أسسها ومفاهيمها – أقول أن النظير الآلى ينتظره مستقبل مرمرق لأقصى الحدود ، لا سيما وأن طموح العلماء لاختراع مشابه آلى يقوم بوظائف الإنسان يتحقق الآن .

– آه ، تتكلم عن الخوف مستقبلا من تفوق قدرات هذا المنافس المصفح ، وحدوث كارثة إفلاته من سيطرة صانعيه .

ولما هززت رأسى بالإيجاب تابع حديثه وهو يمد يده يهزها هنيا : أنه خوف ليس له ما يبرره علميا .

فالآليون سيظلون وإلى الأبد محرومين من وقدة التفكير والتصرف المطلق . ثم أين هى قدرتهم الذاتية على التكاثر . إنها فى يد الإنسان الذى يوجدهم أو يدمرهم حسب هواه أو حاجته .

وتشبثت بسؤال آخر : واحتمالات استخدامهم فى الحرب وفى الجريمة ؟

أخذ نفساً طويلا : وارده ، ومثلهم يكون حينئذ كمثل الآلة النارية فى يد طفل .. أو يد لص أو يد قاتل أثيم ؛ لذا فنحن نلهث حاليا وراء إيجاد وسيلة يدمر بها الآلى نفسه متى تلقى أمراً مغايراً يتعارض ومبادئ الإنسان .

طوحت عنقى فى لفته سريعة بينما المهندس العالم رقم ٧٠ يتكلم . فإذا بنظراتى تتلاقى المرة الثانية مع نظرات رقم ٢٠٥ فاعترى بشرتها الاحمرار وأحسست رغم الجمود البادى عليها بدفقه من الاضطراب تجتاحها ، بينما عَلاَ صوت قائد الغواصة .

– أيها السادة . لقد عدنا أدراجنا إلى حيث بدأنا .

* * *

وخلال ساعة زمنية تالية كنت بلغت ويوسف حجراتنا بالعمارة المركزية ، واغتسلنا وتغدينا ، ثم استلقى كل منا على فراشه يريح بدنه استعدادا لمقابلة الزميل الهندى راجى الذى اشتقنا لرأياه .

الفصل الثانى

« الأربعاء ٢٣ يونيو ٢٠٩٩ ... »

عبر نفق طويل يخترق الباطن الأصم لقاعدة الجزيرة من جانب لها إلى الجانب المقابل انطلقت بنا المركبة وئيدا وقد تركنا العمارة المركزية قاصدين إلى حيث مستشفى الشرفة الصخرية رأسا . بعد ١٢ دقيقة وصلت المركبة نهاية خط سيرها . وفى الحال ارتفعنا إلى الطابق بداخل مصعد عريض ملأته رائحة مميزة تشابه رائحة ثمار الخوخ ، وحين غادرنا المصعد استقبلتنا ساحة عظيمة الاتساع تسبح فى ضوء ساطع ويعمها سكون مطبق ، رغم ما تمتلئ به من أعداد متحركة جيئة وذهابا من المارة . بدا البعض منهم وقد ارتدوا معاطف فضفاضة فى لون زرقة السماء الصافية عرفنا فيهم فئة الأطباء . فى حين ميزنا فئة أصحاب الأردية المكونة من سترة وسروال رمادى اللون من مساعدى الأطباء أو الممرضين تحت التمرين .

فى هدوء تقدمنا رقم ٢٩٠ – الذى صحبنا من المبدأ – لننفذ من باب سميك فيحتوينا ممر مخضر الإضاءة وتقابلنا لافتة تحمل كلمات "قسم أ – حالات خطرة" . ثم انفتح أمامنا منظر آخاذ . فعن يمين الممر وعن يساره تراصت مثمنات متلاصقة تحمل أرقامها فى تسلسل تصاعدى ، وقد بانت لها أعماق لأسفل هى آية فى غرابة التصميم .

كل مثمن – وقد عرفنا أنه حجرة كاملة مجهزة – كان معتما أو خافت الإضاءة يأخذ هيئة البئر مع اختلاف فى الشكل والاتساع . وكان يضم أربعة أسرّة من النوع المعهود المعلق بالسقف . وأما الأسرّة فتصل لمستوى الممر حيث نقف ناظرين إليها يفصلنا عنها نحو مترين أو ثلاثة من الفراغ ، ومعظمها شاغر .

فى رزانة وهدوء رأينا كبير الحكماء يتقدم ، وبرفقته الطبيب رقم ١١٩، وشخص ثالث مثلث الوجه ذو أنف مدبب وعينين ضيقتين يعلوهما حاجبين مرفوعين فى انحناءة للاذنين لم نره قبلا .

تبادلنا التحية مع كبير الحكماء فى حرارة كأننا أصدقاء قدامى . سلمنا كذلك على الطبيب والرفيق الجديد الذى قدمه لنا على أنه رقم ٢٨ وهو طبيب أيضا بل الأقدم بين جماعة العلماء وهو كذلك مدير المستشفى وجراحها الأول ، ثم والأهم فقد كان مصرى الجنسية .

وبدأت الجولة فى أنحاء القلعة الطبية بقاع البحر .

فى كلمات مركزة منتقاه وجمل بترت نهاياتها يحملها صوت فيه بحة ، تكلم الطبيب الأول رقم ٢٨ :

– المستشفى من أقدم أبنية القاع ، يضم أربعة أقسام شيدت مرحليا : قسم الحالات الخطرة ، وآخر للحالات غير الخطرة ، وثالث للتحاليل والفحوص الميكروبية وعلاجات الأشعة ، ثم القسم الرابع للأبحاث المختلفة وهو أكبرها .

وتوقف الطبيب الأول قبالة حجرة مريض نائم ، وتوقفنا بدورنا :

– كما ترون.. الممرض دوره ثانوى، فهو يراقب الأجهزة ، يشترك فى الجراحات ، وربما أيضًا يشارك المريض تنقلاته خلال نقاهته . أما كافة المهام الحيوية فتقوم بأدائها الآلات .. نعم .. الآلات تقيس الحرارة . النبض . التنفس . تعطى الحقن . تختبر كفاءة الغدد ودورة الدم وتنبه الأعصاب وتنعش مناعة الجسد .. أجل كافة الاختبارات الحيوية والنفسية تجريها الآلات ، وبكفاءة عالية . وأما الجراحات وكذا عمليات العلاج بأشعة الليزر والأشعة العادية وغيرها فتساعد فى توجيهها أجهزة المراقبة التليفزيونية التى يتحكم فيها حاسب الكترونى مهول يشرف عليه صفوة من أطبائنا المتخصصين .

وحين ولجنا قسم الحالات غير الخطرة ، أشار الطبيب ١١٩ إلى أولى حجراته وقد أسرعت خطاه وقال :

- وها هو ذا زميلكم الهندى .

تتبعت اتجاه أصبع الطبيب إلى أسفل ، ليطالعنى وجه راجى هذه المرة . كان مغمض العينين يستغرق فى نوم عميق تكسوه براءة الأطفال ، بينما رنت كلمات يوسف يشوبها الانزعاج : لكنى أراه لا يحرك صدره ، لا يتنفس ؟

وجاء صوت كبير الحكماء : هل نسيت يا سيد يوسف أن مفعول المخدر يشبه حالة البيات الشتوى ، ومع كل فهو يتنفس فى بطئ لا تلحظه العين للوهلة الأولى .

لاحقت كبير الحكماء : أهكذا بسرعة يسرى مفعول المخدر ؟

قال الطبيب الأول رقم ٢٨ والمصرى الجنسية : ولم لا ، بل ولقد ناولناه الجرعة الأولى من أشعة الليزر المركزة على حصواته .

بينما أضاف الطبيب رقم ١١٩ : وقد تحددت فترة العلاج بأيام ثلاثة قد تقل . يتخلص زميلكم فى أعقابها من حصوات الأكسيلات كلية .

- أيظل خلالها نائما مخدرا ؟

- نريده أن يبق هكذا .

حينئذ خطا كبير الحكماء خطوة كبيرة ليضمنى ويوسف إليه فى عاطفة وهو يؤكد واثقاً :

- سيظل فى أمان حتى يبرأ من حمله البغيض ، فاطمئنا ، وهيا بنا لتريا المزيد من إنجازاتنا .

أذعنا لكلمات الرجل الوقور . فى النهاية دلف بنا كبير الحكماء وصحبه إلى واحدة من قاعات المناقشة أو الاستراحة التى لا يخلو منها بناء قاعى .

وما أن اتخذ كل منا مجلسه حتى أشار كبير الحكماء إلى الطبيب الأول رقم ٢٨ يدعوه إلى الكلام .

فقطب هذا جبينه وسحب نفسا طويلا ليطلق لكلماته العنان :

- فى البداية فلنتكلم عن الأمراض وهى كثيرة ومتعددة ، منها الباطنى الشائع ، ومنها الوبائى .

وكذا لدينا الأمراض المستعصية وأمراض النفس ، حتى نأتى لأمراض الحضارة أو المسقبل ، ونحن نركز جهودنا حول النوعين الأخيرين .

هز كبير الحكماء رأسه موافق : تماماً أمراض النفس وأمراض الحضارة .

وعلى غير توقع أخرج الطبيب الأول من جيبه ما يشبه مسدسا ذا قبضة عظمية مقوسة وفوهة قمعية فاغرة الطرف ، وتابع : إليكم هذا المسدس من ابتكارنا ، راقبا كيفية استخدامه ، إنه ليس أداة قتل وإنما هو وسيلة شفاء ، وضغط زناده فاندفعت من فوهته مادة هلامية صفراء .

عندئذ صاح : إنه يقذف بهذه المادة إلى أغوار الجروح ، ولما كانت مادة مطهرة ومسكنّة ومغذية للخلايا وعازلة لها من التلوث فإنها تداويها فى ثوان !

صمت الطبيب الأول ، راح يقيس مدى تأثرى وصاحبى يوسف بما قاله وبدا لنا أنه استراح للنتيجة ، فخفض رموشه وتمتم وأصابعه تعبث فى ذقنه برقة :

– هذا هو شأن الأمراض الباطنة بدورها ، فمعالجتها أصبحت لحسن الحظ يسيرة سهلة .

البرد العادى ينتهى أمره بحقنة والدوسنتاريا تختفى بثلاث ، والتهاب الشعب الرئوية يتلاشى بست حقن متى عولج فى مبدئه . وهكذا فإن أرذل الأمراض لا يقوى على الاستمرار لأكثر من ٥٢ ساعة بأى حال . ولا ننسى أن الحقن المشار إليها تحتوى كذلك على عناصر مكتشفة حديثًا لتقوية المناعة إلى جانب مقاومة مسبب المرض ، وبالمناسبة فسوف تصبح الشيخوخة مرضا يعالج بنجاح بحيث يمكن تأخرها من ١٥ إلى ٤٠ عاماً .

اتخذت وضع التحفز فى جلستى وقلت معترضًا : لكن أمراض القلب وهى باطنية .. ليست بالهينة ؟

استدار الطبيب الأول إلىّ : بالطبع هذه لها عناية خاصة . لقد ابتكرنا جهازا صغيرا يوضع فى الجيب ليتنبأ بالأزمات القلبية قبل وقوعها بزمن كاف ، وهناك المزيد من الابتكارات فى الطريق .

إلا إن كبير الحكماء تمتم فى صوت خافت منفعل :

– بقيت الإنفلونزا ، أنه المرض الوحيد الذى أثبت قدرة مذهلة على التأقلم والتلون والتجدد فاقت كل تصور ، ومع ذلك فأطباؤنا يخوضون حرباً رهيبة مع فيروساته المتعددة الأنواع والسلالات .

تساءل يوسف وهو ما يزال واقفاً : وماذا عن السرطان كفانا اللّه شره ؟

وهنا تدخل الطبيب رقم ١١٩ فى الحديث لأول مرة : إليكم جديداً ، فإن أبحاث جماعة من علمائنا تنحو وجهة مبتكرة سوف تحدث انقلاباً جذريا فى مفاهيم الطب ، أو هكذا أرجو ، فهم يبحثون إمكانية تحديد قابلية الشخص للإصابة بكافة أنواع الأمراض ، وليس السرطان وحده ، منذ بلوغه العام الأول من مولده وحتى تصل سنة السادسة عن طريق تحليل وفرز الجينات الوراثية بأنسجته وخلاياه .

وعندئذ يعد للواحد منا سجل واف بما ستسير عليه حياته المستقبلية حيويا .

حين وصل الحديث إلى هذا الحد أحسست أننى يجب على المشاركة فى الكلام ، وبينما أتناول كوبا من عصير مرطب قدم لنا وكان معدا على منضدة قريبة انحنيت أماما وقلت : وهكذا نصل سريعا إلى حيث تتركز جهود الأطباء فى مدينتكم على أمراض النفس ، وكذا تلك التى تسمونها بأمراض الحضارة .

فكيف تتصدرون للبحث فيها ومعالجتها ؟

نسيت أن أقول أن أسارير الطبيب الأول مغرقة فى طابعها الصعيدى المميز ، لكنها وسيمة رغم بروز عظمتى الوجنتين ، ورغم غلبة اللون الأسمر ، وعيناه مشعتان معبرتان مع اتساعهما وبروزهما للخارج ، وقد تلاشى كل ذلك الآن ، فقد غرق وجهه فى جمود مخيف واستقرت فى حدقيته نظرة باردة متحدية .

ودون أن يقر ب الكوب التى وضعت قبالته على المنضدة ركز بصره على وقال :

– أمراض النفس والعقل أمرها هين ، إنما القول كله فى أمراض الحضارة ، أمراض الزمن القادم وغريب علله تلك التى بانت أولى بوادرها فى الاتضاح مع منتصف القرن الواحد والعشرين .

وتوقف برهة تناول خلالها لفافة من صندوق فضى أشعلها ، ثم تابع وهو يلوّح بقبضته ، وكأنه يتحدى عدوا خفيا لا نراه ، وأن أحسسنا بوجوده :

- إذا كنا قد وجدنا علاجات أكيدة للأمراض النفسية والعقلية فى جراحات المخ والأعصاب ، وفى جلسات الكهرباء والأشعة والتنويم المغناطيسى ، أو عن طريق الموسيقى ونفحات الروائح العطرية وأحياناً الروائح الكريهة ، أو بواسطة ذلك العقار الذى توصلنا إلى حقنه فى الشرايين ، لتقويم أعوجاج السلوك البشرى والقضاء على هنّات الفكر الضارة وأسميناه " مفرغ الضغوط النفسية " ....

فأننا ما نزال نقف عاجزين وسنظل لزمن يعلم الله مداه أمام أمراض الحضارة ، فأغلبها غامض مبهم !!

تفرس يوسف فى وجه الطبيب الأول : وما كنه أمراض الحضارة هذه ؟

مط الطبيب شفتيه : وأنى لى أن أعرف ؟ إنها مثل الحساسية ، الأرق المتوالى ، الأعياء ، الشيخوخة المبكرة ، الأفراط فى الجنس دون رغبة فعلية ، ضغط الدم العصبى ، الاكتئاب والتوتر واللامبالاة حتى ساعة الخطر ، وغيرها كثير .. كثير .

اتضح الامتعاض على قسمات كبير الحكماء ، هز كتفيه ، قال بينما كوب العصير قد فرغ بين أصابعه :

- أيا يكون فإن علمائنا ساهرين بحثا عن الحلول .

لكن يوسف سأله : وماذا عن الجراحة بالذات ؟ أقصد عموما ؟

عاد الطبيب الأول إلى الكلام : أننا نجريها بواسطة آلات إلكترونية تعمل بالموجات الأسرع من الصوت .

فلا نلحق تلفا بالأنسجة ونادرا ما يحدث النزف أو الصدمة العصبية ..

- والتخدير يتم دائمًا عن طريق " المخدر الآمن "، وتركيبته ما تزال من أسرار مستشفانا .

سألت بدورى : ونقل الأعضاء الحية من إنسان لإنسان ؟

– أن غالبية الأعضاء الداخلية للبشر نصنّعها آليا الآن ، كما نوشك أن نتغلب على مشكلة طردها بعد زرعها .

– لكن هل تهاجم الآلة مثلما يهاجم النسيج البشرى ؟؟

– آه ، الآلة لا تهاجم بمعنى الكلمة ، وإنما هو عدم انصياع لتنفيذ أوامرها !

وعاد الطبيب يشارك فى الحوار وكان يتابع كل كلمة باهتمام كبير :

– على أننا فى ذات الوقت نجرى أبحاثا مختلفة قد تيسر نقل الأعضاء وتنهى مشاكلها . وذلك بالقيام بنقل أنسجة أطفال مدينة القاع عقب مولدهم إلى بعضهم البعض وحتى يكمل الواحد منهم عامة الأول .

وهى الفترة التى يخلو فيها جسده من أجهزة المناعة المسماة بالأجسام المضادة والتى تتولد مع اكتمال العام الأول بعد الولادة . فإذا دعت الحاجة لنقل أى عضو من طفل لآخر فإن الجسد لا يرفض هذا العضو السابق تعوده على الشفرة الخاصة بخلاياه ، ونسمى هذه العملية برمتها " بأقلمة المناعة " .

وانتهى الاجتماع إلى هذا الحد بعد أن استوعبنا انجازات مدينة القاع المدهشة فى مضمار الطب وأسس العلاج .. وعدنا إلى حجراتنا بالعمارة المركزية .. وكالعادة التهمنا ما قدموه إلينا من عشاء أساسه غرس البحر .

* * *

« الخميس ٢٤ يونيو عام ٢٠٩٩ ... »

فيما يشبه الحلم الثقيل أو الكابوس استيقظت فجأة على دوى مكتوم بدا أنه آت من مكان قصى يقع فوق رأسى مباشرة ، صحبته همهمات متتالية راحت تنأى وتخفت حتى تلاشت .

وما كدت أعتدل جالسا وسط السرير المعلق بحجرة نومى ، وأضغط زر الإضاءة الحانية حتى تعالى الدوى المكتوم للمرة الثانية أكثر قربا وأكثر تسللا إلى أعماقى : ترى ما حقيقة ما يحدث بالخارج ؟

على أن باب حجرتي فتح دون استئذان ، ورأيت الفتاة العاملة رقم ٢٠٥ تندفع مرتدية رويا مقلما فوق قميص نومها وورائها يوسف بمنامته الرمادية وقد اعترى وجهيهما شحوب شديد :

– تعالى ، أهبط بسرعة ، قالها يوسف وأنفاسه تتلاحق .

وتمتمت وأنا أتعثر فى هبوط سلم السرير المعلق : ماذا جرى ؟؟؟

قالت ٢٠٥ فى اقتضاب : مدينتنا تتعرض للهجوم .

بلغت أرضية الحجرة : ممن ؟

أجاب يوسف تائها : لا يعرفون .

فلما هممت بالتوجه إلى درج ملابسى انقضت رقم ٢٠٥ تقبض على ذراعى بأصابع ترتعيش من الغضب أو الخوف ، وجذبتنى فى قوة وعصبية وهى تدمدم ، لا لا ، تعالى كما أنت .

واندفعت ورائهم مهرولين عبر الممرات ، إلى أن دخلنا فى النهاية على جماعة الحكماء .

لم يكن الحكماء الأربعة وحدهم ، وإنما ازدحم معهم جمع خفير يضم قرابة عشرين من الرجال عابسى الوجوه مرهفى الآذان . فبداخل القاعة السابحة فى ضوء مبهر عقد الحكماء ولفيف من الرجال ما يشبه مجلسا للحرب قبالة ثلاث شاشات تليفزيونية عملاقة . فى حين انهمك رجال آخرون على الجانبين يديرون عدداً من الأجهزة الإلكترونية لم أرها من قبل ، وقد قبع الكل من حولى بمناماتهم !

همست بجوارى رقم ٢٠٥ : الشاشات الثلاث تغطى الجوانب الحيوية لموقع جزيرتنا البركانية وتحتها مدينة القاع .

قربت فمى من أذنها بدورى : آلات التصوير ، إذاً مخفاة بمهارة .

اعترضت : ليس كذلك .. فالتقاط الصور وبثها يتم عبر الماء بأجهزة التقاط إشعاعية تعمل فى النور والظلام على السواء .

وسأل يوسف همسا : ألا يتأثر الالتقاط بالجدار الموجى الذى تحمون به مدينتكم؟

حولت فمها نحوه لا مطلقًا .

فى هذه اللحظة أدار كبير الحكماء رأسه إلى الوراء بعد أن سمع همسنا ، ليشير إلينا وهو يفسح مكانين إلى جواره . فلما تقدمنا وجلسنا رفع أصبعه فى مواجهة شاشة التليفزيون اليسرى ثم قبع ساكتا دون أن يتفوه بحرف .

تعلقت أبصارنا بالمشهد، ورأيت السفح الصخرى للجزيرة التى تعلونا لأول مرة ، صلبًا وعرًا كما تصورت ، وقد أخذت تصفعه أمواج شرسة والجو حوله معتما مكفهرا مطيرا ينذر بعاصفة مرعبة ، ثم سرعان ما لمحت أيضا البارجة على بعد ميل منا فى الوقت الذى اقتربت فيه مدمرة أقل حجمًا من وراء منحدر صخرى وقد تلاعبت بها المياه المضطربة .

سألت فى لهفة وأنا أميل بوجهى تجاه كبير الحكماء هذه المرة : هل اكتشفوا مقر المدينة حقًا ؟

وجاءتنى دمدمة أسنانه : سوف يتضح كل شىء .

فى الوقت الذى أفلت الحيكم الثالث الجالس على يسار يوسف صيحة برغمه : ربما اكتشفوا المقر صدفة .!

وعلى الشاشة التليفزيونية أخذت المدمرة فى الاستدارة بمقدمتها فى بطء حذر ، وقد بدا وهي تشق طريقها أنها تواجه رياح قاسية ، أما البارجة فظلت رابضة رغم شدة تلاعب الموج ببدنها .

عندئذ ألقيت سؤالاً عابرا وكأنى أحدث نفسى : خطر جسيم .. بالتأكيد لم تجابهوه قبلا ؟؟

– بل تعرضنا لمثيله مرتين من قبل .

– كيف ؟

قال : الأول عندما انشطرت إحدى السفن الحربية الإيطالية إلى نصفين أثر اصطدامها بجبل ثلجى فلجأ بحارتها إلى جزيرتنا ، ثم جاءت لنجدتهم سفينة حربية سويدية ، ويومها لم يشعر بحارة السفينتين بوجودنا فلم نتدخل من جانبنا ومر الأمر بسلام .

- والثانية ؟

- كانت حين اختارت فرنسا جزيرتنا واحدة من عدة جزر مهجورة لتجرى عليها تجربة تفجير نووى ، حينئذ لم نملك السكوت ، فإن تفجيراً ذريا مهما وهنت قوته فيه قضاء مفجع على مدينتنا القاعية . وقد انفجرت القنبلة فى موعدها ولكن بقدرة قادر فوق جزيرة أخرى قصية بما يكفى أماننا .

فى هذه الأثناء توقفت المدمرة عبر الشاشة وقد تلألأ جسمان على جانبيها فقد أنزلت زورقين يمتلئان بالجند ، وهنا اتضح القلق عميقًا على وجه الحكيم الثانى ، فراحت تكرر :

- لماذا نزول الجند على أرض الجزيرة .. لماذا .. لماذا ؟

وانتهز يوسف الفرصة ليؤكد وجهة نظره : هه .. تحركات مقصودة .

وعادت الحكيم الثانى تهمهم : بالتأكيد أنه غزو مدبر .

انتفض رجل فارع شديد بياض الوجه وينتكش شعره على أذنيه وقفاه ، وتقدم ليقول فى صرامة :

- نهاجمهم إذن ، وفى التو ....

وبدا أن كبير الحكماء لم يسمع ما قيل له . كان الكبير بعيداً متوارياً بكل كيانه ، يجتاز سماوات من الحيرة والتنقيب فى ثنايا فكره وروحه .

وأوّل الرجل ذو الشعر المنكوش صمت كبير الحكماء بالموافقة .

فشرع فى إصدار عدد من الأوامر انهمك بقية الرجال على أثر سماعها فى أداء مجموعة من الأعمال المتتالية المتشابكة والمتعاونة من أجل هدف محدد .... بدءا باستشارة الحاسب الإلكترونى فى سرعة مطلقة .

لكن كبير الحكماء سرعان ما انتزع نفسه من وهدة أفكاره متفضا عنه جموده ، ومطلقًا صوته حاداً متحشرجاً :

– لا – كفوا عن كل هذا .

وأشار إلى شاشة التلفزيون وكرر صياحه :

– انظروا . لدى أقصى اليمين ؟

حملقنا يرغمنا لنتعمق أغوار الصفحة البانوراميـة الملونة . وأجتذب أبصارنا العمود الرفيع القاتم والمنحنى بعض الشيء . لمحناه يتراقص ويتأجج بينما يدور حول نفسه فى سرعة عجيبة ، ولاحظناه يقترب ببطء فقد أخذ حجمه يكبر ويضخم وسمكه يعرض . فى حين انفرشت فوهته على هيئة القمع تطاول السماء الملبدة بالغيوم وكأنها تكنسها . وبانت الرهبة على الوجوه المحملقة وهمس صوت مذعور لم أتبين مصدره : الترنادو . !

ضوت أمامى الكلمة بشدة فتداعت لها كثـير من المعلومات المختزنة فى رأسى إذاً فهذا هو إعصار الترنادو الدوار . هذا هو نافورة الماء الحلزونية المهولة .

وقال كبير الحكماء فى لهجة جادة قاطعة : أنه إعصار الترنادو يقبل من بعيد . وهؤلاء هم جنود المدمرة قد هبطوا شاطئ جزيرتنا . أى جزيرة وأول جزيرة قابلتهم . دققوا البصر جيداً . ترونهم ينصبون ثلاثة من صواريخهم ، فما معنى ذلك كله ؟

وأدار كبير الحكماء بصره فيما حوله بتمعن ليلقى بنفسه إجابة سؤاله :

– معناه أن الأمر لم يكن معداً ومدبراً . وليس غزوا على الإطلاق . وأن الجدار الموجى ما يزال يقوم بعمله على الوجه الأكمل . فهم لم يعلموا بتواجدنا كما قدر البعض منكم . وأنما هم قد أتوا من أجل الإعصار المخيف .

وسأل يوسف : ولم لم تطلق البارجة مدافعها الثقيلة ؟

– القذف من فوق جسم ثابت كجزيرتنا أكثر إحكامًا مما لو تم من على جسم متحرك خلال العاصفة .

وتعالت بيانات الحاسب الإلكترونى عن الإعصار المتجه نحونا . قطره ١,١٠ كيلو مترا . ارتفاعه ٤,١٦ كيلو مترا . قطر قمعه ٦ كيلو مترات . سرعة الرياح حوله ٤٩٠ كيلو متر ساعة . اتجاهه نحو الجنوب الغربى بانحراف درجتين غربا قد تصل إلى ثلاث درجات . بعده الآن ١,٥ كيلو مترا . وومضت الشاشة الوسطى بضوء باهر . وانفلت الصاروخ إلى السماء ثم اعتدل وانقضى إلى حيث منتصف قاعدة الإعصار . وسرعان ما بدت فجوة بين القاعدة والرأس حاملة القمع . ومع انقضاض الصاروخين الآخرين تم القضاء على فعالية الإعصار نهائيا . وتخلفت عن بقاياه دخنة مبعثرة تذروها الرياح وسحابات سوداء تأخذ طريق التشتت والانقشاع التدريجى .

ولم تمر ثلاثون دقيقة إلا كانت البارجة تتقدمها المدمرة تقلعان مبتعدتين دون أن يدرى أحد من رجالهما مدى الإثارة والترقب الذى سببوه على مدى ساعات أربع لأناس يسكنون قاع البحر فى هذه المنطقة ، ويختفون تحته من ٢٠ عامًا مضت ، دون أن يشعر بهم إنسان من سكان كوكب الأرض على اتساعه وترامبه .

وهنا شرب الجميع أكوابًا من العصير احتفالا بحكمه كبير الحكماء .

وتأنية فى اتخاذ قراره .

* * *

تذكرت الآن مرافقتنا الحسناء رقم ٢٠٥ ، وحين بحثت عنها بعينى وجدتها تتقدم نحوى فى ذات اللحظة وعيناها تشعان بريقا حانيا، ولمحها أيضًا كبير الحكماء فنادى عليها وهو يلتفت إلينا ويقول :

لقد وعدت الزميلة رقم ٢٠٥ أن أعفيكما اليوم من أعباء مهمتكما المضنية بمدينتنا . بينما تمنحان عطلة للتنزه وعلى حريتكما فى غابتنا الخفية . تتناولان أثناءها طعام الغداء من إعداد رقم ٢٠٥ على طريقة " الأشداء " .

شكرناه على فكرته المبهجة .. يوسف رفع حاجبية فانكمشت جبهته وهو يغمغم : بالنسبة للغابة ، أهى قاعية ؟

ويمنتهى الأدب أومأ كبير الحكماء برأسه موافقا .

لاحقه يوسف : غابة ماذا ، أشجار من أى نوع ؟

انفجرت أسارير كبير الحكماء : بل غابة طحالب عملاقة .

سألت بدورى : وما هى طريقة " الأشداء " .

قال : هو تعبير نطلقه على كيفية صيد الأسماك الكبيرة بعد مصارعتها ، والتغلب عليها ، وسوف تستمتعان بمرأى ٢٠٥ عندما تزاول هذا اللون من ألوان القنص غير المألوف .

واقلتنى ويوسف والعالمتين إحدى غواصات الجيب إلى الطرف الجنوبى للجزيرة . وقد لبسنا أردية الغوص زودت بعُدد خصصت لمقاومة ضغوط الماء الكبيرة لدى الأعماق ولمقاومة التيارات السفلية ، وبكل رداء جهاز للاتزان وآخر لضخ الاكسجين .

على البعد بزغت دون أن تتوقع ماذا أقول . شمس خضراء ضياؤها فى لون الزمرد بالغة الشاعرية . .

أوقفنا آلات الغواصة . أحكمنا أغطية الرؤوس . تسللنا عبر حاجز الضغط إلى الخارج كما تتسلل قطرة الماء عبر صنبور مغلق .

وتلقفنى نوع من الانسحاق أطبق على كل خلية فى بدنى . أصابنى إحساس بالغثيان ، مع ميل إلى الدوار حينئذ نفذت نظرات ٢٠٥ من خلف واجهة قناعها البلاستيكية ، واحتوائى صوتها شغوفا مشفقا عبر سماعة جهاز الإرسال بردائى :

– ماذا بك . لا تخف . ستكون على ما يرام خلال دقيقتين .

حين استعدت لياقتى تقدمت أسبق رفاقى إلى حيث تنقل وطأة الصمت وتطبق علينا .

هذه غابة الطحالب إذن . وأجلت عينى فيما حولى تستولى على الدهشة ويقتلنى الفضول . السوق عملاقة شاهقة ، لكنها مجدولة أو مخروطية ذات حراشيف وليست

ملساء كما تعودنا أن نرى فى غالبية سوق الطحالب ، وكأنها أذرع قنديل بحر مهول يطفو بعيدا فوقنا ، وكانت السوق مزودة بحويصلات تبقيها عائمة وألوانها جيرية ، وسرعان ماعرفت عبر سماعة الرداء أننا نتقدم بداخل غابة من سوق وجذور نوع ديناصورى ، تخلف عن نوع بائد من طحالب الساراجاس القديمة .

وأما عن الإضاءة الباردة الحانية التى تنير جوانب الغابة وممراتها المتداخلة ، فقد كان مصدرها نوع من القشريات الفسفورية التصقت بالملايين فوق سطوح سوق النباتات الفارعة الشاذة .

وراح المنظر يحكم استحواذه على مشاعرنا كلما ازداد توغلنا فى ثنايا الغابة .

وقالت ٢١٤ فى سماعة الرداء : ان الساراجاس نباتات مفترسة ، لذلك طليت سوقها بمعرفتنا بالمادة البيضاء لتقتل فيها فعاليتها لاجتذاب الأسماك والحيوان ومن ثم الالتصاق بها والتهامها .

حين بلغنا ما يشبه الساحة فى قلب غابة الساراجاس دفعت بنا الفتاتان إلى ما وراء حاجز من لدين سميك واقى . وأطلقنا من قفص جانبى سراح سمكتين مستطيلتين لا يقل طول الواحدة منها عن مترين ويزيد وزن الواحدة عن وزن الرجل البالغ، وانطلقتا تصارعانهما وقد كشف ردأيهما الشفافان الكثير من مفاتن جسديهما .

وجاءنى صوت ٢٠٥ المتحمس بينما تستل نصلا حادا وتنقض على السمكة :

- أنها سمكة من أسماك كركى البحر المفترس .....

آه . لقد أمسكت ذيلها ، أن السمكة تملك ضربة قاتلة بهذا الذيل . ياه . عليها اللعنة لقد أفلتت.

ودارت السمكة فى رشاقة رغم ثقلها وبغتة انهال ذيلها فى ضربة ملتهبة أصابت جنب ٢٠٥ .

وترنحت الفتاة ، لكنى وجدتها تندفع من جديد لستميت فى التشبث بالجسم الأملس القوى وتعتليه .

وبطعنة نافذة فى مؤخرة الرأس الثعبانى انبثقت دماء صفراء باهتة ، وانقلبت على جنبها .

وقبل أن يجرف التيار جسم السمكة سحبتها ٢٠٥ من ذيلها ودارت حول الحاجز حتى واجهتنى وزميلى ، فى الوقت الذى راحت فية السمكة الأخرى تراوغ ٢١٤ عن بعد دون أن تتمكن الفتاة من إصابتها .

وفاجأتنى ٢٠٥ بقولها : أرجوك ساعدنى فى سحب السمكة إلى حيث الحافة الصخرية البارزة .

فهناك سوف ننفذ إلى أحد الكهوف ، وعندئذ يمكننا شى لحمها اللذيذ .

ولما هم يوسف بمرافقتنا بادرته ٢٠٥ فى لهجة قاطعة دوى رنين نغماتها عبر فوهة السماعة اللاقطة : أما أنت ياسيد يوسف . فأرى أن تنتظر زميلتى لتساعدها بدورها .

حين نفذنا إلى الكهف المضاء صناعيا من قاع باب أعد لمعادلة ضغط الهواء ارتمت و ٢٠٥ إلى جوار جسم السمكة على أديم الصخر ، وقد بللناه بما تساقط منا من مياه .

وبدا أن ٢٠٥ أحست أن الرداء يقيدها كما راودنى نفس الإحساس ؛ لذا فقد سارعت بالوقوف وفك محابسه ثم نزعته عنها بعصبية لتصبح شبه عارية يغطيها رداء العوم وحده ، وجاريتها فتخلصت كذلك من ردائى لأصبح طليقًا مثلها .

وبعد برهة عدنا إلى الاستلقاء على الأديم الرطب الناعم الملمس ، كما استقرت السمكة بداخل فرن حرارى أقيم بتجويف واطئ ، وقد أمسكت بها كلابات راحت تقلبها ببطء .

استلقيت على ظهرى أراقب الترسيبات الجيرية والتكوينات الكلسية المعقدة الهابطة من السقف .

كنت أتوه ببصرى وسط المعالم الحالمة حينما لفحنى تيار هواء مثير .

رشفت جرعة هواء كبيرة وهمست دون أن أحرك رأسي : هواء نقى . مائة فى المائة . اللّه . كم استعذبه . قولى لى من أين أتى ؟

همست ٢٠٥ على يمينى : لدى نهاية الكهف فتحة علوية تمتد غائرة فى قلب الصخر حتى تنفذ لدى سفح جبل الجزيرة .

وعدت أعب من الذرات المنعشة : لم أكن أتصور أن أمنيتى . الاستلقاء تحت قبة السماء مباشرة ، ووسط تيارات هوائها البكر .. ستتحقق .

رنت السخرية فى نبرات ٢٠٥ : لكنك فى أعماق مدينتنا تتنفس ذات الهواء .

استدرت إليها برأسى فقط : ما تقولينه الصحيح .. غير أن الإحساس باختفاء الجدران . بالانفتاح والانطلاق على سطح كرة أرضنا دون ما عائق تحت أنس النجوم ودفء الشمس وخلال هبات الريح الآتى عبر أنهار وجبال وصحراوات تمتد إلى أنحاء قصية . لو فتشنا عن الإحساس لوجدناه يسرى مبهما ، دفينا فى أغوار كل كائن حى .

حولت بصرها عنى : أحيانًا يجتاحنى إيقاع معذب يقرب بما تذكر .

وساد صمت تغلفه رائحة الشواء التى بدأت تتصاعد من السمكة يحملها تيار الهواء غير أن ٢٠٥ ألقت سؤالا على غير انتظار .

– أنت متزوج ؟

قطبت جبينى : ماذا تقصدين ؟

– ربما أردت التعرف عليك بصورة أدق .

قالتها وهى تهب متوخية الاقتراب إلى جوارى .

تمتمت فى سخرية : تبيحين حقا لك بينما تأبين نفس الشىء على .

– لا أفهمك ؟

– أعنى مسألة طلب المزيد من المعلومات مع أنك تعرفين الكثير عنى . أما أنا فما الذى أدريه !

أكثر من قوام بديع يحمل أرقاما مبهمة . بل حتى اسمك فإننى أجهله .

همست ببطء ، اسمى ماريان . بلچيكية ، توفيت أمى فى حادثة عندما كنت فى الثانية ولحقها أبى وأنا فى العاشرة ، أما إخوتى فهم ثلاثة ، فريك وروبولف وأنجليك .

سرنى ، تمكنى الوصول إلى ما وراء أحد أرقام مدينة القاع ، فهذه أول مرة أنفذ فيها إلى خلفيتهم .

وطلبت المزيد .

– وبالطبع فأنت على ما يبدو ، غير متزوجة ، غير مرتبطة بأحد .

خفت صوتها حتى ميزت كلماته ببعض الجهد : بالنسبة للأولى لا ، أما الثانية فنعم .

سألت بلا هدف : رباط من أى نوع ؟

لم تجبنى على الفور .. إنما أغمضت عينيها لتعيش لحظة حالمة ..

– رباط الحب ..

رحت أحاورها دون قصد : أشاب بلچيكى هو ؟

فتحت عيناها فلمحتهما تائهتين : بل إنه بمدينتنا ؛ بقاع البحر .

– عالم من زملائك ؟

– لا .. إنه أنت .

جعلتنى انتفض كورقة شجرة تعصف بها ريح قوية . بدى الاستنكار واضحًا فى نبرات صوتى وأنا أردد .

– كيف ؟ أنا المصرى القادم من بلد ينأى عن بلدكم ويختلف أهله فى كثير عنكم ، أنا دون غيرى تختارين ؟

رمتنى بنظرة مستعطفة : وهل يميز الحب شيئًا مما تذكر ؟

- لكن ..

قاطعتنى : أرجوك . أننى أمنحك أصدق ما يملك المرء أن يمنح .

- لكنك با غتنى بما يبعد عن ذهنى كلية .

لم تجبنى بحرف ، وإنما كالسكرى أدنت وجهها من وجهى ، وبهدوء ، بأنامل الفنان حين يجرى فرشاته المرهفة على لوحته ، طوقت عنقى بذراعين بضتين ، ورفعت إلى مقلتين واسعتين والهتين ، وآنفا موسيقيا ملتهب الأنفاس ، ثم أطبقت على شفتى .

لبرهة استسلمت صاغرا لكنى نحيتها عنى برفق فانصاعت وأطرقت تائهة البصر.

- لم فعلت ذلك ؟

- لا أدرى ..

- على أى الحالات قد مر الأمر ويحسن ، أن ننساه .

وحين رفعت أهدابها لمحت دمعا يترقرق على خدها . وجاءنى صوتها فى صرير خافت مذنب .

- كان الأجدر بى أن أتمالك مشاعرى .

وداعبت أنفها مشفقا : لا تكونى متشائمة . أن الصداقة يامريان أبقى على مر الأيام .

وتناهى إلينا صدى أقدام يوسف ورفيقته ، وحين أقبلا يحملان سمكة أكبر حجماً من التى صادتها ٢٠٥ ، بادرتهما الأخيرة وقد ظلت على شرودها بأن سمكتها قد أوشكت أن تنضج وهى تكفينا وتزيد .

وهكذا سرعان ما انتزع يوسف ورقم ٢١٤ ردائيهما وجلسا يشاركاننا التهام أجزاء اللحم الأبيض الشهى ، ولقد حرصت على ألا أنفرد بعدئذ برقم ٢٠٥ أو ماريان كما أسمت نفسها وأظن أنها بدورها حرصت على فعل نفس الشيء .

الفصل الثالث

« الجمعة ٢٥ يونيو ٢٠٩٩ ... »

أصابنى الأرق للمرة الأولى منذ وطئت المدينة التى شيدها أناس مجهولون هم الخلاصة النافرة الشابة من علماء كوكب الأرض ؛ ولكنه كان أرقًا من ذلك النوع الهادئ الذى لا يزعج صاحبه . على الأقل معى أنا . فرحلتى مع السهاد رحلة طويلة مألوفة . ولعل الدهشة كانت تراودنى إذا ما نمت طبيعيًا من أول الليل .

وقد هجرنى الأرق طيلة الأيام العشرين الماضية . ففيها تلاحقت الأحداث حافلة مشحونة تطوينى بمتاعبها ومشاقها .. ووقعها المثير فلا أقوى إلا على الاستسلام للنوم العميق عقب كل جولة معها .

لذا فحين أقبل الأرق الليلة البارحة عقب رحلة الصيد العجيبة وتناول الغداء مع العالمتين رقم ٢٠٥ و٢١٤ . فقد رحبت بقدومه واستقبلته باشتياق حقيقى .

وأيًا كان مصدر الأرق الذى استضفته سواء أكان من أكل لحم السمكة الدسم ، أم من إفراطى فى شرب العصير وبه مادة منبهة ، أو كان مصدره تلك الواقعة العاطفية مع ٢٠٥ والتى بلبلت فكرى وأصابت مشاعرى بالاضطراب والحيرة . أقول أيًا كان مصدر الأرق فقد وجدت فيه فرجتى لأتفقد مكتبة الحجرة حيث أقيم .

كانت تنقسم إلى جزئين : وجدت لدهشتى الأيمن منهما قد تنوعت مجموعاته يضم كتبًا عن حربنا الخاطفة التى جرت مع إسرائيل منذ مائة وستة وعشرين عامًا .. وحين مددت يدى أتصفحها طالعتنى أكثر من دراسة وأكثر من بحث لم يغفل كبيرة أو صغيرة حول معارك وبطولات السادس من أكتوبر ١٩٧٣ ، بل ولم تترك كذلك إنجازات

ما بعد القتال وقد انطوت أسطورة التفوق التى طالما خدعت إسرائيل بها نفسها قبل أن تخدع العالم .

ثم استدرت إلى الجانب الأيسر من المكتبة وتناولت كتاباً لامع الغلاف وجدته يتحدث عن معادن البحر ، آخر يحوى تصنيفاً لأنواع الأسماك وفصائلها ، وثالثاً يعدد التيارات السفلية وتيارات القاع . كانت غالبية كتب المكتبة تضم موضوعات عن البحر وما به من أحياء وثروات على أنتى لدى نهاية رف عالٍ وقع بصرى على لوحة نحاسية تحمل كلمات بالإنجليزية والفرنسية ثبتت فوق واجهة درج إلى جوار مقبضه .

وقرأت اللوحة فوجدتها لدهشتى توضح خطوات طريقة مستحدثة للاطلاع والقراءة لم أسمع عنها قبلاً ، وكانت التعليمات تشير إلى كيفية التشغيل ، أسرعت بضغط الزر قبالة كلمة «البحر» ، ثم حددت همساً فى لاقط الكلام «قاع البحر» وحين ارتفعت الشاشة الرمادية الصغيرة زاد تحديدى بطلب كتاب عن «أحياء قاع البحر» .

وخلال ساعات وحدتى وحتى رحل عنى الأرق أمضيت وقتاً ممتعاً مع صفحات الكتاب ، تتوالى أحرفه أمام بصرى عبر إضاءة مزرقة مريحة للعين .

وهكذا وبينما نتناول إفطارنا أنا ويوسف على مائدة كبير الحكماء صباح اليوم ، فقد رحت أبدى إعجابى بفكرتهم الفريدة للاطلاع ، وقلت أننى بالفعل تمنيت لو طبق بدور الكتب العالمية مثل هذا النظام العملى الميسر والذى يفوق أية تجهيزات حالية للإمداد بالكتب فى أرقى المكتبات العامة مهما بلغت من كمال .

وكان كبير الحكماء ينصت إلى وقد نضح وجهه بالبشر دون أن يتفوه بكلمة . فى حين استقرت على المائدة فيما بيننا صينية متسعة تحوى فطيرة رقيقة صنعت من دقيق الطحالب مخلوطاً ببيض السلاحف وعطر حزاز الصخر البحرى ، وإلى جوار الفطيرة كان يستقر وعاء فيه كمية من عسل النحل الطازج .

أخيراً اقتطع كبير الحكماء ركناً من الفطيرة أغرقه بكمية من عسل النحل ثم لفه بأصابعه على هيئة السيجار وقضم طرفه .

غمغم وقد رحت أجاريه فى أكل الفطيرة بالعسل .

- تعجبك فطيرة دقيق الطحالب . هه ؟

قلت بينما حلاوة العسل تحرق حنجرتى : لا بأس بها .

التفت إلى يوسف : وأنت يا سيد يوسف ما رأيك ؟

هتف يوسف صدقنى .. كافة ما تذوقناه من طعام البحر قد ألفناه دون مشقة ...

وأضفت ضاحكًا : ولا تنس أن تشير إلى زيادة وزنينا منذ هبطنا قادمين إلى هنا .. باستثناء راجى شفاه اللّه ...

تطلع إلينا كبير الحكماء وهو يطلق لضحكاته العنان وقال وقد دمعت عيناه : من جهة الزيادة فى الوزن .. فواضح جداً أنكما قد استسغتما طعامنا البحرى ..

ثم تملك نفسه وقال : بالأمس قد سهر السيد شادى على قراءة كتاب عن أحياء قاع البحر .. والآن تعلنان رضاءكما عن طعام مدينة قاع البحر .. فما رأيكما فى تكملة حديثنا عن البحر وأنتما تتفقدان برفقتى أكبر القطاعات بمدينتنا .. وأعنى به قطاع علوم البحار وبحوث التغذية .

وحملتنا بالفعل غواصة جيب إلى البناية ذات الطوابق الأربعة يعلوها السطح الهرمى المجعد الحواف .. بامتداد ساعتين كنا قد تفقدنا أقسام وحجرات المبنى الرابض ساكنًا من الخارج وسط المياه المعتمة والذى يموج بالحركة والضوضاء من داخله .. شاهدنا معامل التخليق الحيوانى والنباتى .. ومعامل استنباط وتجريب الأطعمة المستحدثة من غرس البحر من أصول معدنية ونباتية وحيوانية .. ومررنا بقاعات بحث ودراسة مظاهر الطبيعة البحرية فى القاع ولدى السطح ومقومات إخضاعها والسيطرة عليها .. عشرات من العلماء والباحثين وجدناهم منكبين على أعمالهم فى صمت وآخرون رأيناهم يتناقشون فى حدة واندماج كاملين ..

فى النهاية رسا بنا المطاف داخل قاعة مستطيلة تضاء جدرانها ذاتيًا وتتكشف بفتحة مريعة على البحر وعالمه .. وقد ضمت فى جانب منها مائدة بيضاوية مغطاة

بمفرش قطنى مزركش .. يحيطها ما لا يقل عن عشرين كرسيًا صنعت والمائدة من لدين ناعم الملمس جذاب فى لونه الطوبى الفاتح ..

تصدر كبير الحكماء المائدة وعن يمينه جلست ويوسف .. وعن يساره جلس الحكيم الثانى ، والحكيمان الثالث والرابع أما بقية المقاعد فقد شلغتها وجوه جادة متشابهة الملامح وجديدة علينا لم يسبق رؤيتها ..

وعن طريق انتقال الصوت وتجسيمه بوسيلة خفية غامضة بلا مكبرات مرئية .. انسابت كلمات كبير الحكماء إلى أسماعنا .. وقد ظن كل منا أن الحكيم يخصه بحديثه دون غيره ..

كان الرجل قد تراجع إلى الوراء ليسند ظهره إلى ظهر المقعد .. وتجمد واضعًا يده اليمنى على حافة المائدة وأصابع يسراه تحت ذقنه .. بينما أغمض عينيه نصف إغماضة .. تاركًا لشفتيه وحدهما التذبذب والانفعال ..

- لقد شاهد ضيفانا .. المندوبان .. عن دولتى الحياد المؤسستين مصر ويوغسلافيا .. وتفقدا .. كافة ما بذلناه من جهود مضنية ، وما قمنا بتحقيقه من إنجازات مختلفة فى سبيل دراسة البحر وتفهم طبيعته وظروفه وتضاريسه .. وحصر خيراته وكنوزه .. ومن ثم جنى الخيرات واستثمار الكنوز فيما يعود على الإنسان بالفائدة والمنفعة .. بلا تشويه أو إضرار بعناصر الطبيعة أيًا تكون .

ولقد وددنا أيضًا لو استمرت مشاركة ضيفنا المندوب الهندى السيد راجى شفاه الله ..

كف كبير الحكماء عن الكلام برهة .. ومن وسط الصمت المخيم الذى لم تخدشه حركة يسيرة عاد يتابع وهو ما يزال على جموده ..

- لقد رأيتم منشآت مدينة القاع .. وألممتم بوسائل الاتصال بداخلها ومع خارجها .. ثم أعطيتم النموذج العملى لإنجازاتنا المبتكرة والشاقة أيضًا من أجل سكنى الإنسان قاع البحر والعمل على بقائه وامتداد حضارته إلى قلب الوطن الجديد .. البكر .. والوفير الخيرات بما يفوق كل تصور ..

ولوح كبير الحكماء بيده اليمنى ثم قال بينما يرفع ذقنه ويتفحص الجالسين بنظرات تائهة لا تعنى شيئًا .

– وهنا .. بقطاع علوم البحار والتغذية .. استكملتم الصورة بتفحصكم بقية بحوثنا وإنجازاتنا عن البحر وأسراره – وطبيعته – وكذا مخلوقاته .. على أن جوهر ما سنتناوله ونتفحص جوانبه .

بالمناقضة فى مجلسنا سيدور حول نقاط ثلاث محددة .. هى مقومات سكنى قاع البحر .. وإمكانيات توفير الغذاء فيه .. والبحث عن منابع جديدة للطاقة من خلاله .

وصمت كبير الحكماء .. وزاد من جموده .. حتى خيل إلى أنه قد كف عن التنفس كذلك .. فى هذه الآونة لمحت بطرف عينى منظراً غريباً يحدث فيما وراء الفتحة المطلة على القاع .. بدت فيها المياه التى كانت إلى لحظات سابقة معتمة مقفرة وكأنما اشتعلت فجأة بلا وجود لنيران ظاهرة .

وحدقت أكثر يغمرنى شعور بالمباغتة والانبهار لمشهد الأجسام المستطيلة فى أحجام كيزان الذرة وقد أحاطت بها مصابيح تشع ضوءاً أزرق عميقًا يغشى البصر .

وجاءنا صوت الحكيم الثانى الأنثوى : إنها مظاهرة صامتة لسرب من سيبيا الأعماق المضيئة .. وهى حيوانات رخوية زاهية تسبح فى أسراب قد تطول إلى أكثر من ميل بحرى .

وعدت أتفحص الكائنات المضيئة وهى تتتابع ، وخيل إلى أنى إنما أشهد زفافًا بالقناديل ، والشموع ، والأعلام الملونة ، وعلى دقات طبول ، ونغمات مزامير تقام ليلة مولد ولى من أولياء الله فى قرية من ريف مصر .

وأيقظنى صوت كبير الحكماء : أن الكلام عن البحر .. ذلك الفضاء المهول أو الصحراء المترامية من السائل واهب الحياة .. الذى يغطى ما يقرب من (٧٠٪) من سطح كوكبنا .... يجرنا إلى طرح سؤال دقيق .. أيكون البحر بالنسبة للبشر مصدر خير .. أم مكمن شر ؟ .

قال يوسف : أن تلوث مياه البحر بإلقاء الفضلات السامة وغير القابلة للذوبان من المجارى والمصانع ، وإلقاء مخلفات السفن خاصة سفن النفط ، واتخاذ قاع البحر بعداً ثالثاً لسباق التسلح سواء بالتخزين فيه ، أو باتخاذه مأوى للمدمر من الأسلحة كالغواصات الذرية ومراكز الصواريخ بعيدة المدى ، بينما يستخدم سطحه مرتعاً للسفن الحربية وحاملات الطائرات وكذا حين تتخذ جزره مواقعاً لتجريب المتفجرات النووية .. إلى جانب الاستغلال المفرط للثروة السمكية بأنحائه .. كل ذلك قد يحقق النظرية المتشائمة التى ينادى بها فريق من العلماء قائلين بتحويل محيطات العالم إلى بركة خالية من الحياة خلال ربع القرن .

وأضاف أحد الحاضرين : وقبلها وبعدها .. بامتداد آثار الإبادة الخفية إلى اليابسة نفسها ، على هيئة رياح ، وعواصف ، وأعاصير كاسحة مهلكة ، وأمطار مميتة .

عبس وجه كبير الحكماء : أحسنت القول .. بالضبط .. هذا هو المصير لو تركت الأمور بلا رابط .

وقلت متناولاً وجه الصورة الآخر : أما فى حالة تواجد الرابط ! وحتى بتحول البحر إلى مصدر أكيد لخير عميم .. فإننى لا أجد أصوب مما تفعلون .

ابتسم الحكيم الثالث .. وقال بينما يسعل قليلاً من حنجرته :

– هكذا .. فإن مقومات سكنى قاع البحر .. وفى ظل قوانين منظمة وسلام يسود سوف تقارب التصور التالى .. مستعمرات من مدن متصلة تشيد فى أماكن مختارة من قاع البحر ، تربطها وسائل مواصلات قاعية متطورة .. وتمدها مصادر غذاء ، وتعدين ، وطاقة متعددة .. حينئذ .. يمكن للإنسان البقاء تحت سطح الماء ولمدد غير محدودة ، وربما مطلقة .. مخففاً الضغط السكانى على وجه الأرض الذى سيكون حتماً قد فاق أقصى مدى له .

وقال الحكيم الرابع : ربما أدى استيطان الإنسان لقاع البحر أو ما يسمى بشغل الفضاء الداخلى .. إلى ظهور حضارة بحرية تخالف فى مقوماتها ومظاهرها ما عرف عن كل الحضارات الإنسانية السابقة .

وأضافت الحكيم الثانى فى خبث : وقد يمتد التطور إلى تركيب الجسد الإنسانى بذاته .. !!

سأل يوسف : ماذا تقصدين ؟

أجاب كبير الحكماء بمرح بينما يلمع عويناته الطبية : إنها تعنى مسألة غير مطروحة .. على الأقل فى مستقبلنا القريب .. كأن يعيش كالأسماك فى الماء مباشرة .. وبالذات نتنفس من خلاله .. !!! فى هذه اللحظة قدمت إلينا أطباق من الجيلى المثلج .. كان رجراجاً برتقالى اللون يحمل رائحة الڤانيليا القوية وكان لذيذاً .. ولدهشتنا عرفنا أنه نتاج مسحوق خليط من الأعشاب والفطر القاعى .. أخيراً ترك كبير الحكماء طبقه فارغاً قال :

– إن الجيلى من الأعشاب والفطر .. مغذ ومستساغ ، هذا حال بقية الأطعمة المنتجة من غرس البحر وأديمه .. حيوانياً كان أو نباتياً أو كيميائياً أو معدنياً .

سرتنى لباقة كبير الحكماء فعقبت : من هنا فالحديث يجب أن يجرنا إلى إمكانيات توفر الغذاء فى قاع البحر .

قال الحكيم الرابع : فى البحر أو البر .. لأهميته وخطورته .

أومأ كبير الحكماء إلى واحد من الحضور ذى أنف محنية تشبه منقار الببغاء ، يملأ النمش جبهته وأعلى وجنتيه .

– يا رقم ١٨٨ .. أنت عالم وحجة فى موضوعات الإحصاء والاقتصاد .. فأرنا بعضاً من أرقامك الحية .. ؟

تنحنح رقم ١٨٨ .. أخرج ورقة .. فردها ثم أطلق صوتاً جهورياً : عام ١٩٣٠ .. أى منذ ١٦٩ عاماً مضت ، كان تعداد سكان كرة الأرض ٢ مليار نسمة ، وفى عام ١٩٦٠ لغوا ٣ مليار نسمة ، وعام ١٩٧٥ بلغوا ٤ مليار ، وعام ١٩٨٧ بلغوا ٥ مليار .. وفى عام ١٩٩٩ .. زادوا عن ٨ مليار نسمة ، وفى عام ٢٠٣٠ قفز الرقم ١١ ملياراً أو يزيد ، واليوم فى عام ٢٠٩٩ وصلنا إلى ٢٥ ملياراً من الأنفس !

تساءل كبير الحكماء : معنى ذلك أن البشر يزيدون بمعدلات مخيفة .

قال ١٨٨ مكملاً : وهكذا .. فالأرض كلها سوف تتغطى بالناس وقوفًا عام ٢٨٠٠ !!

اتضح الأسى عميقًا على وجه كبير الحكماء : وكما ترون أن كثافة أبناء آدم ستصل نقطة هلاكها على ظهر كوكبنا المحدود المساحة والإمكانيات .. في زمن وشيك .

صاح يوسف بانفعال : ماذا ؟ أن الحل الوحيد يكمن في البحر .

قال كبير الحكماء : بل يكمن في ثلاث اتجاهات يجب السير فيها معًا . أولها : التحكم في النسل ، وثانيها : مضاعفة إنتاج الغذاء ، والثالث : البحث عن مصادر جديدة للطعام في خيرات البحر ، وكذا في معجزات البيو كيميائيات .

تساءلت : فما هو الأسلوب الأمثل لمضاعفة إنتاجية الغذاء ؟

تململ رجل غائر العينين ، بارز الوجنتين ، عريض العنق قدمه إلينا كبير الحكماء على أنه صاحب الرقم ١٠١ ، وقال وهو يشبك أصابع يديه تحت ذقنه :

- أن مضاعفة إنتاجية الأغذية التقليدية يتم .. باستزراع المزيد من الأرض ، كأراضي الكلأ ، والمراعي الفقيرة ، والأحراش من الصحراوات ، والبحيرات ، والمستنقعات ، والمناطق الجليدية .. كذلك بتطوير أساليب الزراعة لإنمائها راسيًا ... إلخ .

- وماذا أيضًا ؟ قال : ثم هناك جانب آخر هو التوصل لأغذية مطورة ، غير التقليدية المعروفة أصلاً ، طرقت المائدة بأصبعي وقلت : عظيم البيوكيميائيات !

قال ١٠١ وقد اكتشفت سنًا ذهبية تستقر بفكه العلوي .

- حقًا إن علم الكيمياء يلعب دوراً خطيراً في حياة الإنسان .. فيمكن عن طريق البيوكيميائيات تحويل أوراق الشجر ، ولحائه ، ولبه ، ومخلفات بذوره وجذوره إلى أغذية بروتينية ، كما يمكن استخلاص البروتين من زيت البترول ، والفحم ، والغاز الطبيعي ، وكذا يمكن إنتاج أنواع من الخمائر والفطريات والبكتريا يتغذى عليها الإنسان ..

وصمت برهة ليضيف فى كثير من الاعتداد : وبالمناسبة فقد تم لنا الصيف الماضى .. استنباط نوع من الدم الصناعى أبيض اللون بوسائل كيميائية بحتة .

وهتف يوسف : آه .. يتبقى بعدئذ الكلام عن خيرات البحر ومدى فائدتها للإنسان .

ابتسم كبير الحكماء : أو لم تختبروا منها ما فيه الكفاية .. بالتذوق ، وبالرؤية والفحص .

وقالت الحكيم الثانى : عموماً أن مصادر الغذاء الكامنة تحت الماء عظيمة جداً .. وغنية ، فالبحار والمحيطات مستودع مهول للغذاء ، وتقدر المادة العضوية العالقة بمياهه بما يزيد عن ٣٠ ألف مليار طن .

تساءلت : وما تقسيم المادة العضوية هذه ؟

أجابت : نباتات .. وحيوانات .. ثم هناك الهلاميات ، والرخويات ، والميكروبيات ، والعوالق ، والمواد الذائبة وما أشبه .

قال يوسف : وهذا بخلاف إمكانية زراعة القاع .

وتابعت الحكيم الثانى : لكى نمحو كلمة مجاعة يتحتم تغيير عادات البشر الغذائية تغييراً جذرياً ، وإنماء طريق حفظ الأغذية من التلف ..

وفى هذه الآونة أعلن الحكيم الرابع أن موعد الغذاء قد أزف وأننا سوف نجرب أطباقاً من طعام مصنوع كيميائياً من مواد بحرية صرفة .

وفى الحال ، قدمت لكل منا صينية معدنية بها عدد من الفجوات على هيئة دوائر بعضها غائر والبعض مسطح ، ومع الصينية دورق ماء دافئ وملعقتين وقطعة زبد كبيرة ، وعلبة بها عدداً من أكياس النايلون ضمت أقراصاً ومساحيق ومكعبات من مواد متباينة الألوان ..

قالت الحكيم الثانى وهى تضع الفوطة أعلى ركبتها كمن يتهيأ لوليمة كبرى :

- والآن .. إليكم فى الكيس الأول ثلاثة أقراص من الحساء .. يؤخذ القرص المختار ويوضع فى الفجوة الغائرة بالصينية ، وتضاف إليه كمية من المياه الدافئة ، ثم يقلب هكذا ..

وراحت تقلب الحساء الكهرماني بينما تراقبنى ويوسف بعينين متحديتين ، ثم تناولت الأكياس الأخرى على التوالى وتابعت قولها :

- وهذه تضم مجروش ودقيق أنواع الخضر والبروتين وبعض النشويات . وفى النهاية فالمسحوق البنى يكون نوعًا من حلوى البودنج أساسها مزيج من دقيق الفطر على دقيق الطفيليات العضوية بعد تجفيفهما ..

وكانت وجبة ممتعة «من طعام المستقبل» ..

* * *

عقب تناول الغداء انتقلنا بكامل عددنا إلى حجرة مجاورة ، وكانت من تلك الحجرات الرحبة التى خصصوها للتدخين والاسترخاء ..

وأسرعنا بالانتشار على الأرائك الوثيرة ..

واخترت ويوسف أريكة واطئة بداخل الشرفة البارزة وسط المياه ... لكنى حين جلست قبالة البحر .. وجهًا لوجه .. بل وجهًا لعمق ، لم أجد المنظر مريحًا ، وهل يستشعر المرء الهدوء والأمان وهو يرى أطنانًا من المياه فوق أطنان تطبق عليه من كل جانب ؟ وقد بدت معتمة الأبعاد إلى ما لا نهاية .. وتذكرت القرد الهلع بالحظيرة القاعية ..

على أن كبير الحكماء وقد أشعل واحداً من سيجاره المعهود ، وجذب بشغف نفسًا عميقًا .. لم يدعنى أسترسل طويلاً مع مخاوفى ، وإنما اجتذبنى بصوته المميز وهو يجلس فى مواجهتنا من الداخل ..

- لم يتبق فى حديثنا يا سادة سوى موضوع الطاقة ، التى هى مصدر بقاء الإنسان وأساس قوته وجبروته . والآن .. كلمنا عنها .. يا رقم ٦٠ .

تكلم الرجل المكتنز البدن : خرج صوته .. أجوفًا ممطوطًا .

– كما تعرفون حضراتكم ، قد نشأت حياة الإنسان على الأرض باعتماده على قوة عضلاته ، ثم اكتشف قوى الرياح وتيارات الماء وتسخير الحيوان .

غير أن النار هى أعظم اكتشافاته ، فقد قدمت له الكثير ، الدفء ، والنور ، والحرارة .

وأسرع كبيرهم يلاحقه : ثم جاء دور الرياح ، ومساقط المياه ، ومسارب الغازات الطبيعية ..

غمغم يوسف : حقًا .. الطاقة حلم الإنسان الخالد بعالم أفضل ..

حينئذ استطرد رقم ٦٠ : لكن الإنسان لم يستطع دخول عصر التكنولوچيا الصناعية بحق ، إلا باكتشافه آلة الاحتراق الداخلى التى عمادها الوقود السائل .. كالبترول مثلاً ..

– وبالتالى اكتشاف المزيد من الوقود ، الفحم ، البترول ، الكهرباء .. تحطيم النواه ؛ لكن يا سادة .. هل أمكننا استغلال كافة مصادر الطاقة فى الطبيعة ؟

همست : ليس بعد ..

– آه .. ومع ذلك ، فقد أوشك المعين على النضوب .. مائة عام أخرى أو مائتين وينتهى احتياطى الوقود المعروف لدينا ، وفى هذا تبديد حقيقى للحضارة البشرية الحديثة .. فماذا نحن فاعلون ؟

قالت الحكيم الثانى وكأنها تقرر أمرًا حتميًا : هناك مصدر وحيد وأساسى للطاقة .. إنه الشمس ، الفرن الذرى الذى يحول الكتلة إلى طاقة .

بدا علم الاقتناع على وجه الحكيم الرابع : لكننا أكثر دراية وتفهمًا لمقومات إخضاع طاقة النواه .. وقد قطعنا فى ذلك أشواطًا بعيدة ..

قلت أقرر حقيقة واقعة : أننا فى بلدى مصر قد أقمنا ثلاث مدن ذرية كبرى بوادى خريط ، وبالضبعة ، وفى برج العرب ، غير أننا رغمًا من نجاحنا فى مجالات الطاقة الذرية سلمياً ، فقد اتجهنا لاستخدام طاقة الشمس ..

مد كبير الحكماء على حين غرة عنقه بصدره إلى الأمام ..

قال وفمه يحمل ابتسامة ماكرة :

– أراكم يا سادة .. قد تجاهلتم مصدراً من أعظم مصادر المستقبل للطاقة ، وأعنى به البحر .. الذى يحوى بين طياته قوى مهولة ، عاتية .. تتمثل فى تياراته السطحية والسفلية والعميقة .. وفى مساقط مياهه .. وكذا فى اندفاع المد والجزر بشطآنه .. وعمليات البخر المهولة بأنحائه أو فروقات درجات الحرارة فى مياهه .. وصمت برهة ثم استطرد :

– أما هنا .. فى أعماق البحر .. فتكمن طاقة من نوع آخر هى أعظم بكثير من كل ما ذكرت .. أنها الطاقة التى تكمن فى قطرة الماء العادية ..

بينما لاحقته الحكيم الثانى :

– فجزئيات ماء البحر هذا المترامى أمامنا .. إنما تنغلق على مصدر أساسى لطاقة لا حدود لها ، هى «الدتريوم» أى ذرة الهيدروجين الثقيل ، فإذا أمكن تحقيق التحام الدتريوم – وهو مطلب يحاوله علماؤنا منذ شهور – فإنه سيحول البحر إلى مصدر لطاقة تكفينا بما يزيد عن معدل احتياجاتنا الراهنة إلى مليار عام أو أكثر .

ووسط انبهارى وانبهار يوسف بدسامة الاجتماع وروعة ما دار فيه من أحاديث ومناقشات ، حدثت مفاجأة سارة كانت خير ختام ليوم حافل من أيام مدينة القاع .. فقد جاء من يخبرنا بنزول الحصوات من كلية راجى قبل موعدها بيومين ، وأنه – أى راجى – استيقظ من سباته وقد شفى تماماً .

* * *

« السبت ٢٦ يونيو ٢٠٠٩ ... »

لم أكن أتصور أن لهفتى وأنا أستعجل الخطى فى سبيلى للقاء راجى ستبلغ بى هذا الحد من التوتر والعنف ..

وحين نادانى يوسف من ورائى ، وهو يلاحقنى بساقيه القصيرتين أرجوك .. أزل العبوس من وجهك فقد أوشكنا على ولوج حجرته ، استدرت إليه ففوجئت به متجهمًا مصفراً ربما أكثر منى ! ..

توقفنا لحظات تحت اللافتة العريقة «قسم ب – حالات غير خطيرة» ، ولدى ولوجنا أولى الحجرات وجدناه فى انتظارنا فاتحاً ذراعيه .

– أخيراً ها أنتما ..

همست وأنا أحتضنه : لقد افتقدناك كثيراً ..

بينما أخذ يوسف يهمهم فى انفعال وهو يربت على ظهره وكتفه : يا رفيقى .. يا رفيقى العزيز .. هدأنا أخيراً ورحنا نتفحصه ..

فرأيناه قد فقد القليل من وزنه دون أن يفتقد شيئًا من حيويته ..

وقال يوسف فى مرح : أراك .. وكأنه لم تجر أية معالجة لك ؟

ضحك راجى : صدقت .. أنا بخير .. ومعافى تماماً .. فقط جوعان .

لذا طلبت من الطبيب أن آكل وحدى سمكة تونة كبيرة ..

قال صوت مرح : لقد أذنت له بحوت يزن عشرين طنًا !!

عندئذ استدار راجى يقدم الرجل الذى دخل تواً وبرفقته فتاة :

– العالم الطبيب رقم ١٧٨ .. أخصائى الكلى ، الذى أشرف على علاجى حتى أتم إذابة الحصوات وإنزالها .

ثم أشار راجى إلى المرأة وأضاف فى رقة :

– كما أقدم زميلتى فى تلقى العلاج .. العاملة الشابة رقم ٢٨٥ ، وكانت تأخذ علاجها شاغلة جانباً بحجرتى أثناء سباتى ..

وما كدت اتطلع إليها حتى تسمرت فى مكانى .. على الفور تلاحقت أمامى رؤى حالمة وتيقظت فى أعماقى أحاسيس مبهمة ، هزت كيانى ، سحبت قلبى إلى بعيد . إلى السرير المعلق .. والستارة الوردية ، والجدول ، بل شلال الموج الأسود اللامع ينحدر من الوسادة إلى الملاءة .. إلى حاجز السرير .. طويلاً .. مبرقًا ..

وحين وقفت العاملة الشابة تصافحنا ، تذكرت تفاصيل وجهها الشاحب فى جمال ومهابة ، فمددت يدى احتوى أصابعها الدقيقة الناعمة وقد تركت لى يدها فى ألفة .

– أحمد الله على شفائك .. قلتها بالإنجليزية بصوت يقارب الهمس ..

تطلعت إلى متفحصه بعينين واسعتين يشع فيهما الذكاء ، وقالت فى عربية فصحى تشوبها لهجة البدو فى الشمال الإفريقى :

– إنه شعور طيب منك .

أى مفاجأة سارة أن أجد من يتكلم لغة وطنى .

– أنت تتكلمين العربية ، قلتها بعربية أهل مصر .

اغتصبت ابتسامة : إيه .. وقد أمضيت ردحاً من عمرى بدولة عربية أيضاً .

قلت بينما انهمك راجى ويوسف والطبيب وكذا رقم ٢٩٠ فى حديث حار :

– فأنت عربية ؟

قالت : شاءت الأقدار أن تتعالى أولى صرخاتى على ثرى بنغازى ، الميناء الليبى الشهير .

– ألمس فى لهجتك تعلقاً بمسقط رأسك .

وضعت راحتها على ظهر يسراى المستكينة على مسند المقعد : هل ينسى الإنسان أحلى أيام عمره ؟ .. بل إن أبى عربى .. ليبى .. أما أمى رحمها الله فكانت من أصل تركى ، كانت عصبية ، مريضة ، من هنا كانت المشاحنات دائمة بينها وبين أبى ، الرجل الثائر بطبيعة نشأته البدوية المتحررة .

قلت : أنت من أبناء ليبيا إذًا ؟

– أجل ..

– نعود إلى حديثنا .. وعاقبة المشاحنات بين أبويك .

ضيقت ما بين حاجبيها :

– لقد انفصلا ، كانت سنى وقتها الرابعة عشر، ورحلت مع أمى التى تشبثت بضمى إلى موطنها تركيا .. لتستقر فى أسطنبول ؛ لكن أمى انطوت على نفسها حتى توفيت قبل نيلى درجتى الجامعية فى الصيدلة بعامين .

قلت وعيناى ولا ريب تشعان حنانًا صادقًا :

– أنت قد قاسيت كثيراً .

أطلقت آهة طويلة وحولت عيناها إلى حيث الجدار الرمادى كأنها ترى عبره ما لا أراه ، وخصلة الشعر الفاحمة تتراقص فى دلال على جبينها :

– آه .. لقد انقضى كله وفات . والآن .. فى هذا الموقع .. معهم هنا ، فقد وجدت فى ظل مبادئهم البناءة ، فى صحبتهم ورعايتهم ، كل ما أنشده وأكثر .

ثم لوت عنقها نحوى ، وبدا فمها بديعًا تحت أضواء السقف الخفية وهو يعبر متعجبًا :

– لا أدرى .. ما الذى دفعنى لأخصك بكل الذى تفوهت به والتعارف لم يجمعنا إلا منذ لحظات قصار ؟

قربت وجهي من وجهها : بل دعيني أصرح أنها المعرفة السابقة بيننا ، قذفت بكل هالة الشعر إلى الوراء : أو بيننا تعارف حقًا .. ؟

– لقد تم لقاؤنا من قبل .

– بي أنا ؟

خفضت بصري : أجل .. أنت .. لقد رأيتك حينما كنت في سباتك تعالجين إلى جوار زميلنا راجي .

– كنت أنا نائمة .. هه ؟

– لكني كنت في كامل وعي .

همست : ولازلت تذكر وجهي ؟

قلت : بكل تفاصيله ، وهل ينسى المرء مثل قسماتك .

عرى الإحمرار وجنتيها خفضت بصرها ، أسدلت رموشها ، جاءني صوتها قلقًا لكنه منتشياً ..

– هل انضممنا إلى بقية الجماعة ؟

ولا أدرى كيف واتتني الشجاعة لأقول : ليس قبل أن أعرف اسمك .. لا رقمك .

رشفتني بنظرة خجلى سريعة : اسمي .. ماهيتاب ..

ثم انفلتت من بين أصابعي ؛ لأعود بحديثي إلى أحضان زميلنا الهندي راجي ، غير أن جزءًا مني لم يفارق ماهيتاب ، مع أنها كانت قد غادرتنا منذ ساعة أو يزيد .

* * *

الفصل الرابع

« الخميس أول يوليو عام ٢٠٩٩م ..... »

لم أجد خلال الأيام الأربعة الماضية فسحة من الوقت أدون فيها ما تعودت تدوينه من يوميات ، منذ وطئت الموقع الرابض على القاع أسفل مياه المحيط أو البحر لا أدرى ..

وقد شغلنى أمران غرقت فى كل منهما إلى أذنى ، فبينما أنفرد راجى وقد استرد عافيته وازداد نشاطًا وخفة يتتبع نفس البرنامج الذى تفقدت ويوسف خلاله منشآت مدينة القاع دونه ، وشغل يوسف فى اختيار نموذج مبتكر لمركبة تجمع بين الطائرة والسيارة والسفينة وتغوص كذلك تحت اليم ، انهمكت بدورى فى إعداد تقرير ضمنته خلاصة أمنية لكافة منجزات علماء الجماعة من أجل الإنسان وفى سبيل بقائه لا دماره .

وقد حرصت أن أرفق بتقريرى – قدر الإمكان نماذج من أصول بعض الاختراعات والبحوث والدراسات المختلفة، وكذا نماذج من أفكار وتأملات وتنبؤات نخبة من علمائهم فى شتى أمور الحياة فى حدود ما سمحوا هم لى بأخذه ، ولعل أكثر ما حصلت عليه إغراقًا فى التشاؤم كانت نصيحة عالم الفلك رقم ٤٠٠ التى أودعها كتابه بعنوان «نظرة حذرة إلى أعلى» ، وقد أخذت نسخة منه ، وفيه ينادى رقم ٤٠٠ بضرورة نبذ سكان الأرض لخلافاتهم وأطماعهم وسرعة اتحادهم ضد الخطر المجهول الآتى حتمًا ، وكما أتى قبلاً .. من الكواكب الأخرى المأهولة بمخلوقات تتفوق علينا ذكاء ومقدرة .

وأثناء صياغتى التقرير عاونتنى العالمة ماهيتاب فى إمدادى بالمراجع والوثائق وأصول الأبحاث ، كما قامت بتعريفى بالمزيد من أفراد جماعة العلماء الذين وجدت لديهم كل عون وصبر على استفساراتى المتلاحقة ..

وأمـا عن الشق الثـانى ، فكان من نوع مـخـتلف ذى طابع حـالم ولا أقـول الآن عاطفى ، أنه تلك الخلوات التى جمعتنى وماهيتاب سوياً .. فى أكثر من مكان وأكثر من موقع ، فى المبدأ دون قصد وبعدئذ عن طريق الاتفاق .

لكنى أبداً لم أتبادل وماهيتاب شيئًا خلاف الحديث البرئ والنظرات الهادئة .. ألا أنى فى ذات الوقت لم أكن غافلاً عن تطور خطير يتم فى صمت وتكتم .. رغمًا عن إرادتى .

واليوم كان موعدى أن أذهب برفقة ماهيتاب لتفقد واحد من أكثر جوانب المدينة القاعية إيغالاً فى التقدم ، وأقصد به مبنى حضانة أطفال البحر .

قادت ماهيتاب غواصة الجيب وحدها فى مهارة تحسد عليها وبعد مسيرة نحو ثلث الساعة بلغنا الموقع المنشود ، وكان عبارة عن بناية مستديرة ذات طابقين ، تستقر فيما يشبه طبقًا مهولاً فوق ثمانية من عمد الأسمنت القوية التى تستطيل بدورها بارتفاع طابقين تحتها .. وفيما عدا قواطع الحجرات وكسرات الأساس، فقد بدت غالبية جدران الطبق المعلق شفافة القوام لا يحجبها عن الرؤى الخارجية غير ستائر القماش السميك .

وحين رفعت بصرى بهرتنى الأضواء المزرقة الهادئة ، كانت مؤنسة ، من المحال أن يخطر بفكر أنسانى وصف لجمالها ..

بداخل عمود أسمنتى حملنا مصعد إلى أعلى .. لتستقبلنا العاملة رقم ١٦ والتى تعتبر من أقدم الأعضاء المؤسسين للجماعة ، ولذلك وكلت إليها أدق المهام حساسية وخطورة ، وهكذا سرعان ما تولت قيادتنا لنرقب عن كثب المعاملة النموذجية التى يلقاها النشء هؤلاء الذينْ لم يروا ما يعلو سطح الغلاف المائى قط .

كان طابقا البناية متماثلين من الداخل ، حجرات للنوم وقاعات للدرس والطعام .. تتوسطها دورات المياه ، وصالة المطالعة ، والعيادة الطبية ، وحمام للسباحة وغير هذا بما يخصص لسلامة الطفل وتنمية مداركه ، وكان الطابع السائد النظافة المتناهية ..

سألت ماهيتاب فى دهشة : أكل هذا من أجل ١٨ طفلاً ؟

قالت وبسمة رقيقة تضئ شفتيها : نحن قلة .. الفرد منا محسوب عليه ذكاؤه وتفوقه ، ثم من إدراك أن أطفالنا سيظل عددهم عند الرقم الذى ذكرت ؟

وتقدمنا إلى إحدى القاعات .. الجدران ملساء مقوسة ، مزرقة ، شفافة ، والسقف عال يضاء ذاتيًا ، ومصادر خفية للصوت ، وللمؤثرات العطرية ، والموسيقية ، والانفعالية، كما تمتد مسارات الأشعة وفتحات التهوية ، كما كانت الأرضية من معدن ذى مسام أسفنجية قابضة ..

والأركان تتضح بها فتحات أخرى للتدفئة وإطلاق أبخرة لتنقية الجو .

وكانت تتوسط القاعة رقعة سجاد من صوف حرارى صناعى ، تناثرت فوقها عشرات من اللعب الإلكترونية والأشكال الهندسية يتجمع حولها ثمانية عشر طفلاً من الجنسين ، قصار القامة ممتلئو البدن ، تتراوح أعمارهم بين عامين وأربعة أعوام ، كانوا يقفون أو يجلسون أو يستلقون بحللهم الخضراء الزاهية ، يتفحصون ، ويناقشون ، ثم ينهمكون .

وهب علينا تيار هواء بارد يحمل رائحة نعناع ملطفة فى حين استدارت إلينا ٣٦ عينًا متسائلة ..

بدت عيونًا ذكية أحاطتنا من كل جانب ، وقد راح أصحابها الصغار يرمقوننا فى فضول ..

ولاحظت كذلك اللون الفاقع البياض الغالب على بشرة الأطفال .. فهل هو بسبب الحاجة إلى أشعة الشمس ؟

ألقيت سؤالى بصوت خافت لا يصل إلى الآذان الصغيرة :

– أرى الأطفال جادين كالكبار ؟

أجابت رقم ١٦ وهى صبية حلوة فى الخمسين من عمرها : لابد أن ننشئهم على نمط منظم فى حياتهم ، وقت للراحة الجثمانية .. وآخر للرياضة الذهنية ، وثالث للرياضة البدنية ، ورابع للغذاء ، وخامس لكيت ، وسادس لكيت ، وهكذا ..

اعترضت : لكن هذه الأدوات أو (اللعب العويصة) أليست فوق مستوى فكر طفل الأربعة أعوام ؟

قالت رقم ١٦ في اقتضاب : فقياساتنا تدل على أن ذكاء أطفال القاع في سن الرابعة يوازي ذكاء أطفال العاشرة لديكم ..

قلت مكابراً : فهل سمحت أن أختبر ذلك بنفسي ؟

انتقيت واحداً من الأطفال تعدى الثالثة من عمره ، وحادثته ، وذهلت لردوده الفطنة التي توائم طفلاً في الثامنة أو التاسعة وليس الثالثة ، واسترعى انتباهي كذلك رزانته – وكان يدعى حنّا – والثقة البادية في جمله المركزة التي تخرج على قدر ما يوجه إليه من أسئلة ، كما بهرتني أيضاً إجابات الطفلتين زينة ولندا .

وفي نهاية ساعتين ونصف الساعة وقد أذنت جولتنا على الانتهاء صحبنا مجموعة الأطفال إلى القاعة النفسية ..

حيث استلقى كل طفل على أحد الأسرة ، جذب خوذة من ولدين بالغ الرقة بالغ اللمعان غطت نصف وجهه حتى أنفه .. وفيما عدانا .. رقم ١٦ ، وماهيتاب ، وأنا ، وأربع من المشرفات . استلقى بقية الأطفال لا يظهر منهم سوى ظهور أيديهم المستكينة وشفاههم الباهتة المبتسمة ..

وكما يسري ماء الينبوع في شقوق الصخر بطيئًا ملحًا ، سرى الهمس منصبًا إلى خلايا عقول الأطفال ..

«أبناء .. مدينة .. القاع .. يا هبة القدر .. يا أبناء العالم المائي» ...

لكم جيران فوق اليابسة هم أخوة لكم .. من صلبكم .. فلا تناصبوهم العداء ، بل بادلوهم الود والأخاء :

ثم كونوا على يقين ، أن البحر هو موطنكم الأوحد ، وأن التطور والتحول والتغير آت سيلحقكم ، فأنتم تولدون سباحين مهرة والسباحة أول السلم ، وأجسامكم

ستقوى وجلودكم ستخشن لتتحملوا ملوحة المياه وضغوطها ، وأعينكم ستزداد حدة لتألفوا عتمة الأعماق ، ولكن الطريق ما يزال طويلاً ، والمستقبل يظل يعد صفحاته من أجل مسيرتكم ومجدكم المرتقب . وحينئذ ، ستضئ خلاياكم ذاتيًا ، وتتحور أطرافكم إنسيابيًا ، وتصبح لبشراتكم قابلية امتصاص الأشعة المذابة ، وأعصابكم ستألف مرأى القاع بمسرحة الحافل الزاخر ، وقرب تمام التطور ستجمعون فى صدوركم بين الرئات والخياشيم ، ووقتها ستعرفون بإنسان الخياشيم إنسان الماء الطلق بلا وقاء فى بيئته» ..

وبوى من بؤرة خفية صوت متقطع يشبه هزيم رعد آت على عجل .. شتت تركيزى وأطاح بذهنى بعيداً .. بغتة على غير انتظار . أقبل .. الكابوس المريع .. من كل جانب أطبق وضغط بشراسة ، فى دوى وجلبة تصم الآذان ..

غمغمت ماهيتاب ورقم ١٦ فى نفس واحد : الزلزال ..

وتنبهت رقم ١٦ لأمر كاد يفوتها .. فأسرعت إلى دولاب بالحائط فتحته وأخرجت منه فانوسًا بالبطارية ؛ بينما كانت الدمدمة تتباعد ورعشة الجدران تخف إلى أن توقفت .

ثم قالت وهى تهيىء الفانوس : لنجلس كلنا ..

تساءلت وأنا اختار مجلسى على حافة سرير : هل تتوقعين هزة أرضية تالية ؟

– ربما هزات أخرى وشيكة الوقوع ، غالبًا ما يحدث ذلك .

ولم تكد تكمل كلماتها حتى جلجل القصف هذه المرة تحت أقدامنا تمامًا ، انطفأ النور كما قدرت رقم ١٦ ، ووسط إحساس بفقد التوازن رأيت ضوء الفانوس يتراقص بتراقص بدن رقم ١٦ التى بدت ملامح وتغضنات وجهها مثيرة للفرغ تحت الضوء الخافت والمرئيات المتخبطة ، فى الوقت الذى أخذت فيه قبضات الموج تصل جدران البناية من الخارج بضربات قاسية متلاحقة .

فى هذه اللحظة ، امتدت خلسة أصابع دقيقة باردة تتشبث بذراعى ، كانت استغاثة صامتة من ماهيتاب رددت عليها بالقبض على أصابعها فى حنان .

تلت الهزة الثانية ثلاث هزات أخذت تتداعى نحو الخفوت وعدم الفاعلية ، ورحل الزلزال كلية فى نهاية ربع ساعة شملت تجربة لاهثة لم أخض فى مثل إثارتها ، أن القاهرى الآتى من مصر البلد النائى عن أحزمة الزلازل المعروفة ..

وخلال ربع ساعة تال وقد أضيئت الجدران مرة أخرى ، وعاد الأطفال ومربياتهم إلى سابق برامج تدريباتهم بأنحاء الحضانة القاعية ، أخذت وماهيتاب بدورنا طريق العودة إلى العمارة المركزية ..

* * *

عقب عودتنا علمت بوقوع بعض الأضرار فى طابقى العمارة المركزية العلويين نتج عنها تسرب للمياه فى أجزاء منها ، فقد كانت وطأة الزلزال بهذه المنطقة أشد ضراوة وعنفًا عن بقية مناطق مدينة القاع ، ولحسن الحظ انحصرت الأضرار فى إصابة عاملين فقط بكسور فى سيقانهما وقد أمكن إسعافهما ..

بعد معايشة أحداث الزلزال الذى ضرب الجزيرة ومدينة القاع التابعة بأسفلها .. فاجأنى زلزال آخر أخف وطأة على يد العالمة ذات الجدائل الصفر رقم ٢٠٥، فقد وجدتها فى ذات الليلة تدلف إلى حجرتى على غير انتظار وتستأذننى فى الحديث لدقائق ..

على أنها جلست قبل أن أنطق بحرف ، ووضعت ساقًا على ساق ثم أشعلت لفافة فكانت أول امرأة أراها تدخن بمدينة القاع .

قالت فى نغمة ذات مغذى : رأيتك ورقم ٢٨٥ .. تعودان سويًا من حضانة القاع .

– وماذا فى ذلك ؟

إنما جئتك حتى أرفع النقاب عن أى لبس أو تضليل يقع عليك .

– أرجوك .. وضحى ..

قالت وهى تنفض رماد لفائفها فى عصبية أسفل قدميها بينما المنفضة على رف فى متناول أصابعها ..

– هذه ال ٢٨٥ .. أتعرف قصتها ؟

كانت تقصد ماهيتاب لكنى اعترضت : من فضلك ، إنها زميلة ورفيقة لك قبل أن يتم لقائى بها .

انتشرت ابتسامة صفراء على شفتيها .. قالت فى مرارة :

– لا تغضب . أسفة . الزميلة رقم ٢٨٥ .. لقد كانت مخطوبة لواحد من العلماء الشبان .

دهشت بالفعل : أحقًا ..

– خطبت للزميل رقم ١١٦ وكان مهندسًا معماريًا متحمسًا لفكرة مدينة القاع . لكنه لقى حتفه فى حادث انفجار مكثف كهربائى ، فهل تدرى أنها ماتزال حزينة لفقده حتى اللحظة ؟

تمتمت فى صوت مسموع رغم خفوته : إنه موقف طبيعى من إنسانة وفية .

قالت فى لهجة متبرمة سليطة : بل أقصد أن لا مكان لك فى قلبها بصريح العبارة أدرت رأسى إليها ، هممت أن أقول لها كلمة قاسية ، لكنها كانت قد غادرت الحجرة فى هدوء .

ولدى صعودى واستلقائى بفراشى ، وقبل أن استسلم للنوم ، وجدت مخيلتى تنساق برغمى إلى نوع من المقارنة غير المتكافئة بين العالمتين الشابتين ..

انتهت سريعًا لصالح ماهيتاب ..

واستسلمت للنوم قرير الفؤاد .. »

* * *

« السبت ٣ يوليو ٢٠٩٩م ... »

بعد يوم آخر حافل بالعمل الشاق تمت السيطرة على مصادر الدمار بطابقى العمارة المركزية العلويين ..

وأمكن تفريغ المياه منهما نهائياً ، وأعادتهما إلى سابق صلاحياتهم .

علمت اليوم من رقم ٢٩٠ خبراً مذهلاً شد انتباهى بدرجة كبيرة .

فقد نشأ عن الزلزال انبثاق جزيرة صغيرة ، تبعد عن موقع الجزيرة التى تستقر على سفحها السفلى مدينة القاع .. بحوالى .. ميل ونصف ..

لذلك فحين جاءتنا ماهيتاب يفوح منها عطر الياسمين عقب إفطارنا أنا ورفيقاى وعرضت علينا القيام بنزهة بحرية إلى حيث الجزيرة الوليدة ، فرغماً عن اعتذار زميلى لانشغالهما فيما سبق وذكرت من مهام فإننى بادرتها من فورى بالموافقة ، فهذه مناسبة فريدة لرؤية الجزيرة الأصلية التى تختفى مدينة القاع لدى قاعدتها وتبين معالمها عياناً جهاراً قبل الأخرى الوليدة ..

هكذا عدت وماهيتاب يرافقنا عطرها النفاذ نستقل غواصة الجيب التى تجيد قيادتها بمفردها ، بعد مسافة جديدة صعدت الغواصة .

وحين اعتدلت إذا بصفحة اليم نقية رائعة سحابات بيضاء متناثرة ، حدقت حولى بفضول ، الموج العابث فى رقة ، الهواء الطليق ..

وركزت بصرى على صفحة السماء الممتدة .. متسعة ، يعب منها البصر دون ما حدود ، ثم رفعت رأسى تجاه القرص المعلق استقبل أشعته الفضية ، ومرت ثوان قبل أن أتبين فيه قرص القمر لا قرص الشمس .

أدرت رأسى فى الحال تجاه ماهيتاب :

– أظنكم قدّرتم أن الليل لا يتيح الرؤية جيداً .. مهما أشع القمر بنوره .

ألقت ماهيتاب هلبًا صغيرًا بينما ترنو إلى : ولن يسهل عليك معرفة موقعك نهارًا !!

صمت ولم أجب .

حملقت عبر الأفق المتلاشى فى مساحات المياه التى لا يرى غيرها ، فتحت كفيها تجاه السماء ..

– أرأيت .. على مدى البصر .. لا شىء غير موجات الماء تعدو وراء موجات الماء .

حاولت تغيير دفة الحديث : من حركة القمر أستطيع أن أحدد فقط الشرق ويقابله الغرب .

وأيضًا الشمال والجنوب ، ثم رنوت إلى الصخرة المهولة المسودة وقد ربضت بغتة – إلى يسارنا – بجبلها البركانى وصخورها الناقرة ، لكن .. ياه .. هذه ولابد جزيرتكم الأصلية .

– أجل ...

أجلت بصرى منقبًا : عرفتها من نفس المعالم التى سبق وشاهدتها على شاشة التليفزيون بأسفل ، ترى .. فأين تقع الأخرى ، الجزيرة الوليدة ؟

– حسب قولهم .. تكون فى هذا الاتجاه .

لكنها فى نفس الوقت تذكرت أمرًا فأضافت فى شبه صيحة مكتومة .. «والآن فإلى الصندوق» ، ثم استدارت تلج حجرة القيادة وقالت بعد أن فتحت غطاء الصندوق :

– هيا يا عزيزى .. تناول إحداها ..

حدقت فى الآلتين اللتين تشبهان حقيبتين أو علبتين من المعدن ، تحوى كل منهما ماسورتين رفيعتين ومجموعة من الآلات الالكترونية وأجهزة التوجيه والملاحة ، وكذا جهاز إرسال قصير المدى .

تساءلت : ما هذا ؟

كانت ماهيتاب قد أخرجت إحدى الآلتين ، وراحت ترمينى بسهام عينيها الجميلتين

- إن كلاً منهما جهاز نفث مستقل يثبت خلف ظهر الفرد ، ليحمله ويطير به على ارتفاعات قد يصل أقصاها مائتين من الأمتار .

وأخرجت بدورى الآلة التى وجدتها خفيفة لا يتعدى وزنها جرامات معدودات .. قلت وأنا أتفحص الأربطة العريضة :

- أهى الأحزمة التى تثبت بالظهر ؟

على أنى صحت فى شىء من الفزع وأصابعى تمتد فى مواجهة ماهيتاب .. التى حملقت فى بدورها مندهشة من حركتى :

- انتظرى ، أظنك لا تطلبين منى .. أن .. أشاركك الارتفاع بهذا الشىء !!!

بدا وجهها أكثر إضاءة من وجه القمر ، اقتربت منى ببطء ، فشممت عطرها يتسلل إلى أعصابى :

- هذا الجهاز أمره بسيط ، واستخدامه أيسر مما تتصور ، اسمه «الحمالة النفاثة» ويستخدم فى تخطى البرك والمستنقعات والأنهار والتنقل لمسافات قريبة وما أشبه ، ويمكنك السيطرة على ارتفاعه وتوجيهه بدقة وسهولة .

ومن غير أن تدع لى فرصة اقتربت تساعدنى فى ربط الأحزمة :

- وهاك ذراع القيادة يمد من تحت الأبط الأيمن ليواجه الصدر هكذا ، وهذه لوحة أزرار التشغيل والضبط الملاحى .. تثبت أسفل الثدى الأيسر ، وتحتها أزرار الراديو والرادار وجهاز الإرسال ، وأما اللوحة المحفورة وبها خطوات الاستخدام السليم للجهاز فتثبت على الذراع الأيسر هنا .

بالضبط ، ثم هذا المثلث من الجلد المرن ، أنه يقيد بين الفخذين ، أنه بمثابة المقعد خلال الطيران ، وأخيراً إليك الخوذة وبها لاقط الكلام وسماعتى الاستقبال .

وساعدتها فى تثبيت حمالتها بينما كانت تخبرنى بأن كل حمالة بها أقراص للوقود تكفها ما يزيد عن الساعة طيرانًا .

ثم عقب محاولتين ناجحتين لتجربة الارتفاع وجدتها تقول مزهوة : رائع ، والآن ، فإلى أعلى .

فى هدوء وأنسياب هين حالم ، وبنعومة ممتعة رحت أنجذب متهاديًا رويدًا رويدًا .. إلى أعلى ، كأن الأرض هى التى تبتعد عنى ، أو أن أذرعًا ملائكية خفية امتدت وحملتنى .

وانطلقنا ، ماهيتاب فى المقدمة وأنا خلفها بمسافة مترين ، ساقاى مثلها مدلاتان وجسدى مشدود يتكئ على المقعد الجلدى ، وكان القمر فى اكتماله بدرًا ما يزال يطل علينا مؤنسًا ، والجزيرة الرئيسية تحتنا تكاد تتضح صخرة بيضاوية معتمة إلى حد ما . أما البحر بمياهه الساكنة المتلألئة فكان وهو يحيط شبح الجزيرة يصلى جوانبها وشطآنها رذاذًا أبيض واهنًا لا يكف عن التناطح ومن ثم الانحسار الخجل ، وكأنها مداعبة بريئة فيها لمسات العشق .. فقط كان الهواء يقابلنا أثناء الطيران فى دفقات ، قويًا إلى حد ما ، قلت أسألها وأنا أطير خلفها : ما معنى كلمة ماهيتاب ؟

كان ظهرها فقط هو الذى أراه لكن صوتها دوى واضحًا فى أذنى .

– «ماهى» بالتركية تعنى القمر ، و«تاب» تعنى كاملاً ، أو ما يقابل بالعربية بدرًا ، فماهيتاب معناها ككلمة واحدة «البدر» .

همست لها : فأنا أرى إذا البدر الصغير يطير فى أحضان البدر الكبير.

تصنعت الاعتراض : يالك من مبالغ !

بعد برهة من الطيران المتواصل سمعتها تقول وهى تتفحص ما تحتها :

- نأخذ هذا الاتجاه .

وأشارت ماهيتاب نحو نقطة داكنة لدى الأفق .

ركزت بصرى : الجزيرة الوليدة ؟

- أنها هى .

وشغلت عن الكلام لكن صمتى لم يكن كاملاً : إذ راحت مناجاة تشبه الصلاة تتردد عبر خلايا مخى ، فلم أدر أى طاقة ذهبية انطلقت خلالها إلى مستقبل الجنس البشرى .

كان البحر وديعًا وبدوداً حانى الموج فى أسفل كأنه لم يبتلع من قبل سفينة ولم يزهق أنفاسًا بريئة إطلاقًا ، بدا طاهراً منزهًا عن أى معصية ، وبدا كذلك وديعًا بريئًا غير قادر على إخفاء مدينة بأكملها تحت سطحه ..!

لكنى كنت أعلم أن ومضات عظيمة من فكر الإنسان تستقر .. هاهنا ، تتوارى عن عينى وإن لم تغب عن إدراكى .

وأرفع عينى سبحانك يارب !. كيف أجرؤ على تفحص ملكوتك الهائل اللانهائى مكانًا وزمانًا ووجوداً ؟...

عقلى محدود وجسدى مكدود ، لكن مشيئتك أذنت بانطلاقى ، فسعيت ، وقفزت ، إلى عدد قريب من أكوانك ، فهل بلغت جزءاً يسيراً ، تافهًا من حافة سماء من سماواتك ؟.. لا أدرى .. يارب إننى لا أنفذ إلا بسلطان ، سلطانك وحدك ، إنك تدنينى من أول ومضات حضارة الفضاء بعد أن هيأت حضارتى الأرض والقاع ، وأسارع بخفض بصرى ، وطأطأة رأسى .

أعود إلى واقعى .

إن إنسان المستقبل سوف يقوده عقله إلى التحرر الكامل من معوقات الجاذبية سواء وجوداً أو عدمًا .

ومن اختلافات ضغوط الهواء الجوى وتكاثفات الإشعاعات الفتاكة واحتمالات نقص الغذاء .

سوف ينفذ طليقًا عبر كافة مجالات كوكبه الأرض ، على ثراه ، تحت مياهه ، فوق أجوائه ، سمائه ، وأيضاً إلى خارجه بعيداً عن أجوائه وقيوده .

إنسان الغد هو طائر جناحاه العلم ودفته الفكر ومساره الطموح ، أما مجال انطلاقه ، تألقه وبزوغه ، فلا يعلم مداه سوى خالقه .

وأيقظنى صوت ماهيتاب منفعلاً : هاهى الجزيرة ، التى خلفها الزلزال ، حدقت طويلاً وأنا آخذ دورة كاملة حول كتلة الطين الفائرة ، واندفع وسط أدخنة الأبخرة الغازية المتصاعدة منها ، ولدى الطرف المقابل رأيت غواصة جيب أخرى ترسو على مقربة من الجزيرة ، كما ظهر عدد من الضفادع البشرية من العلماء يسبحون حولها يتفحصونها ويجمعون عينات من طينها ، ولوحنا للرجال ، فلمحونا وأجابوا علينا .

وقالت رفيقتى وهى تتعلق إلى جوارى :

– مع حدوث الزلزال انطلق من قاع البحر لهب الغازات البترولية ، ارتفع عاليًا إلى نحو ٥٠ متراً ، ثم أخذت فوهة البركان تتضح وهى تلقى حمم الطين تختلط مع البترول المتدفق ، وتكونت الجزيرة التى تراها سريعاً ، خلال ساعات ست فحسب لقد شوهد ذلك كله على شاشات التليفزيون بأسفل .

ورحت أقيس الجزيرة ببصرى المجرد : إنها لا تزيد عن رقعة مستطيلة طولها ٦٥ متراً فى عرض ٥٠ متراً وارتفاع مترين ، إنها جزيرة بالغة الصغر .

وأضفت متسائلاً وأنا أجذب ذراع القيادة لأزداد ارتفاعاً هرباً من لزوجة الأبخرة الساخنة :

– لكن هل يمكن لهذه الجزيرة الصمود طويلاً أمام أمواج البحر ؟

قالت ماهيتاب وقد سلكت التفاتة حادة فى سبيل أن تستدير لتأخذ طريق العودة :

– سوف تتحطم وتتبعثر عاجلاً ، ولن يتبقى منها أى أثر عقب هبوب أول عاصفة .

* * *

« الأحد ٤ يوليو عام ٢٠٠٩م ... »

– غداً فجراً .. يحل موعد رحيلكم عنا يا سادة ، وفى الحقيقة فسوف تتركون بيننا فراغًا كبيراً ، لقد ألفنا وجودكم معنا ، وتعودنا أحاديثكم .. ومناقشاتكم .. التى ......

أحسست مشاعرى تقودنى برغمى إلى بعيد ، هل حقًا نحن راحلون غداً ؟

هل حقًا تلك السويعات الحافلة العظيمة قد أذنت أخيراً بالانتهاء ؟

ورحت أكرر حساب الأيام ، لقد كان أول هبوطنا مدينة القاع يوم ١٥ يونيو الماضى ، واليوم هو الرابع من يوليو ، فيكون مجموعها ٢٠ يوماً .

أتسرع الأيام هكذا فتمر ٢٠ يوماً دون أن يفطن أحدنا لمرور كل هذا الزمن .

لقد عايشنا هؤلاء القوم من خلاصة العلماء المتمردين على إيقاع الحياة مختل ، فقدرنا فكرهم ، واحترمنا أسلوبهم من أجل الإنسان ، فنسينا أننا متواجدون بين غرباء .

تفرس كبير الحكماء فى ثلاثتنا بتمعن وقدر فائض من العاطفة ، بينما كان يتمتم لنفسه ويداه مستريحتان على غطاء المائدة من القطيفة ، يربت كف إحداهما على ظهر اليد الثانية ، أجل سنفتقدكم بصورة ملحة ، وعميقة ، ثم قطب جبينه ، وتهالك يسدل عينيه ويغوص فى صمت قلق .

كنا راجى ، ويوسف ، وأنا ، ومعنا العلماء الحكماء بكامل هيئتهم الرباعية وكذا المرافق العالم الشاب رقم ٢٩٠ نشغل معظم المقاعد بحجرة للاستراحة وردية الطلاء بالطابق السابع فى العمارة المركزية ، وكان جلوسنا أسفل لافتة فرعونية الإطار كتب عليها بحروف لاتينية غير متشابكة ، ما نصه : «أن خلاصة الدراسات العلمية الحديثة قد أجمعت مؤكدة ، أن مصر هى مهبط الوحى الحضارى الأول ، ولقد أعطت مصر للعالم كله خلاصة العلوم والآداب والفنون لعشرات القرون ، فمن الصانع إلى المفكر إلى الحاكم كانوا جميعاً مصريين أصحاب ملكات فى الابتكار ..»

وقبالة اللوحة كانت الفتحة التى تطل على المياه مغلقة بالاستراحة ، كما أحسسنا الحجرة أقل دفئًا مما يجب أن تكون عليه أمثال هذه الحجرات المخصصة للتدخين والحديث .

رفع كبير الحكماء رأسه فبدت عيناه لامعتين وفمه كالحًا ؛ لكنه ضم قبضته وانطلق يتكلم فى نبرات أكثر هدوءاً :

– من هنا تحتم عقد هذا الاجتماع الأخير .. مع ثلاثتكم .. ممثلين عن الجانب الفطن والذى يتسم بالحكمة والعدل من دول عالمنا ، لنسلمكم الأمانة البالغة الأهمية ، تلك التى نيط بكم أخذها ومن ثم تسليمها للجهات المعنية ، ألا وهى مجموعة المطالب المقدمة منا ، والتى لا تقبل النقاش بأى حال من الأحوال .

طغى الجد على قسمات الحكيم الأول أو كبيرهم وهو يستجمع أفكاره ويرتبها ، رفع يسراه يعبث بالخصلات البيضاء أعلى جبهته ، ورسم ابتسامة تكلم من خلالها :

– لكن فى المبدأ لابد من استعراض بعض النقاط ، بغرض تركيزها ومن ثم استخلاص جوهرها ، ولا مفر من التوقف لدى مجموعة من الحقائق بعينها ، لمناقشتها ، وإبراز مالها من أهمية بدلاً من إهمالها .

ثم شرع كبير الحكماء يملأ كوبًا بالماء من دورق قريب ، وقد راح راجى يرقب كل حركة تصدر عنه فى انتباه ، فى حين تشاغل يوسف بتفحص أركان الحجرة وأذنيه مرهفتين على آخرهما .

أخيراً جرع كبير الحكماء الماء واستطرد ونظراته التائهة تتجه حيث جلست وزميلاى عن يمينه :

– لقد شاهدتم يا سادة غالبية إنجازاتنا بمدينة القاع ولمستم مدى جهودنا من أجل بقاء البشرية وازدياد رفاهيتها .

غمغم يوسف منفعلاً : إن ما تذكره لا لبس فيه بالمرة ..

– أشكرك ..

قالها بلا وعى ، ثم بغير مقدمات راح الغضب الشديد يكسو وجه الرجل ، فأمسك الكوب وأخذ يدق المنضدة بقاعدتها :

– لكن .. للأسف .. فإن كافة ما نبذل من عرق ماله إلى ضياع لو اقتصر علينا وحدنا .. لو شمل مدينتنا القاعية دون بقية بقاع كرة الأرض ، وأن انتصاراتنا هنا هباء ، ولن تمنع إن عاجلاً أو آجلاً ، النهاية الحتمية البشعة التى نترقبها بنظرة العلم والمنطق .

انفرجت شفتا راجى يوجه كلمات هامسة قانطة إلى نفسه :

– وأى قوه تقدر على منع المأساة .. إن غول الحرب العالمية الثالثة .. النووية .. مهما استتر .. فهو واضح لأكثر الأعين غفلة ونعاساً .

ودمدم يوسف فى تأثر : أجل .. من يمنع النهاية الفاجعة .. من ؟

دوى صوت كبير الحكماء خافتاً ، لكنه بتاراً قاطعاً :

– قد نستطيع نحن يا سادة ..

صحت بدورى : كيف ؟

– كما قلت لكم قبلاً ، بأن نضع البشر أمام مسئولياتهم ، أمام الحقيقة المجردة بكل هولها ورعبها ، وحينئذ سيتعظ الحكيم ، ويستسلم الجبان ، ومن ثم فإن الحصاد جميعه بعدئذ يكون من نصيب السلام ، أما لو حدث العكس ، أما لو حدث غير ما نتوقع .

وكف كبير الحكماء عن لفظ المزيد من الكلمات المتقدة ، وانكمش فوق جلسته على طرف الأريكة يكاد يسقط من الانفعال .

لحظتها طرفت آذاننا نحنحة متقطعة فاستدارت رؤوسنا تجاه الصوت ، لنقابل بكلمات الحكيم الثانى حادة نارية ..

قالت : ليسأل كل منا نفسه يا سادة بصدق وإخلاص ، هل انتهينا من كافة مشاكل البشر على ظهر الأرض ؟.. هل داوينا كل آلام الإنسانية وعالجنا كل منغصاتها وكروبها وفواجعها ونقائصها ؟.. هل حللنا جميع طلاسم الحياة وتوصلنا لأسرار الوجود وألغازه ومعمياته ؟.. هل مددنا جذور الإنسان النقية إلى أنحاء الأرض .. سطحها وباطنها وتحت مائها ، ثم سمائها ، ثم بعيداً إلى أعمق أعماق الكون ؟ هل فعلنا إطلاقًا الذى ذكرت ، وفرغنا منه نهائيًا ، حتى نمل وجودنا فنتجه لإفناء بعضنا البعض ؟..

بينما تمتمت أنا مقروفًا : بل هل محونا سبل الغش والتلفيق والخداع للرأى العام ، بالذات حين تصدر من الدول الكبرى ؟

ولاحق الحكيم الرابع مرافقته وقد اشتملت عيناه ببريق مخيف : نعم .. هناك الكثير ، العديد ، اللانهائى ، الذى لم ينجز .

سدد الكبير أصبعه تجاه الحكيم الثالث بأسلوب عصبى

– والآن أعطنا أمثلة يا حكيم يا رقم ١٠٥ . ماذا يتراكم فوق أكتافنا وكواهلنا من مشاكل وقضايا دولية رهيبة وعاجلة ماتزال دون حل .

تناول الحكيم الثالث من جيبه ورقة مطوية ، شمل الحاضرين بنظرة فاحصة ، ثم قال مركزًا بصره فى برود :

– سوف أذكر عناوين القضايا فحسب ، وعليكم تحديد حجم كل قضية ومدى خطورتها كيفما يترائى لكم .

فرد الحكيم الورقة وراح يقرأ : قضايا عاجلة جداً ، سباق التسلح ، التجسس والإرهاب ، الاستعمار بشتى صوره ، التكتلات والأحلاف العسكرية ، التمييز العنصرى ، التلوث ، البطالة ، احتكار الدول الكبرى للإنجازات العلمية ، الأسلحة الذرية والبيولوجية ، نقص المياه العذبة ، الفقر ، المرض ، الجهل ، الجوع ، أمراض العصر ، الوثنية ، سيطرة الجنس ، النفايات المشعة ،إبادة البيئة الطبيعية ، النمو السكانى المتزايد ، أزمة الطاقة ، اختلاق الحجج لتبرير العدوان على الغير .

قلب الحكيم ورقته ومضى يلوك الكلمات : وهذه نماذج لعناوين قضايا أخرى أقل عجلة .. المخدرات والمهدئات ، الرفاهية المهلكة ، تعقيد الحياة اليومية ، السيطرة على مصادر الطبيعة ، والحد من كوارثها ، وعدم التفريض فى مخزونها ، أفلام العنف والجنس والرعب ، وانتشار القوارض والطيور والحشرات الضارة ، ازدياد العمى والصمم والعتة ، جرائم الشباب ، ازدياد الجريمة وحوادث الطريق ، تفاوت الثروات بين الدول ، ازدحام المدن والعواصم الكبرى ، الضجيج ، القحط ، قرب نضوب الخامات الطبيعية ، الآفات الزراعية ، الأمراض المستعصية ، وغير الذى ذكرت عديد ، يصعب حصره .

فى النهاية ، طوى الحكيم الثالث الورقة وهمهم قبل أن يجلس : ويعد .. المجال هنا لا يسمح بأكثر من تلاوة هذه العناوين ، فكل قضية أو مشكلة لكل عنوان إنما يستلزم لفحصها ودراستها أيامًا وأيامًا ، وهى من التعقيد والترابط بحيث عجزت المؤسسات التقليدية والسياسات الحالية عن علاجها ، وفى يقينى ، أن تقدم المجتمع الإنسانى مستقبلاً ، وربما بقاءه إنما يتوقف على السرعة والفعالية التى يستجيب بها العالم بهذه المشاكل .

وانبرى كبير الحكماء يقول :

– ألستم معى فى أن بحث أى من هذه الموضوعات ، مهما قلت أهميته ، لهو أنفع من كثير مما يتجه إليه الفكر الإنسانى حاليًا بإلحاح وإصرار كبيرين .. ألا يكون التوصل إلى مواد تتعادل – مثلاً – مع نفايات وعوادم وبقايا المواد المشعة خير لسكان كوكبنا من إنتاج ملايين الطائرات والدبابات وغيرها من عدد القتل والتدمير . وأما القول ، بأن إنتاج السلاح ضرورى لصد المعتدين فمردود عليه بسؤال بسيط ، وما حاجتنا للعدد الكريهة مادام السلام يعم ويحترم بحزم ؟

وأنسابت كلمة مرعبة من بين شفتى الحكيم الرابع :

– لاسيما أن الطاقة المدمرة لقنبلة هيدروجينية واحدة قد تجاوزت اليوم فى تأثيرها قنبلة هيروشيما الذرية الأولى بـ ٨٠٠ مرة !

قلت بعد تفكير : لن يتحقق ما تذكرون يا سادة .. ما لم يوجد القانون أو النظام الصارم الذى يحاسب العلماء والمسئولين حساباً عسيراً على كل خطوة علمية يقدمون عليها ، وهل هى فى صالح البشرية ، أم ضدها وضد أمنها وبقائها ؟

قال الحكيم الرابع مؤمناً : تماماً .. يتحتم يا سيد شادى أن يكون هناك رابط عام مشترك لكل ما يختص بحاضر ومستقبل الجنس البشرى ..

وتمتم راجى : الإنسان وحده سيد مصيره ، لهذا هيئة الله وهكذا يجب أن يظل عل الدوام .

على أن يوسف ترك المقعد ووقف على قدميه ، كانت قسماته الغارقة فى الجمود تدل على أنه غارق فى لجة عاتية من الأفكار المتصارعة .. أخيراً هز رأسه واستدار يواجهنا قائلاً :

– لكن .. ألا ترون فى تعدد نظم الحكم بين الدول ، وتنوع ما تعتنق من مبادئ وعقائد ونظم واتجاهات عقبة كؤوداً فى سبيل تحقيق هدفكم الأسمى .

هتف كبير الحكماء مندهشاً : ولم ؟ اسمع يا صديقى ، أن التعامل بين الدول فى أنحاء العالم لابد وأن يقوم على التعايش السلمى الصريح والفعلى ، كل دولة لها إطار الحكم الذى يرتضيه شعبها ، وكل دولة لها حدودها وثرواتها وإمكانياتها ، فلماذا الطمع فى ثروات الجيران ولما التدخل فى شئونهم ؟.. لا لا .. لا داعى لمناطق النفوذ والمكاسب والمغانم غير المشروعة .

عندئذ لم يملك الحكيم الرابع نفسه فقال : وما الفائدة التى تعود على نظام ينتصر على آخر .. إذا ما كان النصر مصحوباً بالإفناء ؟

قلت من بين أسنانى : لطالما أكد الفيلسوف الإنجليزى برتراند راسل ، أن الذى يستعد من الآن لإفناء الملايين بالضغط على زر صغير لا يستحق أن يبقى على قيد الحياة .

وأيد يوسف ما أقول بهمساته المطوطة التى تدل على تقوره واستهزائه الشديد :

– كذلك فإن سياسات التعايش والتقارب والوفاق وغيرها من سياسات المهادنة ، تصبح عديمـــة الفائدة طالما وجدت النية لتخزين السلاح الذى قد يستخدمه أى مجنون أو متهور فى أى لحظة زمان طائشة ، فيفجر العالم كما يفجر البالون بشكة دبوس يسيرة .

وتمتمت الحكيم الثانى : نحن لا يهمنا أن يسود نظام بعينه فى بقعة ما على سطح الأرض ، فكل النظُم والمبادئ حسنة أو كلها سيئة تبعًا لاستخدامها ، إنما الذى يهمنا هو مصير الإنسان ككائن بشرى ، وهذا وحده محور نضالنا .

وقال راجى : مشاعرى ليست غربية ، ولا شرقية ، إنما يجب أن تكون إنسانية .

لكنى اعترضت : ولم لا ننــادى بمزيــد من التقــارب بين الشــرق والغــرب ، ولم لا ننشد إلى جانب ذلك لقاء مثمراً بين العقول ووحدة خالصة بين القلوب ، فنحن إنما نقف على مشارف عصر جديد ، يتحتم أن تحسم فيه البشرية خلافاتها وتنبذ فيه صراعاتها من أجل الحفاظ على توازنها وسط تيارات عالم متغير الصورة كل التغيير عن ذى قبل .

تسـاءل يوسـف مفكـراً : تقصـد .. أننـا إنمـا نعيش فى فجر الجنس البشرى الـ .. العالمى ؟

بادرت الحكيم الثانى تقول : وما المانع ؟ مادام الجميع يقصدون السلام . من هنا فلتكن مهمة البشرية المعاصرة هى خلق الفكر الروحى الأساسى لوحدة كل البشر ، الذين خلقهم الله بالفعل على ظهر كوكب واحد ، من صلب آدم واحد .

عند هذا الحد شمل النشاط بدن كبير الحكماء ، فجأة قفز من طرف الأريكة المنجدة بحشيات الفلين ، فتح دولاباً قصياً أخرج منه مظروفاً كبيراً :

– عال ، عظيم ، لحسن الحظ أنتم تفهموننا جيداً .

ثم استدار والمظروف تحت أبطه يتابع :

– نأتى الآن إلى اللحظة الحاسمة .. كما أرى فإن ثلاثتكم ليس بينكم رئيس ولا مرؤوس .. حسن .. فأنا أقدم المظروف إلى أكبركم سنًا .. السيد راجى كومار وإن كنت أعنى تسليمه إلى ثلاثتكم معًا .

تناول راجى المظروف وقفت يوسف عن يساره وأنا عن يمينه ، ولما تمت عملية استلام المظروف وكذا عدد من الأفلام السينمائية الملونة التى تصور واقع الحياة تحت سطح البحر وعاد كل منا إلى مجلسه السابق ، راح كبير الحكماء يستطرد وقد عاوده جمود وجهه وتصلب حدقتيه :

– بالطبع فهمتم أن المظروف يضم بنوداً بكافة ما لنا من مطالب ووجهات نظر إلى المجتمع الدولى ، وكل الذى أستطيع قوله فى هذه اللحظة هو : أن مرحلة الرفض لم تعد تناسبنا اليوم ، لذلك فقد اتخذنا قراراً بأن نبدأ مرحلة التعبير .

بانتهاء كلمات كبير الحكماء وقفت الحكيم الثانى تدعونا إلى تناول مجموعة من السندوتشات التى هيئت كالعادة من نتاج البحر .

– لقد فضلنا هذه الوجبة الخفيفة بدلاً من الانتقال إلى حجرة الطعام المجاورة ، والسبب ترقبنا نبأ هاماً نود أن تشاركوننا فرحة تلقيه عبر النافذة المطلة على البحر من هنا .

وبالفعل وخلال تناولنا طعامنا صدر أزيز من جهاز قريب ، فأسرع الحكيم الثالث يفتح الطاقة البانورانية على اتساعها .

كنت أقضم ساندوتشًا بالجنبرى المسلوق ، وكنت أركز بصرى مثلما يركز الآخرون على القوام المعتم المترامى من وراء مادة البلاستيك الشفافة الحاجزة للمياه ، حينما رأيت ضفدعًا بشريًا يقود ما يشبه السيارة على رمال القاع ، ورأيت أيضًا بالونًا أو كرة معدنية ضخمة حملتها السيارة فى خلفيتها .

على بعد نحو مائة متر توقفت السيارة .

هبط الضفدع بلباس الغوص الذى يرتديه ، اتجه إلى المؤخرة ، حرك الكرة فبدت مقيدة بسلك رفيع أخذ يطول كلما ازداد صعودها لدى ارتفاع ٥٠ متراً كفت الكرة وقبعت ساكنة .

حينئذ أطلق كبير الحكماء آهة ارتياح واندفع يقول فى حماس :

- هذه إحدى مبتكراتنا العلمية من أجل الإنسان ، إن التى ترونها .. كرة ضخمة من معدن رقيق نصف شفاف ، يملؤها خليط من غازات متجانسة ، فإذا ما سلطت عليها شحنات معينة من أشعة الليزر فإنها تتوهج ، وبالتالى مثلما تفعل المصابيح تنير ما تحتها ، مع فارق واحد أنها مصابيح عملاقة ، تشبه شموساً صغيرة .

ولم يكمل الرجل قوله إلا وراحت الكرة تبيض وتتألق ، ثم إذا بها تشع ضوءاً باهراً يوازى ما يطلقه ألف مصباح من ذوى القوة ٥٠ شمعة .

وفى الحال ، سبحت المنطقة فى ضوء يقارب ضوء النهار ، تغشاه لمسة ضبابية أو عكرة مائجة ، بينما تطلعت ملايين الأعين لملايين الكائنات الهائمة دهشة معشية تتفحص الوافد المبرق البخيل ، تحاول معرفة كنهه ، أعدو هو أم صديق .

أما مشاعرى الخاصة فلم تهتز ولم تستثر ، فقد عودنى وجودى بين هؤلاء القوم على تقبل كل جديد ، والاقتناع به فى سهولة ويسر ..»

* * *

« الاثنين ٥ يوليو عام ٢٠٩٩ - فجراً .. »

على الرصيف البحرى «مرفأ المرجان» ، وقف جمع خفير يرتدون حللهم الزيتونية المميزة ، بينما كان راجى ووراءه يوسف ثم أنا ندلف إلى جوف الغواصة الحارس رقم ٦ .

من بين الوجوه الودودة الواجمة احتضنت عينى وجه ماهيتاب حزيناً تأبى أن تفارقه .

جذبني أصابع يوسف فى رفق إلى داخل الجسم المتأرجح ، فأسرعت أسبق رفيقى إلى «الطاقة» ، وأنا أعرف طريقى بداخل ممرات الغواصة ، لأطل على القوم الذين نفارقهم ، وشاهدتهم بعد برهة كما تركناهم لم يغير واحد منهم موقفه ، لم يكونوا يلوحون ، ولا وقفوا يتصايحون أو يتبادلوا الهمسات ، حركة واحدة لم تكن تصدر عن أحدهم ، لكن جمودهم ، وتصلبهم فى اتجاهنا كان أوقع من كل لغة ، وأبلغ من أى كلام .

وبعد برهة من الزمن طالت وبعدت ، أخذت الغواصة تتراجع إلى الوراء فى هدوء ، ثم استدارت لتنفذ من مجموعة بوابات معادلة الضغط ، وغابت أخيراً الرؤى عن عينى ، لكن مخيلتى ، مع كل نبضة واهنة يرددها قلبى وكل نفس ثقيل تعتصره رئتى كانت ما تزل ترى أوضح وأكثر تركيزاً كافة المشاهد التى لن تفارقنى ما حييت ..»

* * *

القسم الرابع

رسائل خمس بعضها معطر

الفصل الأول

الرسالة الأولى

الجمعة ٦ أغسطس سنة ٢٠٩٩

عزيزتى ماهيتاب

هل حقًا فارقتك بمثل السهولة والسرعة التى تمت ؟ هل حقًا لم أعد أراك ؟ لم أعد ألمس أصابعك ! أسمع صوتك أو أتنسم عبيرك أو حتى أترقب مقدمك . كيف ؟ لقد عرفتك منذ أيام معدودات .. بالضبط منذ ٤٥ يومًا هى المدة من ٢٣ يونيو إلى اليوم .. فكيف استحوذت على فكرًا وكيانًا خلال سويعاتها القليلة ؟ ولكنى موقن الآن كما أوقن من ضوء الصباح وعتمة الليل أنك كنت وعلى الدوام تستقرين بين أضلعى منذ زمن بعيد ؟ موغل فى النأى ، موغل فى التشبث .

وأنها الحقيقة المرة ، الموحشة ، أو هى طبيعة الحياة ذاتها لا شىء يستقر على حال ، وتبقى حينئذ صورتك الحية فى صدرى رفيقا ومؤنسا ، متجددًا .

حسب وعدى .. فهذى هى سطورى الأولى إليك ، ولا أدرى كم سأخط غيرها وإلى أن يحين اللقاء المرتقب الذى نستغنى بعده عن التراسل . ولأنه لا يوجد خط بريدى أو هاتفى يربط مقركم ببقية دول العالم وحتى تظل السرية شاملة ذلك المقر الحيوى الذى يضم جماعتكم ، فقد تم الاتفاق بيننا كذلك على تبادل رسائلنا عن طريق تسليمها إلى رقم ٢٩٠ شخصيًا . ولما كان موعد مجئ رقم ٢٩٠ إلى القاهرة قد

حددناه بالأيام العشرة الأولى من شهر سبتمبر القادم فإننى أجد فسحة من الوقت لأخط إليك الكثير عما وقع ويقع حولى بأنحاء معمورتنا من أحداث جسام ، وأيضاً .. وربما الأهم ، لأبثك مكنون قلبى ووقدة مشاعرى وأفكارى .

ولعل أبرز ما صدمنى ورفيقاى راجى ويوسف مما لم نجابه مثيلاً له طيلة حياتنا .. بل وقد فاق فى غرابته وعجبه رحلتنا المذهلة إلى مدينة ذاتها ، تلك الحملة النفسية المرهقة للغاية ، التى تعرضنا لها بلا رحمة منذ الدقائق الأولى لعودتنا .

ليلة السابع من يوليو كان طفو الغوصة الحارس رقم ٦ . فمن خلال ساتر الضباب وعبر نطاق للجدار الموجى أطلق فى الجزء الشمالى الشرقى من خليج بسكاى الشهير .. فى مواجهة الميناء الفرنسى نانت وعلى بعد ٦٠ ميلاً بحريا منه ، برزت غواصتنا وسط موج رائق وسماء صافية يرصعها قرص متألق طال شوقنا إليه . وأنزل طوفنا الأحمر إلى اليم . وفى نهاية ٢٠ دقيقة لمحتنا إحدى طائرات السواحل النفاثة الضخمة فأقبل على الفور زورق فرنسى من حاملى الصواريخ الممغنطة وانتشلنا ، ومع انتشالنا لفتنا عشرات المرئيات غريبة ملحة رغم ألفتها ، وكأننا قد انقطعنا عنها مئات من الأيام الطوال المتباعدات .

وبمجرد أن أعلن نبأ ظهورنا سارعت أكثر من دولة إلى بذل المستميت من المحاولات لتوجيه مسارنا إلى موانيها ، وقد وصلت إحدى المحاولات حد الشروع فى اختطاف ثلاثتنا من على ظهر الزورق الفرنسى ، ولولا يقظة الضباط الفرنسيين وإصرارهم لما أمكن توصيلنا لوجهتنا سالمين .

وقد استقر رأى ثلاثتنا فى المبدأ على أن يتوجه كل منا إلى بلده مباشرة .. وبالفعل بلغت فرحتى ذروتها وأنا أرتب أمرى على رؤية القاهرة خلال ساعات قليلة .. لكن برقية عاجلة من الحكومة المصرية وكذا برقيتان إحداهما من حكومة الهند، والثانية من حكومة يوغوسلافيا غيرتا اتجاهنا ، فقد أصرت حكوماتنا منعًا لأى لبس أو قول مغرض أن يكون توجهنا رأسًا إلى مقر المنظمة الدولية بنيويورك .

هكذا وبعد تعرضنا لإجراءات فحص طبى دقيق شملت قوانا العقلية وأنحاء مختلفة من أجسادنا وكأننا آتون من رحلة مريخية ، وبعد أن تأكدوا تمامًا من عدم وقوعنا تحت تأثير غسيل المخ ، سمح لنا ظهيرة اليوم التالى أن نقدم تقريرنا المفصل عن رحلتنا العجيبة إلى مقر العلماء الشبان السرى ، حيث تختفى مدينتهم الأسطورية مستقرة على قاع البحر .

بعدئذ وبلا توان وفى أكثر من مكان وموضع خارج المبنى المهيب الذى يضم ممثلى دول العالم .. واجه ثلاثتنا الهول الذى لم يكن يخطر ببال واحد منا .

أنا نفسى تعرضت لسيل لا ينقطع انهماره من الأسئلة المحمومة المموجة المتلاحقة كطلقات مدفع رشاش .. من أكثر من مائتى عميل بمخابرات الدول المختلفة .. تستروا كلهم تحت هويات مراسلى الصحف والإذاعة والتليفزيون ووكالات الأنباء ، بالإضافة طبعًا إلى الصحفيين والإذاعيين الحقيقيين .. بل وأسئلة عشرات الفضوليين من جنسيات مختلفة ...

وكانت كافة الاستفسارات تدور وتلف لتنتهى نفس النهاية .

– وأين جرى كل الذى تذكر ؟

– فى مدينة القاع ...

– أه أى نوع من المدن هى ؟

– إنها مدينة من طراز فريد بنيت دورها وعمائرها أسفل البحر على صفحة قاعه .

– تقصد تكونها من مبنى أو مبنيين ؟

– بل مدينة كاملة ، مترامية ، بنفس المواصفات وعلى نفس الصورة التى جاءت بتقريرنا .

– عظيم . فأين موقع هذه المدينة الغريبة ؟

– لا أعلم .

– كيف تكون قد أقمت وصحبك بها كل هذه المدة وتفقدت غالبية جوانها كما تذكر وحادثت الكثيرين من سكانها .. بل وأتيحت لك فرصة الطيران فوق موقعها ، ومع كل ، لا تستطيع أن تحدد أين يوجد الموقع ، أهذا معقول ؟

– أنه عين ما حدث .. وإلا فكيف يمكنني تحديد موقع ما بلا خبرة أو أدوات ، ووسط مياه مالحة تتلاطم على مرمى البصر في جميع الاتجاهات .

– ألا يجوز أن يكون ذلك الموقع قريباً من أي من القطبين .

– لا أظن ..

– فهل هو بقرب خط الاستواء ؟

– وهذا التقدير استبعده كذلك .

– فهي إذاً قرب أو باتجاه شاطئ قاري يمكن تخمينه .

– ذكرت قبلاً أنني لم ألمح شواطئ بالمرة .

– فهل أتيح لك أن تلمحها أثناء قدومك أو عودتك بغواصتهم ؟

– كانت الغواصة محكمة الانغلاق علينا .

– وتقديرك الزمني لسير الغواصة ألم يهدك لشيء ؟

– لا ...

ويظل النفي هو الرد الوحيد الواضح على هذه الأسئلة المغرضة ، ثم كان في أحيان يفاجئني بسؤال استفزازي على النحو التالي يبرزه إطار من السخرية مقصود.

- فهل اعترفت أن موقع هؤلاء العلماء المزعومين إنما هو خرافة من أساسه ؟

فأضطر للإجابة مختنقًا : وماذا عن الصور الفوتوغرافية وأشرطة التسجيل أهى خرافة بدورها .. وإلا فأين تظنون كان التقاطها ؟

وفى ختام أيام عشر مضيئات مرهقات فقد وجدت الحصيلة ، وكما قدرت وقدر رفيقاى .. انقسام مريع يصيب سكان كرة الأرض من مشرقها إلى مغربها .. انقسام يسود بنسبة ثلثين إلى ثلث واحد . ثلثا البشر اندفعوا بلا وعى يؤيدون السلام تحت أى ظروف أو اشتراطات مهما تكون بينما تعمهم فرحة ساحقة غامرة ، فى حين وقف الثلث الباقى موقف المتشكك المعترض لكل ما جئنا به من أقوال ومطالب وبراهين . وكان الثلث الأخير يمثل فى ذات الوقت الجانب الشرس من الانقساميين بين الناس .

عزيزتى ماهيتاب .. وفيما يختص بمطالب جماعتكم من العلماء - الذين أصبح ذكرهم حديث دهشة وذهول على ألسنة الناس فى كل مكان - فقد فض المظروف المحتوى على نقاطها والذى سبق وتسلمناه ليلة مفارقتنا مدينتكم ، يوم الجمعة الماضى ٢٣ يوليو مساء ، فضته لجنة دولية عليا ، وقامت بنشر فحواه عشية نفس اليوم فى صحافة وإذاعات العالم أجمع .

ومن بين قائمة مطولة ضمت أكثر من ٤٠ مطلبًا للعلماء أجمل لك أهمها ، وأنا على يقين من عدم علمك بها مثلك مثل غالبية جماعتكم ، ممن لم يصلوا بعد إلى الدرجات القريبة من فئة الحكماء واضعى المنهج السياسى الذى تتبعونه .

وقد نصت المطالب على عقد معاهدة سلام عالمية تلتزم بها كافة دول الأرض مع فرض عقوبات رادعة على من يخرقها ، ومع سريان المعاهدة فور توقيعها ، واقتراح الجماعة يوما لهذا التوقيع هو الأول من الشهر القادم سبتمبر عام ٢٠٩٩م .

والمعاهدة تؤكد نصًا وروحًا لكافة الأهداف العامة فى ميثاق الأمم المتحدة مع عدم المساس بموادها التى بلغت ١١١ مادة ، فيما عدا البند المتعلق بمجلس الأمن فهناك مطلب للجماعة بقصر عضويته على الانتخاب بواسطة الجمعية العامة وإلغاء تواجد

خمسة دائمين به كلية ، كما توجب المعاهدة المفروضة أن ينال الإنسان أينما وجد على ثرى كوكبنا حقوقه كاملة كما جاء فى إعلان حقوق الإنسان فعلاً وليس قولاً ...

كذلك تنص المعاهدة على إعادة النظر فى القوانين المطبقة حالياً لتنظيم العمل فوق وتحت أسطح البحار فى أعقاب التغيرات الأخيرة ، وتنص على ضرورة إتلاف المخزون النووى من قنابل ذرية وهيدرجينية متباينة ، وكذا القنابل الغازية والميكروبية والكيميائية مع التوقف عن إنتاج كل ما هو محرم مستقبلاً . ومع العمل فوراً على فك أجزاء المفاعلات الذرية ومصانع المياه الثقيلة والاقتصار على استخدام الذرة فى المجالات السلمية فقط ، ويحد كذلك المخزون بترسانات السلاح من كافة أنواعه وأحجامه ويقصر على الدفاعى منه حسب معدلات ثابتة لكل دولة ، وطبعاً الكف عن التجارب الذرية والبيولوجية وغيرها .

وفى النهاية فقد فرضت المعاهدة استخدام عقار «الحب» على النطاق العالمى إجبارياً ، بحيث يتناول جرعاته الأطفال منذ عامهم الأول وحتى سن ١٤ عاماً . ولكن يا عزيزى ما هى حقيقة هذا العقار وفيم وجوب استخدامه ؟ إنهما سؤالان بلا أجوبة إلى أن يأتى تتفسير من عندكم .

على أن أغرب ما طلب علمائكم تنفيذه والأكثر مدعاة للحيرة على الاطلاق ، ذلك ما نصت عليه المادتان ٢٦ و٢٧ من المعاهدة بشأن السماح لعلماء الجماعة بنقل بعض من مظاهر حضارتهم القاعية – على دفعات – إلى المنطقة من غرب أستراليا .. فيما بين خطى العرض ٢٠ د شمالاً و٣٠ د جنوباً وخط الطول ١٢٩ د شرقاً إلى شاطئ المحيط غرباً ، وتعتبر هذه المساحة من القارة الأسترالية أكثر جهاتها جذباً وندرة فى السكان والعمار ، وأما الهدف من تلك الظاهرة أو الاستيطان فى صورة غزو سلمى ، فقد فسرته الجماعة رسمياً «بأنه إنما لتحويل المنطقة إلى نموذج واقعى لإنجازات الجماعة المخلصة من أجل الإنسان» .

الاثنين ٩ أغسطس ...

عزيزتى ... ما تزال دوامة الأحداث الحاشدة منذ قدمت ورفقاى مدينتكم القاعية وفيما بعد مفارقتنا لها وإلى ساعة كتابتى سطورى هذه تطوينى داخلها فى عنف وشراسة ، فإذا ما استغرقت لحظات أخلو فيها إلى نفسى فإن شريط الرؤى المذهلة خلال أيامنا المشحونة لديكم يفرض وجوده فوراً على مشاعرى .

خلاف ذلك فإن إقامتى فى المدينة الأمريكية الكبيرة يدفعها طابع الخوف والملل .. الخوف من كل شخص أقابله خشية أن يكون صحفياً أو مراسلاً لإحدى وسائل الإعلام التى لا حصر لها هنا ، وأما الملل فلتكرار الكتابة عنا ونشر صورنا .. كأنه لا حديث للعالم – فى الأونة الأخيرة – إلا عن الثلاثة المغاوير ، الذين إما أن يكونوا أبطالاً خارقين ارتادوا أخطر بقاع الأرض غموضاً وفاجأوا البشر بأهم نبأ يلف كرة الأرض فى تاريخها الحديث ، ويفوق نبأ التأكد من وجود نوع من الحياة الدنيئة بكوكب المريخ ، وإما أن يكونوا أمهر من عرف من الدعاة المخرفين على الاطلاق .

هذا وما يزال كذلك استغلال الصحافة ووسائل الإعلام الأخرى مؤرقا بالنسبة لنا .. فعلى سبيل المثال قد أدليت وحدى حتى الآن بعشرات الأحاديث وأضطررت للظهور فى العديد من البرامج المذاعة .. وأستطيع أن أؤكد أن صورتى وراجى ويوسف أصبحت السمة الظاهرة بكافة الأغلفة والصفحات الأولى لصحافة العالم ، ولشدة تأففى وشدة إرهاقى قد لجأت مؤخراً إلى تسجيل كلمات مسهبة على (كاسيت) أسمعها لكل من يقصدنى توفيراً للمزيد من تحريك شفتى .

ويبقى يا ماهيتاب

أن أغلق علىَّ باب حجرتى بفندق «بلازا» حيث أقيم فى نيويورك فلا أعود أكلم أحداً قط .

الثلاثاء ١٠ أغسطس ...

في ساعة متأخرة من مساء اليوم ، أعلنت الدول الخمس الدائمة بمجلس الأمن رفضها البات لمطالب جماعة العلماء . بل انفردت الولايات المتحدة الأمريكية بإصدار بيان فاتر يعلن أن سلطات الأمن ومباحث الجيش قد بدأوا بالفعل في تعقب الجماعة المتمردة أينما يختبئ أفرادها .

الأربعاء ١١ أغسطس ...

عزيزتي .. كما لو كانت السماء قد صبت جام نقمتها من حيث لا يدري أحد . كما لو أن طوفان نوح اجتاح أركان الدنيا من جديد ، أو أن الأرض انشقت والتربة غارت والجبال تصدعت وهوت ..

كما لو أن كوكبًا شاردًا انجذب ، اندفع ، التقى وكوكب الأرض في انفجار مدمر مهول .

فقد اندلع غضب الجماعة من علمائكم بغتة . فإذا به بالغ الوطأة ، مريعا ، جارفا .

فقبل ظهر اليوم بساعة ونصف إذ بكافة أجهزة الراديو والتليفزيون في النصف الشمالي من كرة الأرض تفتح جميعها ، تبدأ التشغيل ، وتبث من تلقاء نفسها إنذارًا جديدًا لهم ، حددوا فيه هذه المرة ضربة نووية هائلة .. تصيب قاعدة المراقبة الفضائية الأمريكية الكبرى «بوادي الموت» وهي المنطقة بقلب صحراء موجافي الأمريكية الواقعة إلى الشمال من شبه جزيرة كاليفورنيا فتمحوها ، وذلك بتوجيه واحدة من مئات القنابل المدارية الأمريكية – وليس الروسية – والتي تلف السماء حول الأرض بعد السيطرة عليها بوسيلة خفية .

فإن ظل مجلس الأمن على عناده فقنبلة نووية ثانية تنفجر في اليوم الخامس ، بمكان قاعدة عسكرية بريطانية على جزيرة بحرية ، ثم انفجار ثالث في عاشر يوم بقاعدة فرنسية ، وهكذا حتى يذعن المعترضون .

على أن الإنذار لم يعف الدول الأخرى الدائمة بمجلس الأمن والأمم المتحدة عامة من مسئوليتها ، بناء عليه فقد انذروا بدورهم .

وأما موعد إجراء التفجير النووى الأول بوادى الموت فقد تقرر بعد مرور ١٢٠ ساعة من إذاعة نص الإنذار ، أى مدى خمسة أيام كاملة وهى المدة الكافية لإجلاء الأفراد حول منطقة التفجير .. بدائرة قطره مائة وخمسين كيلو متراً .

كما أن الإنذار لم يخل من الإشارة إلى وجود إجراءات ردع أكثر شراسة ، قد يضطر موجهوا الإنذار إلى اللجوء إليها ، وأكثر ما جاء سخرية بالإنذار فهو تأكيد مرسليه عدم صنع مدينة القاع لأى أداة هلاك وإنما الأمر كله لا يخرج عن قدرة هؤلاء العلماء على السيطرة ومن ثم استخدام نفس ما تنتجه الدول من أدوات قتل وتدمير ..

* * *

الأحد ١٥ أغسطس ...

رباه ، رغم محاولات الأمريكيين والإنجليز والفرنسيين المحمومة والخارقة لحماية أنفسهم ، والتى لم يسبق لها مثيل بإعلان حالة التأهب الجدية القصوى لقواتهم وقواعدهم وأساطيلهم بمختلف أنحاء العالم ، ورغم محاولة إبعاد بعض الأقمار حاملة القنابل المدارية عن مجالات تحليقها القريب من المنطقة التى حددها الإنذار .

فقد انخلع قمر صغير داكن من مساره القصى ، وهو القمر الصناعى من طراز «الشرس» ورقمه ٤٠٨ ، والذى انفلتت منه حالاً قنبلته النووية زنة ٤٠ ميجا طن ، وانقضت إلى عمق البقعة المخفية المسماه بوادى الموت بعد إخلائها من سكانها تماماً. وسرعان ما اهتزت صحراء موجافى ، ليسمع تردد أصداء هدير عال مرعب يؤذن بحلول نقمة لا قبل للإنسان الهش بمجابهتها .

ماهيتاب ، وإنه ليصعب عليَّ ، بل يستحيل ، أن أقوى على وصف ما ساد العالم آنذاك من ضجيج وصخب ومشاعر تتخبط وتتضاد ثم تتداعى بلا هدف ظاهر ، وبالذات ما عم سكان كاليفورنيا من هلع تبلور فى شكل هجرة محمومة بعيداً عن حدود الولاية .

أما السلطة الحاكمة فأظنها قد وقعت فى حيرة مرة لم تجابه مثيلاً لها فلا أثر إطلاقًا ، ولو لهمس ضئيل يشير إلى أن جهة ما قد صدر عنها الاعتداء . وعلى الأخص فقد ظلت مساحات المياه المالحة باتساع وترامى بحار دنيانا ومحيطاتها على صمتها الأزلى ، تأبى الأفصاح عن بؤرة خفية تعرف بمدينة القاع .

وبقدر ما كانت ضربة علمائكم محكمة وموجعة بقدر ما كان تخبط حكومات الدول وتوجسها واضحًا وملموسًا .. فى كافة ما يصدر عنها من تصرفات حتى الخافت المكتوم منها .

ولتضحكى معى – فإن أكثر دول العالم جعجعة وجموحا وتعدى على الغير ، وأكثرها استعراضًا وتفاخراً بنيران أسلحتها القتالية بما يفوق ما لدى الدول الكبرى ذاتها !! وأعنى بها إسرائيل – فإن مسئولاً واحداً من صقورها لم يدل بأى حديث ، وكأنها قد خرست كلية ولم يعد لها وجود على خريطة الدنيا .

وهكذا وفى أعقاب واحدة من أخصب جلسات مجلس الأن ، والتى استغرقت ٣٠ ساعة كاملة دون توقف .. صدر فى النهاية بالإجماع أغرب قرار فى تاريخ المنظمة الكبرى ، بل وفى تاريخ البشرية ربما منذ عرفت أول دبيب لها على وجه الأرض .

وكان القرار «الموافقة على طلبات الجماعة كلها : على شريطة أن يقدم هؤلاء المزيد من الضمانات التى تؤكد قيام الجماعة بالمثل بنسف أسلحتهم المطورة حال التأكد من تنفيذ مطالبهم» ..

وأكاد لا أصدق إدراكى لصدور قرار مجلس الأمن هذا .

فهل يكون هذا يا عزيزتى .. وبحق .. أول اعتراف صريح .. باقرار السلام الفعلى بين ربوع عالمنا المثخن بالجراح .. السلام الذى لم يتذوقه أحد صافيًا خالصًا قط من قبل ..

إننى لعلى يقين أن الإرغام والقسر هما الدافع لتحقيق الحلم المنشود ، لكن يتبقى رجاء ملح ، فإن تذوق حلو السلام الحقيقى ، الدائم ، والقائم على العدل ، كفيل حتمًا بتأكيد ذلك المطلب الأزلى ، وتفريغ أغصانه الوارقات .

الأحد ٢٩ أغسطس ..

كانت السماء صافية الأديم زاهية .. فيما عدا حزمة من سحب السمحاق الهشة الضاربة إلى البياض ، بدت كأشرطة امتدت يمينًا فى الطبقات العليا باتجاه من الشمال إلى الشرق ، وبالرغم من انتشار الأشعة الذهبية وسكون الهواء من حوالنا ، فقد مال الجو نحو البرودة لارتفاع القمة الجبلية التى نعتليها .

وتململ محدثى الدكتور مصطفى حمدى وهو واحد من أقدر علماء مصر فى فنون الهندسة والتشييد ، وخفض بصره يحدق فى اتجاه الغرب نحو الوادى الفسيح الرابض رحبًا مهابا بامتداد من الشمال للجنوب .

أتكأت على حافة السرر المنحوت فى أديم الصخر ، ورحت أتفحص محدثى ، كان يناهز الخمسين من عمره ، أبيض محمر البشرة ، ذا جبهة بارزة وأنف أقنى دقيق وفم رفيع الشفتين يدل على التصميم وحدة المزاج ، ومن أعماق عينيه الشاردتين وبنظرة فنان مرهف ، بمقدوره أن يستدعى المعجز من النماذج وفى أجمل التصاميم والأشكال ، انحنى يتطلع إلى بعيد .

قال : أظنك جئت بالعموبية .. لم تجرب التلفريك الجديد بعد ؟

ولما أومأت بالإيجاب ، أضاف وهو يهز رأسه هزات جانبية قصيرة :

– إذاً فلا تدع الفرصة تفوتك .. استقله لدى العودة فإن مناظر بعض الجبال بقممها الملساء .. والوديان بكل ما تحوى من عجيب النبات والحيوان والطير .. بارتفاع جبل صباغ ٦ آلاف قدمًا حيث نقف .. وهبوطًا عبر القمة والتبّات السكنية وإلى أن تصل شاطئ البحر الأحمر على بعد ٣٥ كيلو مترًا .. إما غربيًا فى (رأس جاده) أو جنوبيًا فى (رأس محمد) أو شرقًا من نبق ، هذه المناظر حافلة وساحرة لأقصى الحدود ..

قلت وأنا أطوف بمخيلتى : سوف أفعل إذاً .

استطرد : كذلك ستجد نفق العبور أسفل مياه البحر الأحمر ، بين «أبو درية» على الشاطئ الغربى المقابل ، شيئًا تجدر مشاهدته .

فتحت عينى : لقد رأيت نفق القنطرة والسويس ، مررت خلالهما عبر القناة من تحتها .

ركز بصره على : لا ، هناك فارق كبير بينهما وبين نفق البوابة ، أن الأولين لا يزيد امتداد أطولهما عن ٥٠٠ مترًا ، كما أن عرض كل منهما ١٨ مترًا فحسب ، وهو ما يسع معًا لوحدة قطار وسيارتين ذهابًا وإيابًا .

وصمت قليلاً ثم أضاف وقد مط شفتاه افتخاراً : أما نفق البوابة الكبرى .. الذى شرفت على تصميمه وتنفيذه بنفسى ، فشىء مختلف بالمرة .

قلت : لابد أن يطول بالفعل لاتساع صفحة البحر الأحمر عند موقعه .

– بل إن طول هذا النفق بالتمام ٤٠ كيلو مترًا ، واتساعه عرضًا ٣٥ مترًا ، هذا بخلاف صلابة جدرانه المصفحة وطريقة تثبيتها على قوائم خراسانية ترتفع عن قاع البحر بـ ٥ أمتار إلى ١١ مترًا ، وتقدم فى هذه الأثناء اثنان من أمهر مساعدى الدكتور .. المهندس محمد حسن والمهندس محمود حافظ ، وبدا أنهما يبغيان مشورته فى أمر عاجل راحا يستعرضانه على لوحة زرقاء فردها المهندس الأكثر نحافة محمود حافظ .. والذى راح يشير بأصبعه إلى خطوط بها .

كنت والدكتور في وقفتنا على حافة الجبل نعطي ظهرينا لواحدة من أكثر إنجازات العصر حداثة وتألقاً ، مدينة النور السياحية ، التى امتدت عمائرها فيما يشبه قطاعا بيضاوياً يستقر منفرجاً من طرفه الشمالى بأعلى قمة جبل صباغ المكمل لجبل موسى أشهر سلسلة جبال طور سيناء ، والذى ناجى النبى موسى - عليه السلام - ربه من فوقه .

حين استدرن طالعتنى الأبنية النموذجية والدور ذات الجدران المسامية الماصة لأشعة الشمس ، وكانت تتوسط المدينة حديقة منسقة مترامية تبرز من وسطها بدورها منارة شاهقة الارتفاع ، والتى عدت منذ إقامتها أعجوبة القرن الفريدة ، ويشع برج المنارة الفولاذى بارتفاع ١٢٦٠ قدماً من قمته أضواء عظيمة تنسكب بحزم ضوئية دوارة يمكنها اختراق أستار الظلام من ارتفاع ٥٨٢٣ قدماً - ارتفاع المنارة والجبل - لمسافة ١٣٥ كيلو متراً بعد انعكاسها على ١٧ مرآة عملاقة تنتشر برأس سيناء الجنوبى من غربه فجنوبه إلى شرقه ، وبذا يمكن مشاهدة وميضها بشمال البحر الأحمر وعبر خليجى العقبة والسويس ، وفيما ورائها على الشاطئين السعودى والمصرى وعلى اتساع قلب سيناء فى الشمال .

ولم يكن إقامة المنارة بغرض إرشاد السفن المارة أو توجيه عابرى طرق سيناء ومسالكها المتشعبة ، بقدر ما قصد به أن يكون واقعاً مجسداً لإشعاع النور العربى رسولاً للأمن والطمأنينة ، ورمزاً للأمل والصفاء عبر القارتين المتعانقين أفريقيا وآسيا .

التفت إلى الدكتور مصطفى حمدى بعد أن تركه مساعداه ، أخرج غليونه الضخم وقال بينما يشعله :

- إن قاعة الطعام بالكازينو الذى شيدناه على واحد من السفوح الشرقية أريدها أكثر بروزاً ، تطل من عل ومباشرة على البحيرة الصناعية التى ترويها مياه العيون بالوادى المزهر تحتها .

قلت مداعيا : ومن أجل ذلك جئت تشرف بنفسك على التنفيذ .

ثم سرحت بفكرى وأنا أتأمل برج المنارة يطاول السماء بقممه اللامعة حاملة العسات العملاقة ، فى حين اختفت قاعدته الجرانيتية وراء مجموعة الفلات حديثة الطراز .

همست :

– كم أود لو أمضيت بقية عمرى ، بواحدة من هذه الدور .

ضحك : وما المانع ، مدينة النور لم تعرف بعد أزمة السكن !

تساءلت : إلا يبلغ تعدادها ١٠ آلاف نسمة .

– بل ١٤ ألفًا ، ومشروعات تعميرها تهدف فى المستقبل القريب إلى ٢٥ ألفًا .

– إذًا .. .. ..

قاطعنى مبتسمًا : بالطبع فى مقدورك امتلاك واحدة من فيلات الدفعة الرابعة الجارى إعداد خرائطها .

وجرى بنا الحديث عاجلاً إلى واحد من البيانات الهامة عن الإسكان ، والذى قصدت الحصول عليه وعلى غيره بالقدوم إلى هذه البقعة من أرض سيناء .

عزيزتى ماهيتاب .. كان لابد من هذا التقديم لأعطيك نفس الرؤية التى قابلتنى ونفس الانطباع الذى عمنى ، وأنا أزاول أولى مهامى عقب عودتى لبلدى .

ففى ليل الخامس عشر كان انفراط عقد ثلاثتنا راجى ويوسف وأنا وعناق ثم وداع بعضنا البعض .

حيث اتجه كل منا بكل الحنين الذى يدخره منذ صراخه فى المهد رأسًا إلى بلدة .

وهكذا أخيرًا ، رحت استحث الكنكورد الفرنسية النفاثة التى استقلتها إلى حيث التراب الغالى على أرض مصر .

إلى حيث التسعة أعشار من النفس يتخلف متشبثا دواما بأرض الوطن ، ويظل يلح فى إصرار ومناجاة حتى يستدعى بقيته ، ليعاود الالتحام العذب من جديد ..

وإذ احتوتنى منذ وطئت مطار القاهرة الدولى دوامة جديدة من المقابلات والاجتماعات الهامة على أعلى المستويات ، وإذ ضغطت على موجات وراء موجات من الأهل والأصدقاء وأيضًا من رجال الإعلام لدينا ، فإننى قد انفلت من ذلك جميعه ، وقدرت – بعد أن قدمت تقرير إضافيا لوزارة الخارجية – أن أعود إلى مزاولة عملى الأصلى بوزارة البحث العلمى .

وها أنا ذا وعلى متن الطائرة العمودية الضخمة التى أنتجتها مصانعنا بالمعادى أتوجه لتفقد مدينة النور السياحية المشيدة حديثًا على واحدة من قمم جبل موسى بجنوب سيناء ، ولعل إقامة هذه المدينة بكامل معالمها الحديثة إنما يمثل الذروة فى سلسلة الإنجازات المهولة التى لحقت بشبه الجزيرة .

فقد سبق تشييد مدينة النور أن أعيد بناء مدن القناة الرئيسية السويس ، وفايد والإسماعيلية ، والفردان ، والبلاح ، والقنطرة . على ضفة القناة الشرقية . كما أضيفت إليها مدن عدة تحيطها أعداد من القرى المتناثرة إلى الداخل بمسافات تبعد بين ٢٠ و١٠٠ كيلو متراً شرقى الضفة الشرقية .

وهكذا مع مطلع عام ٢٠٧٨ فإلى جانب إنماء مدن القناة التقليدية وتحول الشمالى منها إلى مصايف عالمية ، فقد بدأ ثلاثة آلاف عالم وفنى فى تنفيذ برامج تخطيط وبناء المدن الجديدة على الضفة الشرقية وبعمق سيناء وطول سواحلها وحدودها .. إلى جانب إقامة عشرات المواقع العلمية والصناعية فيها .

وتنفيذ مشروعات استصلاح مليون فدان جديدة بطول سواحل سيناء وجهاتها الشمالية والشرقية والغربية وحتى رأس محمد فى أقصى الجنوب ، مع تزويدها بمصادر المياه اللازمة ببناء أكبر محطة إعذاب مائى على ساحل البحر الأبيض بخليج الطينة شمالى بلوظة .

ومع مد المزيد من الطرق البرية الحديثة ، وخطوط السكة الحديد ، وبناء الأنفاق التى تصل وتربط شبه الجزيرة بالأرض المصرية الأم .

وذلك كله فى إطار خطة تهجير وتوطين ٥,٥ مليون نسمة من أبناء مصر تتم خلال الربع الأول من القرن ٢١ .

وأما منطقة شرم الشيخ فى مدخل مضيق تيران جنوبًا فقد حولت إلى ميناء صناعى عصرى ينافس بقية الموانئ المصرية العالمية وربما منشأ حماسى للمجئ ، كان ذكرياتى القديمة بالنصر العظيم عام ١٩٧٣ . تلك التى اجتاحت مشاعرى ، وتطالعك دلالاتها يا عزيزتى فى كل ركن من أركان سيناء .

وآه من ذكريات نصرنا على إسرائيل ، التى قرأت عنها الكثير والتى طالما رفعت رءوس أجدادى من طأطأة المهانة إلى شموخ العزة .

وآه من ذكريات نصرنا ونحن نخوض حربًا فعلية ضارية نستخدم فيها كل مقدرات العصر ، بل خلاصة إنجازات العلم ، فنطوعها ونملك زمامها لتظل محور الدراسات والتساؤلات إلى يومنا الحالى ، وسيأتى يوم تسيرين فيه بين جنبات متحفنا الحربى بالإسماعيلية بسيناء ، والمشيد على مساحة كيلومتر مربع بأكمله فترين رأى العين . كافة أسلحة العبور المصرى التاريخى لاسترداد أرضنا فى سيناء ، وبعضًا مما سقطنا من أحدث نفاثات ذلك الزمن ، وكما من أقوى الدبابات وأمنع المصفحات وأضخم المدافع وقواعد الصواريخ المنتجة حتى عام ١٩٧٣ مما استولينا عليه .

ماهيتاب . أرجو صفحك . فقد غلبتنى ذكرى المسيرة هنا والتى دائمًا وأبدًا تطغى على كافة مشاعرى . على وجودى . كلما جلت بسيناء . أرضى وأرض أجدادى . أرض الصمود والانتصارات والكبرياء الذى لا يلين .

وبالتالى فقد غلبتنى ذكرياتى بمدينة القاع ، لكنها لم تمحها . إن نصرنا الشجاع لا يمحو العلم ورؤى العلم فقد نما وشمخ على أكتافه ، ولا يقف أمام منجزات الإنسان إنما هو يعضدها ويقويها ، ويعمل على حمايتها .

من هنا لم تغب أحداث رحلتى المدهشة لمدينتكم القاعية بأدق دقائقها ، فما أزال أذكر كل وجه قابلته لديكم وبين ممراتكم وحجراتكم السفلية ، كل وجه بكافة تفاصيله وبما انطبع فى صدرى نحوه . وأما عنك ، فلتعلمى أنك تسكنين جانباً خاصاً هو الأكثر إيغالا فى أعماق حسى ومشاعرى .

وتصورى ، لقد أصبح حديث البحر منذ تركى لكم هو أحب الأحاديث وأقربها لقلبى ، والكلام عن أيامى معكم هو الأكثر طرقا على شفتى ، صغيرتى العزيزة .

فى انتظار سطورك إلى آمل أن تكونى عفية موفقة ، وأن يحقق المولى لجماعتك ما تهدفون من أجل صالح البشرية .

المحب

شادى

ملحوظة : أكاد لا أحتمل غامر الفرحة التى تعمنى ، فعقب الإعلان المفاجئ الذى أذاعه رئيس وزراء أستراليا على العالم من قاعة برلمانهم بقبول تخلى الأستراليين عن الجزء من أراضيهم الذى طلبت جماعة العلماء استيطانه ، ما دام فى ذلك خير للبشرية باستقرار السلام على الأرض . ثم عقب تقديمكم ضمانات قوية وأكيدة ، فقد تحدد موعداً لتوقيع معاهدة السلام العالمية المقترحة .

هنا فى القاهرة . يوم الثالث من شهر أكتوبر القادم عام ٢٠٩٩ .

وليدع معنا كل من له قلب وفكر نقى ..

أن يتم توقيع الدول على المعاهدة فى موعده المحدد ، وأن يلتزم الجميع بتوقيعاتهم .

الفصل الثانى

الرسالة الثانية

٢٠٩٩/١٠/٢١

عزيزى شادى

تسلمت رسالتك وفيها كل تلك المشاعر نحوى ، أتعرف ، إننى أغبط نفسى عليها. بل أشكر القدر إن جئت مدينتنا ، أنت بالذات ، وأن عرفتك ، وأقدم امتنانى لله على ذلك الرباط الذى جمع بيننا . ولكنى لا أستعجل نعمائه إنما ارتضى العطاء الصبور الهادى قطرة وراء قطرة . فالمهام على عاتقى صعبة ، متراكمة ، وهى قبل كل شىء حيوية بالنسبة إلى ، هى حياتى ومبدأ لوجودى ومن ثم لن أكون لك.. خالصة لك، قبل أن أتم المهمة الكبرى التى آليت على نفسى أن أتمها ولو جدت فى سبيلها بأنفاسى .

وليس هذا تحمسا زائفًا أو انصياعًا أعمى ، وإنما هو إيمان مطلق يمنحه إياها الخالق لأمة البشر جمعاء . فلا مفر من العمل ، وبكل العزم والتصميم ، على أن يتقاسمها الجميع على أرضنا بميزان الصفاء والعدل .

وأنا موقنة يا شادى إنك أول من يقتنع بمنطقى ويشاركنى إيمانى ، إن لم تفوقنى يقينًا وإصراراً .

على أن القوم لدينا بعد رحيلك وصحبك ، وفى أعقاب الرفض الأول لمطالبنا من قبل مجلس الأمن ، قد عمتهم موجة من النقاش الحاد لم يتعرضوا لمثلها قبلا ، وذلك

فيما يختص بفحوى الإنذار الغاضب الذى وجهناه فى أعقاب الرفض . فقد فاق محتواه من تهديد ووعيد ما نملك فعلاً من قدرات . فسيطرتنا لم تكن تتعدى وإن اختلفت هذ الآونة – غير القدرة على قنبلة مدارية واحدة ، هى نفس التى فجرناها فيما بعد بوادى الموت فى صحراء موجافى الأمريكية ، فكافة أبحاثنا تنصب كما تعلم فى الجانب المفيد للإنسان وليس الضار المهلك له . ومن هنا فإن ما نتوصل إليه عسكرياً إنما يتم بطريق الصدفة البحتة ، ومن هنا أيضًا فقد رأى بعضنا أن يقتصر التهديد على نتائج هذه القنبلة الوحيدة مع الإشارة إلى غاز الأعصاب بعدها . فى حين رأى البعض الآخر أن يضم الإنذار ذكراً لأكثر من قنبلة وحتى يكون الضغط قوياً ومؤثراً لأقصى الحدود .

وما كادت المحنة الأولى تنفرج برضوخ دول العالم لمنطق العقل حتى نادى عدد منا بالاكتفاء بإرسال من ثلث إلى نصف علمائنا فحسب لتنفيذ مشروع استيطان غرب قارة أستراليا . فلا أحد يدرى بما قد تبيته بعض الدول لجماعتنا من نوايا غادرة بالرغم من توقيع الكل على معاهدة السلام العالمية !؟

على أن الرأى الذى تغلب فى النهاية كان بضرورة توجيه غالبية أفراد الجماعة .. عدا القلة اليسيرة التى ستتخلف من أجل إدارة مرافق مدينة القاع وإلى أن يسمح بإذاعة سر موقعها فيما بعد . وقد تزعم الرأى الثانى كل من حكمائنا الثانى والثالث والرابع وغالبية الرواد من علماء جماعتنا واضطر إزاءه الحكيم الأول وكبيرهم – وكان يعارض بشدة – إلى الإذعان على مضض ..

أما عن رأيى الشخصى فلا أخفى عليك إننى من أنصار كبير الحكماء ، فلابد من الحذر الكامل فى كافة تصرفاتنا ونحن الفئة القليلة التى تحدت جبروت الدول العظمى مالكة مقدرات العالم فى جرأة وعنف أشك أن يغتفر لنا ..

واستقر الرأى فى ختام حمى المناقشات الحادة التى دامت أسبوعًا على تقسيم الأفراد المزمع إرسالهم لأستراليا إلى ٦ مجموعات تتحرك على ٦ دفعات . يفصل بين

تحـرك كل دفعــة عـن الأخرى ٦ أيام .. وتضم الدفعة ٨٥ فرداً من جماعة علمائنا . ولما كـان مجمـوع أفراد الجماعة ٥٨٠ فـرداً فيكون عـدد المرسلين ٥١٠ فـرداً ، وعـدد المتبقين بمدينة القاع ٧٠ فرداً ، ويتم استبدال أفراد الجماعة المتبقية بغيرهـم مرة كل ٤ شهور إلى أن يحين الكشف عن موقع مدينة القاع .. وأما فيما يختص بأطفال القاع والذين لم يضافوا لإحصائية الجماعة فقد اختلفت الآراء بشأنهم ، كذلك لم يبت إلى الآن فى أمر رحيلهم فالرأى السائد ينادى بضرورة بقائهم ، حيث إنهم يمثلون تجربة فريدة نادرة من نوعها ، وهو رأى له حججه المنطقية القوية .

ولما كان أسطول غواصاتنا النووية المطوة يضم ٧ غواصات ضخمة إلى جانب مجموعة من غواصات الجيب فقد رؤى أن تحوى الدفعة قافلة من ٦ غواصات ، فى حين تبقى الغواصـة السابعـة بمدينة القاع راسية فى الأعماق بداخل أسوارها . فإذا ما وصلت القافلة هدفها أنزلت حمولتها وعادت فارغة إلى المقر السرى لمدينة القاع لجلب الدفعة التالية . ولا تنسى إمكانية عودة الغواصات فارغة فهى تسير بالتوجيه اللاسلكى دون حاجة لملاحين .

هكذا كان إبحارى ضمن الدفعة الأولى بداخل الغواصة الحارس رقم ٩ والتى سبق أن أقلتك وصحبك للمدينة القاعية .. هكذا كان انطلاقنا أسفل المياه الساكنة وعبر بث الجدار الحامى لنا من الرصد والاكتشاف . وكانت وجهتنا فى ثبات من موقعنا الخفى فى اتجاه الجنوب .. إلى القارة الأسترالية ، على الرغم أننى كنت فى شاغل بالفعل عن مراقبة مسار القافلة والغواصات الست تقتفى أثر بعضها البعض فى طابور صامت طويل آخره الغواصة التى تضمنى ، وكأنها مردة خيالية تشق عالما من الأسرار والغموض . وكان ما يشغلنى مرض كبير الحكماء وقد خلفناه بالمدينة القاعية مصاباً بإجهاد شديد إثر قيامه بالمشاركة فى توقيع معاهدة السلام بالقاهرة عاصمة جمهوريتكم ، وما صاحب ذلك من جنون وسائل الإعلام وتقاتلها لتسجيل كل كبيرة وصغيرة ، بل وكل همسة أو لفتة أو انحناءة ، أو حتى طرفة عين تصدر عن أول من

يرى من الجماعة الخفية .. هؤلاء الأفراد المختلفون عن غيرهم دون شك ، الذين أرهقوا أعصاب العالم طيلة أيام يستحيل إحصاؤها ، فقد بدت متخمة .. مشحونة .. وطويلة .. طويلة لأعمق ما تستوعب المشاعر ..

لم تستغرق رحلتنا غير خمس ساعات بالرغم من اتخاذنا طرقا ملتوية التمويه .. وحين بلغنا الشاطئ الأسترالي يوم ١٨ من الشهر الحالي ، فقد بدت الجموع الغفيرة من الأهالي ورجال الصحافة ووكالات الأنباء ، التي تراصت في استقبالنا شيئًا خرافيًا بعيداً عن التصديق .. أعلام وزينات وموسيقى وزهور وأبخرة عطرة ... وألوان مبهجة في كل مكان ، ولم نجابه بأي موقف عدائي ، ولم تعترضنا أية تشكيلات عسكرية بحرية أو جوية من أي نوع ..

وكم وددت لو كنت بصحبتنا يا شادى لترى غواصاتنا وهي تبرز الوحدة في أعقاب الأخرى من غياهب اليم في كثير من الكبرياء ...

ومع توالي نزول أفرادنا على الرصيف الحجري بدا كما لو كانت المنطقة تموج بهدير لا ينقطع من التصفيق الحاد ، ومن صيحات الإعجاب والصفير المتواصل ..

لقد كان هبوطي مع أفراد الدفعة الأولى في ميناء هدلند شمالي المنطقة الغربية من قارة استراليا .. على أن المقام سيستقر بي فيما بعد أيام أربعة أو خمسة بمدينة كارنارفن في منتصف الساحل الغربي القارة بالقرب من مصب نهر ليونز ، وحيث تمتد سلسلة جبال همرسلي إلى الشمال الشرقي وصحراء جبسن إلى الشرق والجنوب الشرقي ..

وها أنذا أبادر بالكتابة إليك يا شادى قبل أن تطويني مشاغلي التي ستتناول إنجاز عملين رئيسين : أولهما : المساهمة في استقرار جانب من أفراد الدفعة الأولى بمدينة كانارفن ، بعد أن قام رسميًا وفدنا المكون من حكمائنا الثاني والثالث وثمان من قدامى علمائنا بإتمام مراسيم تولي مقاليد الجزء الغربي من أستراليا المتفق دوليا على أن نقوم باستيطانه ، ثم بعدئذ على أن أتولى عمليات اختيار وتبويب البرامج

العلمية التى سنبدأ تنفيذها من أجل الإنسان ، وفوق اليابسة هذ المرة عيانًا لا سرًا كما كان فى السابق تحت سطح الماء .

وأما العمل الثانى : فينصب على واحد من أحب هواياتى إلى ، وكما بدا مستحوذًا على فى الآونة الأخيرة .. وذلك هو موضوع التخاطر ، وأقصد به تنمية قدرات البشر على الشفافية والتنبؤ بالمستقبل وقراءة أفكار الغير وعلى التخاطب عبر المسافات والزمن دون وسيلة مباشرة .

وكلها أبحاث تهدف التوصل إلى آفاق غير مطروقة للعقل البشرى ، تكشف عن طاقاته المهولة وإمكانياته المدهشة .. وربما فاجأتك يوما يا شادى برسالة تخاطرية ترد إليك منى خلال إحدى سويعاتك الحالمة مع أفكارك ، وإنى رغم أغنيات السلام أشاطرك مخاوفك المودعة خطابك إلى من رجحان عدم احترام معاهدة السلام العالمية .

ربما يكون التشاؤم غالبًا على فكرى ؛ لكنه خير من الفرحة الغامرة مقابل لا شىء ، مقابل هباء ، أو مقابل كارثة تضيع على جماعتنا جهد أعوام من المعاناة والاحتراق الصامت بغية تحقيق غايات سامية .

إن الشك القاتل مايزال يمزق أعصابى ، وهل يصدق أن عمليات إبادة المخزون بترسانات السلاح فى أنحاء العالم تتم فعلاً بإخلاص ؟... إن أجهزتنا الإلكترونية المذهلة تشير إلى التزام الدول.. تشير إلى أن الرصيد المدمر وصل نصف كميته السالفة ، فهل حقًا قد وجدت الدول الشجاعة لتنصاع لطلبات جماعتنا من أجل بقاء الجنس البشرى ؟

ولكن قد تخطئ آلات المراقبة لدينا ، أو قد تدفع إلى الخطأ دفعًا . فكيف السبيل للوثوق ، للتأكيد ، لليقين المطلق .

ويمر بخاطرى قول لكاتب أمين لا يحضرنى اسمه ، إنه يذكرنا فى عصبية .. «إن ابتكار سلاح جديد سوف يؤدى بالحتم إلى ابتكار سلاح آخر ردًا عليه ، وقد برهن تطور التاريخ على أن نهاية التسابق على التسلح دائمًا وأبدًا ليست سوى الحرب ، ومزيدًا من الحرب» ...

فهل يتيسر إدنة تسابق التسلح وكشف حمقه ومن ثم وقفه وبعدئذ سحقه .. بمثل السهولة التى يجرى بها تثبيت واقعه على مرأى ومسمع منا حالياً .

وأفضيت بمخاوفى إلى الحكيم الثانى ، وهى امرأة مثلى قد تكون أكثر فهماً لى من بقية مرافقينا من الرجال ، فأجابتنى بقولها :

- اطمئنى يا ماهيتاب ، إن ما نملك ناصيته من علم لم يخذلنا قط من قبل ، أجهزتنا الإلكترونية تعرف .. وحدها .. طريقها لكافة مخازن السلاح فى العالم ،. وعلى دراية بالمخزون الفعلى بكل منها ، وصدقينى ، فنحن موقنين كل اليقين من أن محتوى هذه المخازن يتناقص بالفعل .. بالكيفية المطلوبة تماماً .

وعدت أسألها : ألا توجد مخازن السلاح ، لا تصلها فاعلية أجهزتنا ؟

أجابت فى لهجة قاطعة خلتها تحوى لمسة غرور : ثقى إن ذبابات أجهزتنا لا مثيل فى الكشف عن أماكن السلاح أينما وجدت ، حتى ولو كانت على القمر ثم ألم ترصد مقار تواجدها طيلة الأعوام التسعة الماضية ؟

أعطيتها ظهرى وتشاغلت بالنظر من النافذة على مياه المحيط الممتدة قبالتى ، تظلها سحب قاتمة تنذر بهبوب عاصفة وشيكة .

- تتبقى حينئذ ثغرة خطيرة ، أكيدة .

استدرت أواجه الحكيم الثانى فوجدتها عابسة القسمات محملقة العينين نحوى ، تابعت : فما الذى يضمن لنا عدم حدوث انتكاسة مريعة فى المستقبل وعودة البشر سواء بالقصر أو نتيجة لوجود أخطاء أو التباسات .. إلى تصنيع السلاح ولو سراً ؟

قالت الحكيم الثانى ببطء : إن الرد على تساؤلك يتلخص فى .. «استخدام عقار الحب» ..

فلما صمت قالت :

- كأنك لم تسمعى عنه قبلاً .

- بل أعرفه ولكنه ليس بات المفعول .

قاطعت فى عصبية : بل هو فعال .

أحسست نفوراً من تصلب هذه السيدة فى رأيها ، فقلت معاندة :

- وهل نسيت يا سيدتى الذين سيمتنعون عن إعطاء أطفالهم عقارنا ، إما إهمالاً أو رفضاً ...

صرت على أسنانها : الإجبار كفيل بتلافىْ أية أخطاء .

ثم غادرت الحجرة على عجل كأنها تفر من جدل لا طائل من ورائه .

فهل أفكارى عقيمة وسخيفة إلى هذا الحد ! هل ليس لها ما يبررها وغابة عالمنا الموحشة تضم أعتى الكواسر ؟

ولتصدقنى فللمرة ربما العشرين تسجل منظمة اليونسكو أن أطفالنا الذين يولدون فى ظروف عالمنا الراهن يرون النور وأملهم ضعيف إلى حد بعيد فى البقاء على قيد الحياة ..

ليس لعلل بدنية ولا لأمراض وبائية، إنما لأن احتمالات قيام حروب نووية شاملة وإفناء الجنس البشرى برمته احتمالات قائمة مؤكدة بنسبة ٧٠٪ ..

وانحى عنى مخاوفى وأسأل نفسى : لكن كيف تكون صورة عالمنا حين يعمه السلام الحقيقى القائم على العدل ؟

أهى ناعمة وارفة ، بالغة الحلاوة ، مغرقة فى وداعتها وبهجتها ؟ أم تراها تصل حد الملل ؟ وفيما بعد .. مع امتداد الزمن ؟ قد تصل حد الضياع .

الذى أتخيله يا شادى ؟ وقبل كل شىء إطلاق ذرى الإبداع الإنسانى من عقالها، ولأضرب لك مثلاً قريباً ؟ فما أكثر الشبه بين حديثنا وبين ما كانت عليه مقدرات شعبك

أيام استفحال عدوان إسرائيل عبر أجزاء من أراضيكم . ترى كم كلفتكم حربكم ضد أطماع الصهيونية ؟ ثم كيف تغير الحال حين أقصيتموهم عن أراضيكم ؟ لقد انصهرت طاقات الشعب يوم النصر تهدف غاية واحدة هى إعادة البناء .. انغمست جموعكم بغرض تأكيد رفاهية الإنسان ، بغرض السلام .

هكذا ستكون الصورة – فى تقديرى على ربوع كوكبنا ، فيها العرق وفيها الإشراق . سوف ينفض بن آدم عنه آلامه المبرحة ، سيتوقف نزيف دمه ، وتلتئم جراحه ، وتهدأ فى النهاية روحه البائسة .

فلا تبق هناك حروب صغرى ولا يعود يندلع تهديد بحروب كبرى ، ويتفرغ الإنسان بأنحاء الدنيا على سد الثغرات وما أكثرها فى لوحة تواجده ، وامتداد نسله ، ودعنى أعرض عليك بعضاً من أفكارى فى هذا الصدد .

لا تخلف ، لا مرض ، لا فقر ، لا جهل ، لا أمية ، لا تنازع ، لا تضاد ، لا تكالب ، لا طموح ضار .. النفس صحيحة والبدن أصح والخير وفير والأمن والطمأنينة يعمان الربوع . الكل يعمل من أجل الكل ولمصلحة الكل ، بلا ضوضاء ولا تزاحم ، ولا تلوث ، والجو نقى والهواء عليل والأشعة مصفاه ، وتصير كرة الأرض وحدة واحدة متماسكة ، ترفع راية العلم ابتغاء المزيد من التقدم والرفعة الحضارية .

وبذا يكون الكائن البشرى فعالية مؤثرة يفخر بها كمخلوق مميز فى ذلك الجانب تلك البقعة المحددة ، البؤرة الضئيلة الحيز الخافتة الصدى فى مستقرها بالكون اللانهائى الأزلى .

وعندئذ وعن جدارة حقه يمتد العنصر البشرى إلى آفاق أرضية جديدة بأنحاء صحراواتها ، وقفارها ، وجبالها ، وتحت سطح مياهها ، وعبر جوها ، ثم أجوائها ، وبعيداً ومنتشراً بأعناق الكون المترامى عن مجالها ، والتقط أنفاسى .

ترى كيف جرنى حماسى إلى شتى الموضوعات إلا موضوعنا ؟ أنت وأنا ، وأعود أتذكر أحاديثنا سوياً ، أيام وجودك معنا بمدينة القاع . كيف استبحت تعرية

كاملة لمراحل عمرى أمامك ؟ من أنت ؟ بل ماذا أنت بالنسبة لى ؟ لكن هل أخبرتك حقًا بكل جوانب حياتى ؟ ألم أحتفظ لنفسى بشىء دونك ؟

فى الحقيقة لقد فعلت ذلك ، غير إننى ألم شتات مشاعرى الآن ، أقصرها على البوح كاملاً .

فلم تكن أنت الأول فى حياتى يا شادى ، بل ربطنى قبل أن انضم للجماعة علاقة حب بشاب ليبى من أقرباء المرحوم أبى تصادف إقامته بتركيا فترة من الزمن ، ومن ثم خطبت له ، لكنه سرعان ما اختفى عنا عامًا كاملاً ، عرفت بعده بانضمامه لجماعة العلماء ، ولا أغمطه حقه ففيما بعد علمت بأنه كان من أنشط مهندسى الجماعة فى مجالات المعمار والتشييد تحت سطح الماء ، إلا إنه لقى حتفه أثر إنفجار أحد مكثفات الكهرباء العالية الضغط ؛ وحين جاءنى نبأ وفاته بواسطة زميل له من بينهم قررت على الفور أن أكمل الطريق الذى بداه هو على قدراً إمكانياتى وطاقتى ، أجل ، حينئذ وقد أمسيت بلا أب ولا أم وبلا قارب تقريبًا ، وجدت استقراراً لى مع الجماعة رغم العزلة والنأى الجاثمين على مدينة القاع .

وبعده ، بعد محمود الجاسر وهذا اسمه ، لم أكن أتخيل أن أحدا بمقدوره أن يبرأ جراح نفسى ، يملأ من جديد وبأكثر من الأول حياتى التى ظننت أنها دوت وانتهت ، حتى جئت أنت ، فغيرت مجريات الأمور فى لحظات وليس فى أيام ، حولت يأسى إلى أمل ، وأحزانى إلى بهجة ، ويبدو أنك وفى غفلة كاملة منى قد تغلغلت إلى أعماقى فامتلكتنى بكل عصب وخلية تنبض بأنحائى .

والآن ، لدى وقفة الزمن هذه ، وقد رحلت عنى ، أحس قسوة الفراغ وألم الوحشة بعدك ، أعانى وطأة الحنين إليك كأننى تعودت أبدا وجهك .

صوتك ، النبرة الحانية التى تميز مخارج كلماتك ، لفح أنفاسك ، خطو قدميك الهادئتين الواثقتين ، وأقسم إننى طالما بحثت عنك كامنا ، مبهما فى فكرى ، فقد عرفتك من قبل مولدى .

بل على يديك كان حقًا مولدى ...

وإلى أن نلتقى عبر رسالتك إلىّ أدعو الله أن يمنحك كامل رعايته وتوفيقه ، وأن يمنح قضيتنا ، قضية السلام ، قضية البقاء للجنس البشرى فى أمن دائم كل رعايته وتأييده .

المخلصة

ماهيتاب

* * *

الفصل الثالث

الرسالة الثالثة

الأربعاء ١٠ نوفمبر ٢٠٩٩

عزيزتى ماهيتاب ..

من أجمل بقعة تقع عليها العين بالصحراء الغربية ، من داخل الجنة الوارفة ذات أل ١٦ ربيعًا ، من داخل سويسرا الخفيضة ، أو الجديدة ، أو المصرية ، أو الأفريقية ، كما تختلف وتتباين الأسماء التى يحلو للصحافة العالمية أن تطلقها على مشروعنا الكبير منخفض القطارة ، الذى تساوى مساحته مساحة سويسرا واستغرق إنشاؤه ٦ أعوام من ٢٠٩٣م ، ٢٠٩٨م .

من على ظهر اليخت (عروبه) الذى لم يترك بعد مرساته بمدينة القطارة الغربية ، وقد اكتظ عن آخره بواحدة من الجماعات السياحية المتوافدة ليلا نهارا فى حين راحت مياه البحيرة تأرجحه الهوينى قبل أن تبدأ رحلتنا التى تستغرق يوما وليلة حيث تكون العودة غداً ظهراً .

من جلستى والقرص الذهبى ما يزال فى مبدأ صعوده شرقًا ، أخط لك رسالتى الثانية بقلم يستمد مداده من شوقى وحنينى إليك ، ولعل ما يؤنس وحدتى خلال أسفارى بطول البلاد وعرضها هو تواجدك الدائم معى .

وطبيعى ألا اكتفى بصورتك الدفينة فى صدرى . فسمة المحب الأثرة وطلب المزيد . لذا تجدينى لا أكف عن تتبع كافة ما تملأ به الصحف غالبية صفحاتها عن أقل

بادرة حول تحركاتكم وكيفية انتشار كم على الأرض الأسترالية ، وكذا أخبار توالى نزول دفعات جديدة من علمائكم إليها ، بحثًا عن خبر أو معلومة جديدة أوتلمسا لمجرد ذكر لاسمك بينها .

على أن صورتك الفوتوغرافية إلى جوار الحكيم الثالث والتى نشرتها جريدة التايمز اللندنية منذ أسبوع ، بمناسبة افتتاح مركز الاستعلامات التابع لجماعتكم قد أقلقنى ، فقد بدوت فيها شاحبة الوجه يعتريك الهزال . لذا استحلفك بحق العاطفة المقدسة التى تجمعنا أن تراعى صحتك ولو من أجلى ، لا داعى للإرهاق فى العمل واعتنى بالتغذية ويأخذ كفايتك من الاستجمام ، ومن ناحيتى فإننى أعدك بأن تجدى الراحة الكاملة ومزيد من التدليل والسعادة فى ظل رعايتى الشخصية لك . أعود إلى حديثى عن مشروع منخفض القطارة وأنا أكتب من على ظهر بحيرته المستمدة مياهها المالحة من البحر المتوسط ، والبالغة مساحتها ٢٠ ألف كيلو مترًا مربعًا بمنسوب ينخفض ٦٠ مترا تحت سطح البحر .

لقد بدأ تنفيذ المشروع عبر أنفاق ثلاثة من الساحل الشمالى أسفل طريق الإسكندرية مطروح ذاهبة إلى الجنوب حيث المنخفض على بعد ٨٠ كيلو مترا ، وقد شق خبراؤنا أول الأنفاق من بلدة الحمام غربى الإسكندرية بـ ١٠٥ كيلو مترات . وشقوا الثاني من بلدة الضبعة وتبعد ٦١ كيلو مترا غربى الحمام ، وفيما بين الاثنين كان شق النفق الثالث مستخدمين فى ذلك التفجيرات الذرية النظيفة .

وحين كملت الأنفاق افتتحت لدى نهاياتها من ناحية المنخفض ثلاث محطات ضخمة لتوليد الكهرباء ، وسمح لمياه البحر بالتدفق عبرها لتملأ المنخفض الذائع الصيت مكونة أكبر بحيرة صناعية مالحة من نوعها فى العالم ..

هذه كانت قصة المرحلة المبدئية للمشروع ، فقد جدت عليه إضافات لا حصر لها فيما بعد ، حيث تحولت بعدئذ بلدة الحمام إلى ميناء صناعى ضخم ، وأنشئت مدن سياحية على ضفاف البحيرة أكبرها مدن القطارة الشرقية والقطارة الغربية . ثم مدينة الفيوم الجديدة عند الطرف الجنوبى الشرقى للبحيرة ، وكذا تحولت الضبعة إلى مدينة

ذرية كبرى وأقيمت بعدها مدينة وادى خريط الذرية ، ويطلق على الاثنين (مدينتى العلماء) .

وماذا أضف لك أيضا يا ماهيتاب عن البقعة التى كانت تعتبر أكثر بقاع القارة الأفريقية انخفاضاً ؟ وسميت لهذا قاع أفريقيا .. بعد أن تحولت من جفاف الصحراء إلى منطقة جذب لجموع البشر التى جلبت معها كل مقومات الحياة ، وتزرع أكثر من مليون فدان جديدة من الأرض الزراعية المستصلحة .

أما البشر فيكفى أن تعلمى بتهجير ١,٥ مليون نسمة من مناطق الجمهورية المزدحمة إلى هنا ، ضمن خطة تهدف تهجير أربعة أضعاف الرقم السابق كذلك فبحيرة القطارة ذاتها تعتبر بحق أكبر مزرعة سمكية من نوعها فى العالم .

عزيزتى ، وأعود إلى الموجودات حولى فأعلم أن اليخت (عروبة) قد تحرك بنا منذ نصف ساعة ، أنه يشق طريقة الآن نحو الجنوب . بينما تصدح أنغام موسيقى الإيقاع الأثيرى تلك النغمات المتنافرة والمطوطة التى تنطوى تحت واحد من أفرع الأصداء الكونية ويولع بها شباب اليوم ، ففيها تتركز الفروسية بارتياد الكواكب القصية ومتاهات الكون العصية .

وأدير عينى حولى ، عشرات من المناضد ومئات من الأبدان شبه المعراة من أجل لمسة سمار مصرية رغم انتصاف الخريف ، وجسم اليخت يشق موج البحيرة الواهن فى أسفل بينما سياجه بالكاد يصد الموج البشرى فى أعلاه .

وأشعة الشمس دافئة ، تتلألأ على الأبدان وعلى صفحة المياه ، وعلى الأشرعة البيضاء المتهادية .

لكنها على الشطآن مصدر للطاقة المصرية بالغ الأهمية .

وفى وسط اليخت ، أسفل قمر قيادته ، تمتد رحبة مربعة بطيئة الإيقاع ، تتلوى بداخلها أشباح ليست بالراقصة ولا هى بالساكنة ، إنما بين بين ، تتمايل فى وهن وكأنها شبة مخدرة أو هى صدئة المفاصل تضنيها الحركة ، وإن بدت طرية ناعمة البشرة .

وقد تتطرح الجموع أرضًا أثر انبعاج نغمة كونية فاترة ، وتظل فى سقطتها حتى يحدث التداخل وتنقلب النغمة إلى صفير يشبه هبوط مركبة كونية على ثرى مجهول !

وتدخل فى دائرة بصرى الأكواب البيضاء المثلجة وهى تلف على الحضور ، وأسمع همهمات الجالسين بلكناتهم الأجنبية تردد .. " هاليب تومر " ، وابتسم ، فقد نجح المضيف المصرى أن يربط زائرية بواحد من أحب المشروبات الوطنية وما أكثرها أنه حليب التمر ، والحليب هنا دسم نصفه قشدة ، والتمر يجلب من واحة سيوه المصرية وأيضًا من العراق والسعودية فجميعها مشهورة بنخيلها فتمورها تقطر عسلا ، والتى تنقع فى الحليب يوما وليلة وهذا كل شىء .

لكنى اضطر إلى قطع تأملاتى وترك الكتابة ، فقد أقبل من يستدعينى لمقابلة عاجلة مع ربان اليخت الكابتن عبد الحليم وهو صديق شخصى لى ، واستمهل الرسول حتى أطوى أورقى .

مساء الأربعاء ١٠ نوفمبر ...

وأسجل لك يا عزيزتى مادار من حديث – لم ألاحق تدوينه فى حينه – مع ربان اليخت ، حييته : أهلا كابتن عبد الحليم ..

رد تحيتى وجذبنى متعجلا : تعال ..

– خيراً

– اقترب ، ربما لدى نبأ يهمك معرفته ..

وأصغت السمع .. من مكبر للصوت معلق أخذت تروى تفاصيل النكسة الخطيرة التى تعرض لها وجود جماعة العلماء .. جماعتكم .

" ففى الصباح الباكر من يوم ٨ نوفمبر – منذ يومين – كان قدوم الدفعة الرابعة من علماء مدينة القاع إلى أستراليا . وكالمتبع رست الغواصات الست بميناء هدلند

وأفرغت حمولاتها ، وفى ساعة متأخرة من ليل اليوم التالى وبينما آخر الغواصات تتأهب للغوص مبتعده عن الميناء إذا بها ترفع مقدمتها ثانية وتستدير عائدة إلى الرصيف الذى تركته توا .

وبداخل مبنى التوجيه والمراقبة انطلقت صفارات الإنذار تعوى فى إلحاح عجيب ، وعرف المراقبون سبب الضجة بعد فحص تقديرات الحاسب الإلكترونى .

فقد علم بتسلل شخصين إلى داخل الغواصة الحارس رقم ٤ والاختباء بها ، وهى ذات الغواصة المقرر عودتها إلى مدينة القاع مقر الجماعة السرى .

وأخرج العلماء من أحشاء الغواصة جثتى شابين بأردية الغوص ، كانا قد انتحرا تواً بأقراص السيانيد بعد أن خافا انكشاف أمرهما كما يرجح ، ولم يعثر مع أى منهما على مايثبت شخصيته أو انتمائه .

فما الذى جاء بالجاسوسين غير كشف موقع مدينة القاع ؟

وقد شاب صوت المذيع ذعر حقيقى وهو يصف من إذاعة منخفض القطارة المحلية ثورة جماعة العلماء لتلك المحاولة الفاشلة ، وأما ردود الفعل الفورية وكما أخذ المذيع يحصيها فقد تبلورت فى نفى الدول واحدة فى أعقاب الأخرى ، مجرد التفكير فى مثل هذا الفعل المستهجن الساذج .

– هه ، من تظنها الدولة مرسلة الجاسوسين إذاً ؟

تطلعت إلى محدثى الأنيق ذى الشارب المدبب من طرفيه والأسنان اللؤلؤية تضوى رغم ظلال الكاب البيضاء المحنية على جبهته ..

همست متحيراً : صدقنى .. لا أدرى ..

ألقى الكابتن عبد الحليم نظرة عابرة على آلة التوجيه أمامه ، ثم رنى ببصره إلى الأفق حيث تتجاوز هامات الأشجار والنخيل ملقية بظلالها على صفحة البحيرة .

وعاد يتمتم : أتراها أمريكا أم روسيا ؟

أجبته عابساً : استبعد الاثنتين .

شملني بعينين يطل الخبث منهما : آه .. تخاف أن تكون الصين ؟

- ولِمَ ، بل أخاف على السلام وحده .

تساءل مساعد الريان : هل يحدد سيدى سبب قوله ؟

قلت على الفور : لأننى على يقين أن الكثير من الجماعات المريبة ذات الوجهات الجذابة ، التى تخفى وراءها أكثر المبادئ تطرفا وأشر الأهداف هدماً ، التى تكن حقداً للإنسانية ، هذه الجماعات يهمها ألا يسود دنيانا سلام قط .

* * *

السبت ١٣ نوفمبر ...

لدى الظهيرة أعلن حكماء (س أ ف) الأربعة فى بيان شديد الاقتضاب - سواء عن يقين أو عن غرض مبيت - أن جهود جماعتهم لمعرفة الدولة مرسلة الجاسوسين لم تسفر عن نتيجة ، وبناء عليه أعتبر الموضوع مجمداً مؤقتا .

* * *

الأحد ١٤ نوفمبر ...

عزيزتى ماهيتاب ، وكما سبق وأخبرتك ، خلال أحد أحاديثنا أو مناقشاتنا بمدينتكم التى شيدتموها على قاع البحر ، فإذا كانت قلة من الدول قد أقرت نظام العطلات الأسبوعية لديها بأربعة أيام ، فإننا نكتفى لدينا بأيام عطلة ثلاثة فحسب هى الجمعة ، والسبت ، والأحد ، وهذا لا يرجع بالضرورة لنقص فى الطاقات العاملة أو لعجز فى ديناميكية أو كفاءة الآلة عندنا . لا .. أبدا ؛ وإنما مرده تلك الانطلاقه

المهولة فى شتى نواحي وخبايا حياتنا ، تمثلت فى آلاف المشاريع التى لاينضب سيل تواردها ، تصيب كل شبر بأنحاء الوطن العربى على اتساعه وليس الأرض المصرية وحدها .

ولعل ذروة متعتى أن انتهز فرصة أيام العطلات هذه لأزاول واحدة من هواياتى المحببة إلى قلبى ؛ وهى طهو الطعام على الطريقة القديمة التى كادت تتلاشى من سجل أيامنا ، إزاء مايجتاحنا من عرض متلاحق متزاحم فى صنوف المعلبات وتنوعها الذى يفوق كل حصر ، والتى يمكن إعدادها فى ثوان وليس فى دقائق .

هواية أخرى أزاولها وهى تفقد وانتقاء الحديث من المؤلفات بالمكتبات العامة .. خاصة تلك التى تعرض نتاج أفكار أدبائنا مسجلة على " بكرات الصوت الهادى " .

التى ولا شك تعرفين فيها نوعا من المسجلات الميكرو .. تخاطب الآذان بدلا من الأعين لتجنب الأخيرة عناء القراءة .

وأما ثالث هواياتى فهى تفقد المعارض الفنية ، ولعلك لم تتح لك الفرصة لتلمسى فى اهتماما فائقا بكل ما يدور حول الفن والحركة الفنية فى بلدى ، وأهمها التردد على المعارض التشكيلية وقد اتضح تطورها الأخير فى واحد من أبرزها ، تتناول الرؤى المذهلة على سطوح كواكب المجموعة الشمسية التى ارتدناها مؤخرا .

* * *

الثلاثاء ١٦ نوفمبر ...

أعطنى انتباهك جيدا ياعزيزتى ، وتتبعى ما سأخطه على الخريطة المرفقة برسالتى ، إنها خريطة القاهرة عاصمة جمهوريتنا ، سوف ترين نهر النيل العظيم يمر لدى جانبها الغربى محتجزا بين شاطئيه أربع جزر كبيرة هى من الجنوب إلى الشمال .. (الذهب) ، (الروضة) ، (الجزيرة) ، و(وراق الحضر) .

وحين تضعين أصبعك على رسم جزيرة (الجزيرة) فسوف تلاحظين مجرى رفيعا للنيل يحدها غربياً ، وثلاثة كبارى تربط الجزيرة بمناطق : إمبابة ، والعجوزة ، والدقى .

الخريطة التى أمامك قديمة الإعداد ، فالمجرى النيلى الرفيع قد ردم تمامًا ، والكوبريان الشمالى والجنوبى قد أزيلا منذ زمن بعيد ، وقد شيد بطول مجرى النيل المردوم مبنيان عملاقان ، أو عمارتان شاهقتان متشابهتان ، يفصل بينهما الكوبرى الثالث الأوسط الذى بقى على حالة ، وأن مد فوقه بالعرض كوبرى معلق ليصل البنائين أو العمارتين .

بناءانا التوأمان يكونان فندق السفينة ، الذى يأخذ شكل سفينة جبارة ذات جسم انسيابى ومدخنتان ضخمتان ، وهو آيه فى العمارة الحديثة وقبل تفرغى لرسالتك كنت أستضيف بحجرتى بفندق السفينة صحفيين تركيين من مواطنيك ، فلما انتهيت من تقديم بعض الحلوى أخذتهما فى جولة تعريف بالأثر السياحى الذى يأخذ بالفعل شكل سفينة ضخمة ..

الفندق يتكون من عمارتين أساسيتين هما الآخنتان شكل المدختين فى السفينة وكل منهم بارتفاع ٥٤ طابقًا ، يعلو الجنوبية منهما مطار التاكسيات العمومية كما يعلو عمارة المدخنة الشمالية هوائى الاتصال بالأقمار الصناعية المصرية ، فى حين يمتد أسفلها جسم السفينة نفسه وهذا بناء مستطيل يترامى شمالا وجنوبا لمسافة كيلومتراً كاملا ويرتفع ليحتوى ٢٨ طابقا آخر ، ويضم الفندق بأكمله آلاف الحجرات بخلاف صالات الطعام والموسيقى والمكتبة وما أشبه .

أما المنطقة السفلية تحت أعمدة الخراسان العملاقة المقام عليها الفندق حيث كانت مياه النيل تتدفق فقد حولت إلى مستطيل حافل يضم سوقًا عربية دائمة ، وعدداً من المطاعم ، ودور السينما ، والملاهى ، وحماماً شتويا مغلقًا .. وأيضا جراجًا ضخمًا للسيارات ذا عدد من الطوابق يعلو بعضها البعض ، وكذا مرسى غواصه النزهة السياحية .

بعد جولتنا بفندق السفينة أخذت ضيفى رأسًا إلى سقف القاهرة .. حيث تربض عشرات الدور الحديثة على تلال المقطم وبعمق كبير نحو الشرق ، لقد أمتع ضيفى كثيراً ركوب التلفريك من ميدان التحرير إلى التلال .. وأمتعهما أكثر مرأى المدينة الساحرة من أعلى القمة الرابض عليها الكازينو حيث جلسنا .. والتى يستحيل الإلمام بطرف من أطرافها لاتساعها ..

كان المنظر الممتد تحتنا وإلى مرمى البصر مهيبا ، بالغ حد الروعة ، وبخاصة لدى رؤية مجرى النيل حين يبين خطًا ذهبيا عند الأفق الغربى ، يعبره مسار التلفريك ناحية اليسار فى طريقه إلى الأهرامات الثلاثة الرابضة عن بعد ، تحيطه يمينا فنادق الهيلتون ، والشيراتون ، والأرز اللبنانى ووسطها السفينة الفندقية بجسمها الفضى ونوافذها فى لون الفيروز المضئ .

على أن ضيفى الصحفى التركى وزوجه سرعان ماراحا يحاصرانى بأسئلتهما الملحة :

– بالله ، قبل الحديث عن الجديد فى مرافق عاصمتكم المحروسة ، كيف أمكن لكم التغلب على مشكلة الزحام بها ؟

ألقى محدثى الرفيع الوجه العريض الأنف والجبهة سؤاله دون مقدمات ، وتناول القلم ، وألقى بصدره أماما :

– الأمر برمته يدخل ضمن الخطة الكبرى لإعادة توزيع الكثافة السكانية بأنحاء جمهوريتنا .

سألت زوجة الصحفى التركى : وقد بدأتم بالقاهرة ؟

قلت : بل بدأنا بمشروعى سيناء والقاهرة معًا : الأولى يهجر إليها والثانية يهجر منها ، وكلا من المشروعين مختلف عن الآخر ولكل منهما إعداده وتدرجه الخاص به .

سأل الرجل : والأرقام !

أجبتة : سيناء يهاجر إليها أحد عشر مليون نسمة ، والقاهرة يهاجر منها ما يزيد على الأربعة ملايين حد تعدادها الأقصى ، وقد اتبعت نسب مختلفة مع عواصم المحافظات الأخرى تلائم احتياجات كل منها ..

وألحت السيدة : بقية الخطة من فضلك ياسيدى ...

– مشروع تعمير منخفض القطارة ويستوعب ٤ مليون نسمة ، والوادى الجديد مليونا آخر ، وجنوب أسوان وبحيرة ناصر مليونا ونصف المليون ، ومشروع تعمير ساحل البحر الأحمر من جنوب السويس شمالا وحتى حدود مصر الغربية ثلاثة ملايين نسمة ، وأخيراً مشروع وادى الأربعين وهو امتداد للوادى الجديد ويقوم على استصلاح نصف مليون فدان وتوطين نصف مليون نسمة ، بالإضافة إلى التوسع فى المشروعات السابقة لامتصاص تزايد السكان ..

ترك الصحفى التركى القلم برهة وتابعى بآلة الجمع ..

– يكون مجموع عمليات الخطة .. نحو ٢١ مليون نسمة ..

أضفت بسرعة : ويتم تهجيرهم خلال ٢٠ عاما ...

وقالت زوجة الصحفى معقبة وهى تعبث بخصلات شعرها المصبوغ أحمر داكنا :

– وفيما بعد ، تفى معدلاتكم الجديدة بما تطبقونه من تحديد وتنظيم صارم للنسل !

أجبت ضاحكا : أن عقاقير منع الحمل تضاف لدينا بشكل عادى إلى أطعمة الكبار مثلما يضاف الملح ، ولا تخلو مائدة عائلية أو حتى فى مطعم عندنا من ملاحة منع الحمل إلى جانب ملاحة الملح المعروفة .

وشاركانى ضحكى فلما كفا تابعت : وعلى ضوء توزيع الكثافة السكانية توزيعاً عادلا ، أمكن إنماء موارد البلاد المختلفة وضمان استثمار خيراتها .

عاد الصحفى يسأل : وفيما يختص بالصناعة ؟

أجبته : إن إعادة توزيع المصانع بأنحاء الجمهورية وبخاصة الأطراف .. فيه الخير صحيا واقتصاديا وعسكريا مما لو تركزت بمناطق القلب .. والمثال الواقعى .. ما جرى لضاحية حلوان ، فقد عادت إليها سمعتها الأولى كمشتى ومصح عالمى ينفرد بجوه ومياهه المعدنية .. بعد إبعاد أغلب المصانع الضخمة التى كانت تلوثها وتخنقها ...

– إذا أنتم تعيدون توزيع مصانعكم بالفعل ؟

قلت بحماس : هذا موضوع جرى البت فيه منذ أعوام تزيد على عشر ، وقد كسبنا الكثير من ورائه ، لقد .. أمكنا الحد من تلوث الجو فى المدن وعدم الاخلال بنظام البيئة الطبيعية ، كما أنه لم يعد يجرى امتداد الصناعة على حساب الأرض الزراعية .

كف الصحفى التركى عن الكتابة دقيقة ، سألنى وهو ينقر بقاعدة قلمة على حافة المنضدة :

– لكن الموضوع ليس بالهين ؟

قلبت شفتى : ومن قال غير ذلك ، لكننا ياسيدى الصحفى الآتى من تركيا قد استعنا عليه بتطبيق نظام الحكم المحلى لأقصى صلاحياته وفعالياته .. كل محافظة لديها خطة خاصة بها .

صمت قليلا ، ثم رحت أغمغم برغمى فى صوت هامس : فلماذا العبء كله على القاهرة ؟ والقاهرة وحدها ، كان لامفر من أن تأخذ بقية الأطراف نصيبها فى إدارة عجلة الحياة ، تماما كما تقوم جمهوريتنا المصرية وكل جمهورية أو مملكة عربية أخرى .. بنصيبها فى أعباء اتحاد " الدول العربية " الكبير ..

وأقبل الساقى يقدم لنا أقداح القهوة المصنعة من مخلفات البترول ، فتشاغل كل منا يرشف قدحه بينما يعاود مراقبة الأفق وقد أوشكت أستار الظلال على إلقاء ظلالها الكثيفة ، حين سارعت عشرات البؤر الكهربية فى الاتضاح لتكون فى النهاية بحيرة مترامية من الأضواء المتجاورة اللامعة .

وهمست زوجة الصحفى وهى ترنو إلى بعينيها فأقرأ فيهما الفضول متسلطًا .

– أنت تعرف أن إقامتنا المحدودة لن تتيح لنا تفقد كافة أجزاء عاصمتكم .

فبالله ، تفضل بوصفها لنا .

قلت : باختصار لعل أهم ماراعيناه لدى إعادة تخطيطها ليس هدف التجميل فحسب ، بقدر مراعاة الهدف الصحى قبل كل شىء .

وهكذا أكثرنا من إنشاء الرئات الداخلية أمثال الحدائق وساحات النزهة ومسطحات الخضرة ، ونافورات ، وجداول المياه المكشوفة .. كما أحيطت العاصمة من جهاتها الشمالية ، والغربية ، والجنوبية بغابات من الشجر والنخيل .

أطلقت السيدة تنهيدة عميقة وهى تكرر فى تيقظ متناه : وماذا أيضًا ؟

قلت وأنا أهىء نفسى لمغادرة المكان فقد أشرف حديثنا على نهايته وبدأ الجو يميل إلى البرودة : هناك الكثير ياسيدتى مما يعدد ويقال عن قاهرة عام ٢٠٩٠م .. أقيمت دورها العلمية ومساكن طلبتها وملاعبها وساحات تدريبها بجزيرة وراق الحضر شمال حى إمبابة ، وهناك أكثر من جامعة وأكثر من مركز دراسى حكومى أهلى .. وأيضًا أكثر من ناطحة سحاب تعدت أعلاها المائة طابق .

وقفت ، ووقف الصحفى التركى إلى جوارى يلاحقنى بسؤال بينما تلم زوجته حاجاتها فى حقيبة جلدية على شكل قنينة النبيذ :

– وبالنسبة للمواصلات ، داخليا وخارجيا .

أجبته وأنا أمسك ذراعه لأقوده عبر حديقة الكازينو إلى حيث موقف سيارات الأجرة ، ودقات كعب حذاء زوجته تلاحقنا على البلاط المرمرى خلفنا :

– المواصلات الداخلية أظنك لستها بنفسك ، على النطاق الضيق لدينا الأحزمة الناقلة حول المدن والأرصفة المتحركة بطيئا بالشوارع الهامة الممنوع سير السيارات بها ، ثم لدينا التلفريك المعلق والترام الطائر ، وكذا السيارات الخاصة والأجرة

المتحركة ببطاريات الكهرباء وتجرى عبر الطرق العلوية الشفافة التى تسمح جدرانها بمرور الأشعة ورؤية المناظر المحيطة ، وأما عن النقل بأنحاء الجمهورية فهو للمسافات القريبة يستخدم الطائرات العمودية ، وللبعيدة فلديه المترو الصاروخى المعلق وأنفاق مترو البضائع ، وللمسافات الأبعد عنده إلى جانب عابرات المحيط النووية النفاثات العملاقة وتنطلق بسرعات تفوق ٤ أمثال سرعة الصوت وقريباً تصل إلى ٦ أمثاله ...

قالت السيدة التركية وهى تدس ذراعها تحت إبط زوجها من الناحية المقابلة :

– هكذا تصبح القاهرة مرآة تعكس تقدم ورقى شعب عريق ..

وفتحت أبواب سيارة الأجرة وقد عمنى شعور بالرضى ..

وما أن دلفنا إلى داخلها حتى انزلقت ببط فى الطرق المنحدر المضىء كالنهار ، وقد ران علينا سكون حافل بالرؤى .

عزيزتى ماهيتاب .. هل أطلت عليك فى هذا الجزء من رسالتى عما دار بينى وبين الصحفى التركى وزوجته قصيرة الشعر ، أرى أن ذلك هو ما حدث .. لذا .. سأحاول جهدى أن أوجز لك فحوى الاجتماع الذى عقدته مؤخراً بحجرتى .

لقد انفض الاجتماع ، وانصرف ضيفى الصحفى التركى وزوجته وبقى أن أخبرك بالمكالمة السارة التى وجدتها فى انتظارى بجهاز تلقى المكالمات ، لقد وافقت وزارة البحث العلمى على المشروع الذى قدمته لتشييد أول محطة لرصد مخلوقات البحار تحت سطح البحر الأحمر .

وللحقيقة وليس للافتخار فقد تضافرت جهودنا لإعطاء نموذج للمحطة لم يغفل ثغرة ألا أعدها أو ناقشها ، بل وجاء مضاهيا لأحدث النماذج التى جلبت تصميماتها معى من مدينة القاع .

ولقد اختبرت .. المنطقة المقابلة لمدينة القصير – فيما يبعد عن الشاطئ بثمانية كيلو مترات – موقعاً نموذجيا لإقامة المحطة تحت سطح البحر الأحمر بـ ٤٨ متراً ..

وبذلك تصبح مصر الدولة الرابعة بعد فرنسا والنرويج واليابان منذ ظهوركم التى تأخذ هذا الاتجاه الحيوى لمستقبل الجنس البشرى ..

وها أنذا أتوقع أن الغبطة قد عمتك لهذا النبأ ياماهيتاب ..

والمهم أن يبدأ أحد بعمل صغير بناء ، وحينئذ فإن الفكرة تروق لآخرين ، فتعم وتنتشر ، والعمل يكبر ، ينمو ، يصبح عملاقا ، راسخ القدمين .

ومن يدرى بعدكم من الأعوام الطوال ، سيكون هناك حقا ، وفعلا ، أناس معيشتهم الدائمة على قاع البحر . وسط فضائنا الداخلى ، المائى ، ببساطة كما نعيش نحن على سطح الأرض ، وفى قلب هوائها الجوى وتحت شمسها المتألقة .

وعندئذ فما جوهر العلاقة التى ستنشأ بين سكان الثرى وسكان اليم ؟

اللهم كفانا تقاتلا وتناحرا ، ولتجعلها يارب رابطة ود وسلام .

وأعود إلى مشروع محطتنا القاعية ، فلم تكتف الدولة به فيما يختص بالبحر بل سبقته بالعديد قبله ، مثل بناء أسطول ضخم من الناقلات عابرات المحيط .

وأسطول تجارى ثان وآخر للصيد فى أعالى البحار ، إلى جانب بنائنا أول غواصة نووية ، عزيزتى ولأجلك وأجلى ، وأجل أطفال لنا ، أسجل بخطابى دعوة السلام ، دعوة الحب الخالصة بين البشر أجمعين ، وإلى لقاء قريب ...

المحب

شادى

الفصل الرابع

الرسالة الرابعة

٢٠٩٩/١٢/٤

عزيزى شادى ..

أكتب سطورى هذه على عجل ، يعلم الله كم أبذل من جهد لأقوى على كتابتها .

بالطبع أنت قد علمت بالجريمة البربرية التى ارتكبت فى حقنا ، فى حق كل بشرى ، بل كل ماينبض بالحياة بين ظهرانينا ، وأظن أنك منذ ذلك اليوم المشؤم فى هلع وأسى عظيمين من أجلى .

شادى .. لولا حرصى على إخطارك بنجاتى ، ولولا رغبتى فى إشهاد العالم من خلالك على مدى الطعنة الغادرة التى أصابته فى شخصنا ، لما وجدت القدرة على إمساك القلم ، فأية مشقة وأى معاناة أجدهما فى تذكر الهول بعينة ، ولقد تبلورت الأمور على حقيقتها الآن ، فكم كنا بسطاء وكم كنا سانجين .

لكن فيم العجلة .. لأهدأ أولا ولو لدقائق معدودات ، ولأسطر لك تسجيل الأحداث من مبدئها .. عقب وصول الدفعة الرابعة من علماء جماعتنا إلى الأرض الأسترالية وكان ذلك صباح ١١/٨ من الشهر الماضى ، وما أعقب ذلك من اكتشاف الجاسوسين المنتحرين بإحدى غواصاتنا الحارسة ، فقد قام الحكيمان الثانى والثالث الموجودان معنا بأستراليا ، قاما بإيفادى وزميلين آخرين هما العالمة رقم ٢٢٨ ، والعالم رقم ٤٠٠ على ظهر الغواصة العائدة فى مهمة سريعة بمدينة القاع .

وقد بلغنا مقر مدينتنا القاعية السرى عصر ١١/١١ لنبادر على الفور بعرض تقريرنا على كبير الحكماء ، والحكيم الرابع وعدد من العلماء القادة ، وقد استمر اجتماع الرجال منعقدا طيلة الليل وحتى ظهر اليوم التالى ، حيث أصدروا فى نهايته بيانهم ذلك المقتضب الذى يعلنون فيه عدم توصلهم لمعرفة الدولة مرسلة الجاسوسين ومن ثم فقد أرجأوا البت فى الأمر بعض الوقت ..

وبانتهاء مهمتى وزميلى أصبح فى مقدورنا العودة إلى القارة الأسترالية مع أفراد الدفعة الخامسة ، وبالفعل قد سافر ضمنا كل من رقم ٢٨٨ ورقم ٤٠٠ غير أنى فضلت التخلف إلى الفوج السادس والأخير لأكون فى صحبة كبير حكمائنا ، والذى لم يطاوعنى قلبى على تركه بعد الذى لاحظت من اعتلال وتأخر فى صحته .

ولا أكتمك سرا ياشادى إذ أقول لك أننى أجد فى حكيمنا الشيخ هذا صورة شديدة القرب من المرحوم أبى .. فى طيبته وهدوئه واتزان تصرفاته .. وحتى فى ملامح وجهه الهضيمة وهموم الدنيا التى يرزح تحتها كاملة على الدوام ..

أجلت سفرى كما ذكرت إلى حيث تغادر الدفعة السادسة مقر مدينتنا فى نهاية الأسبوع القادم .

وحيث اصطحب كبير الحكماء .. لكن موعد تحرك هذه الدفعة من علماء جماعتنا تأجل برمته أسبوعاً آخر ؛ وسبب ذلك وفاة الحكيم الرابع نتيجة حادث ارتطام غواصة جيب كان يستقلها ببروز صخرى لم يتبينه قائد الغواصة على مايبدو .

ولما كان العالم الحكيم الرابع مسيحى الديانة ، فقد أقيمت صلاة الجنازة على روحه ، كالمتبع عادة لدى زملائنا من المسيحيين والتى يعقبها حمل الجثمان ليدفن فى مقبرة الحديد العامة ، فى الركن الخاص بأصحاب الدين المسيحى .

ويبدو لى أنه قد سهى علينا أن نريك وزميلتك عند مجيئكم لدينا تلك المقبرة المبتكرة والخاصة بظروف معيشتنا القاعية أسفل تراكمات المياه المالحة .

ومقبرة الحديد العامة تمتد على مساحة أرض قاعية مستوية تقع إلى الشرق من قطاع المناجم بنحو ٤ كيلو مترات .

وتتقسم مساحة المقبرة لعديد من المستطيلات المسورة ليس للفصل وإنما التمييز بينهما فحسب .

بحيث يضم كل مستطيل منها ومساحته لاتقل عن ٥٠ مترا مربعا رفات أتباع واحدة من الديانات المختلفة .. من الإسلام والمسيحية إلى البوذية .

على أن الغريب أو قل الذى دعت إليه حاجة الوجود القهرى أسفل المياه ؛ إنما يتركز فى " أوعية " حفظ جثث موتانا وجميعها تصنع من الحديد السميك وتأخذ حجم بدن المتوفى .

عقب صلاة الجنازة حمل جثمان الحكيم الرابع إلى حيث تم تحنيطه وهذه عادة تتبع حسب ما يوصى به المتوفى .. وغالبًا ماكان منشؤها حنين البعض منا إلى أهله حتى يرونه ولو بعد مماته يوم تتحقق أهداف الجماعة ويتم الانفتاح على دول العالم .

ما أن تم تحنيط الجثمان حتى أودع وعاءه الحديدى ، وحين أحكم غلق غطائه الذى لا يسمح بتسرب الماء إطلاقًا اتضح لنا نقش معبر لقسمات وجه الرجل الحادة الخطوط والثنيات كما ألفناها طويلا ، كما اتضحت لوحة باسم وتاريخ حياته ثبتت على الجانب الأيمن للوعاء .

وطبيعى أن تحمل غواصة جيب الوعاء وبه الجثمان مع لفيف من المودعين إلى موقع المقبرة ، حيث تسوى رمال القاع البيضاء فى الجزء المخصص ويترك الوعاء التابوتى رابضا بثقله فوق الرمال تحيطه المياه مباشرة .

أخيرا حان موعد رحيل الدفعة السادسة بآخر أفواج علمائنا ، ومن بينهم كبير الحكماء الذى استرد بعضا من عافيته وأنا .

وفى أول ليل ١١/٢٨ قرابة الساعة السابعة بدأ تحرك الغواصات الست آخذة طريقها المعهود تجاه قارة أستراليا .

وقرابة الثامنة والنصف تسللت آخر الغواصات الحارسة وقد حملتنى وكبير حكمائنا ضمن أفرادها .

وكانت غواصتنا ورقمها ٣ قد تأخرت عن بقية زميلاتها التى سبقتها بـ ٣٠ دقيقة كاملة ، غير أن مسألة التأخير هذه كانت ثانوية من السهل علينا تداركها خلال الطريق .

ولتسمح لى بوقفة هنا ياشادى ، لكن كيف أعبر لك عما أقصد قوله ؟ وهل حقا من المنطق أن حادثة أقل ما توصف به أنها عادية ، بل وتافهه ، يترتب عليها مثل الحدث الضخم الذى وقع ؟ أعرف أمثالا تشير إلى أن ترتيب الشخص منا لأمر ما شىء ، وترتيب القدر الفعلى شىء يختلف بالمرة ، لكن أن يكون أحكام القدر وتدبيره بمثل الصورة المذهلة التى تحققت بالفعل وبهذا التوقيت البالغ الدقة فهذا هو المثير والخارق فى تقديرى .

بغته وعقب الإقلاع بنحو ١٣ ساعة أصيب واحد من أفراد العلماء الذين تحملهم غواصتنا بنوبة قىء قاسية ، ولما كان شابا ضعيف البنية أصلا فقد صحب القىء هبوط عام شمل قلبه وتنفسه ، وشغل بقية العلماء فى الغواصة بحالة زميلهم وأولهم كبير الحكماء الذى قام بغالبية الإسعافات للشاب العالم بنفسه ، حتى استرد هذا قواه فى النهاية .

وكما ترى فلقد شدت قسوة مرض الزميل العالم كل انتباهنا طيلة ساعات ثمانية . وإذ كنا من المبدأ قد تأخرنا عن بقية قطع القافلة البحرية بـ ٢٨ ميلا بحريا لسابق بدئنا فى التحرك عنهم ، فقد فوجئنا الآن وبعد مرور عشر ساعات على بدء مسيرنا بتخلفنا عن بقية القافلة بمسافة زادت إلى ٩٠ ميلا بحريا .

وهكذا فرغم إصدار الأمر لأجهزة التوجيه الآلى اللاسلكية فلن يمكننا تعويض كل الفارق بيننا وبين الغواصات التى سبقتنا خلال الوقت المتبقى لدينا .

لاسيما وأن السرعة ربما أضرت بصحة زميلينا المريض ، والذى مايزال يعانى دوارا رغم تحسنه .

وبالنسبة لمسار قوافل غواصاتنا ، فحسب ضرورات الأمن قد كنا نلزم كل دفعة من القوافل بإتباع خط للسير يختلف عن سواء فى الذهاب أو فى الإياب عن خط سير

الدفعة التى سبقتها ، وذلك حسب برنامج مدروس يعده الحاسب الإلكترونى بمنتهى الدقة والحذر .

وقد وجدت كبير الحكماء يسأل واحداً من العلماء من مرافقينا بينما يتفحص صفحة المحيط بمنظاره المسمى بالبيروسكوب فى اهتمام عن خط سير قافلة الدفعة الأخيرة التى تتبعها غواصتنا ، مضيفاً لقد كانت معى لكنى شغلت عن مراجعتها .

فأجابه عالم أجهل رقمه بقوله : أستطيع أن أحضر لك الخريطة ياسيدى .

وحين نشر كبير الحكماء الخريطة اندمج معه عالمان آخران راحا يساعدانه فى إدخال بعض التعديل على خط السير بحيث يمكن اختصار الجزء الأكبر من الوقت والمسافة التى تفصل غواصتنا عن بقية غواصات القافلة .

وبث رسالة لاسلكية عاجلة بالتعديل الجديد إلى مدينة القاع ، وسرعان ما جاء الرد باستدارة الغواصة حتى تأخذ مسارها خلال الطريق المختصر .

ومرت ١٧ ساعة مملة راح أفراد طاقمنا يزاولون فيها أعمالهم الرتيبة ، وقد استلقى بعضهم يتابع تقدم غواصتنا حتى أصبح الفاصل الزمنى بيننا وبين الغواصات الخمس التى تسبقنا ٥٠ دقيقة ، وفاصل المسافة البحرية ٤٥ ميلا .

أجرى كبير الحكماء اتصاله الثانى بقادة الغواصات الخمس فأخبروه أن كافة أفرادهم بخير ، وأنهم أصبحو يرون الشاطئ الأسترالى الغربى ممتدا على مرمى البصر .

وبعد ١٠ دقائق اتصلت بنا هذه المرة قيادة الغواصات لتعلن نبأ وصول أولاها ميناء هدلند .

كذلك علمنا بضيق المسافة بيننا والشاطئ الأسترالى إلى ٤٠ ميلا بحريا ، كما أصبح الفاصل الزمنى ٤٠ دقيقة فحسب .

بعد خمس دقائق وقد أصبحت الساعة ٥٥ر١٠ صباحًا ، طلب كبير الحكماء إعادة رفع وتثبيت منظار البيروسكوب فوق سطح المياه ..

كان الأفق بدائرة حول الغواصة خاليا من أى أثر طبيعى خلاف هامات الموج العاصف بعض الشىء ..

حينئذ صدر أمر بصعود الغواصة لتعتلى اليم بعد أن وصلت حد الأمان قرابة نهاية رحلتها .. الساعة الآن ١ر١١ ، وقد صعدت الغواصة من العمق البيروسكوبى إلى حالة التعويم الكاملة ..

الساعة ٤ر١١ : اعتلى كبير الحكماء ومعه لفيف من العلماء الشبان وأنا برج المراقبة .. حيث راح الهواء الرطب يلفح وجوهنا بقسوة ، وقد بدت صفحة المحيط أقل هياجا مما كانت ترى من خلال منظار البيروسكوب . فى حين كاد قرص الشمس يصل منتصف السماء فوقنا غامراً هاماتنا وجسم الغواصة الشبيبة بحوت عنيد بفيض من أشعة القوية .

الساعة ٦ر١١ : أصبحت المسافة بيننا وبين شاطئ القارة ٣٦ ميلا بحريا ، والفارق الزمنى ٢٤ دقيقة ، أما صفحة المحيط فهى خالية تمامًا من حولنا ، كذلك السماء تكاد تكون رائقة ألا من بضع سحابات قائمة انفرشت بطول لجنوب الغربى .

الساعة ١٠ر١١ ضاقت المسافة إلى ٢٣ ميلا بحريا ، كما ضاق فاصل الزمن إلى ١٦ دقيقة .

على غير انتظار صاح عالم شاب منحنى الأنف متطاير الشعر ، وهو يرفع عيناه لأعلى ويضيقهما اتقاء لوهاج الشمس ..

– ماهذا ؟ انظروا ..

وتتبعنا اتجاه بصره ونحن لم نفق من وقع الصيحة المباغته ، ولمحنا مايشير إليه أربعة عقبان فضية شديدة اللمعان كانت تمرق إلى الجنوب هنا أسفل حافة أدنى السحابات القائمة فى مجال رؤيانا ، أربعة عقبان بدت ثقيلة رغم اندفاعها بما يزيد على سرعة الصوت ربما مرة ونصف .

هتف كبير الحكماء : أهى قاذفات قنابل ... ؟

قال عالم ورقمه ١١٧ : هى قاذفات استراتيجية نفاثة ..

تتم كبير الحكماء : معنى ذلك أنه لم تأخذ كامل سرعتها ، التى تفوق سرعة الصوت بخمسة أضعافه .. أو أكثر ..

ومددت عنقى وأنا فى وقفتى على حافة شرفة برج القيادة ، مددتها ثم أنحنيت أركز بصرى إلى أقصى مداه ، ودمدمت متسائلة :

- ألم يتبين أحدكم هوية النفاثات ؟

اهتزت الرءوس من حولى بالسلب ، وحين عاودت الأعين محاولات الحملقة من جديد كانت العقبان الأربعة قد أختفت فى طيات الأفق الغربى حيث نتجه .

الساعة ٤١ر١١ : باقى ١٣ ميلا بحريا و ١٦ إلى ١٨ دقيقة على لحظة الوصول .

وخلال دقائق سوف تتضح معالم ميناء هندلند الموقع الذى نقصده رأساً .

فى قفزات محمومة اختطف درجات السلم صعوداً عالم شاب من أصل زنجى .

قبل أن يصل نهاية سلمات برج المراقبة ، وجه إلينا كلمات متحشرجة ووجهه يرتفع نحونا ناصح البياض .

- إذاعة لنا من أستراليا ، أعلنت ، تعرض مدينة كارنارفن للهجوم .

اجتذبت أذرع قوية الشاب ، فغر كبير الحكماء فاه : ماذا تقول يارجل ؟!

- استمعت توا لإذاعة تعلن تعرض المدينة الأسترالية للهجوم .

جذب كبير الحكماء العالم الشاب من كم قميصه : هجوم ممن ؟

- لقد خرص البث الإذاعى عقب النطق بكلمة " تتعرض للهجوم " .. ولم يزد ....

لكنى فى هذه اللحظة قطع العبارات الهلعة المتبادلة لمعان برق أبيض يفوق ضوء الشمس ، خطف أبصارنا فيما وراء الأفق الشرقى .

بريق بالغ الإبهار امتدت ألسنته إلى مقلتى وانتزعتهما من مكانهما عنوة فلم أعد أرى شيئًا .. وبينما نغطى وجوهنا بأيدينا إذ بدمدمة وقصف يهزازننا بعنف ويعصفان بآذاننا فى وحشية ..

وتجرأ العالم الشاب على فتح عينيه .. وصرخ فى صوت ينأى عن الآدمية وهو يشير بيد متحجرة ...

– ياللهول ..... هناك .. هناك .. انظروا ....

وفتحنا أعيننا الدامعة التى مايزال العشى يحط عليها ، ولدى الأفق الشرقى أيضًا .. بعيداً .. بدت تلك السحابة الضوئية العكرة وهى تتوغل إلى عنان السماء .. كانت أشبه بعمود أسود غليظ تتفرش حافته العليا ليخرج من وسطها عمود آخر أقل سمكا وطولا تعلوه بدوره قبة رمادية كريهة ..

وتمتم كبير الحكماء فى هلع : عيش الغراب ......

وانصبت كلمة الشيخ فى آذاننا حممًا مصهورة ألجمت ألسنتنا وسمرت أقدامنا ، فقد وعت عقولنا فى لمحة الطرف معنى التشبيه المقيت ..

ويومض البريق الأبيض من جديد ، وتعود أعيننا تنغلق أو تنخلع تلقائيا وقد جثم علينا نوع من الضياء أسكت كل ما عداه من أحاسيس ، فلما فتحنا أعيننا المتورمة للمرة الثانية كان عمدان من عيش الغراب قد انغرسا إلى جوار الأول السابق عليهما ، وبدا المشهد رغم غرابة شكله مثيراً للغثيان مستدعياً لأقصى مشاعر اليأس والقنوط ، بينما تحدى الصمت المطبق صوتا لا ندرى من أية شفتين صدئتين خرج !

– أنهم يبيدون ميناء هدلند الذى نتجه إليه ...

وجرت نبرات صوت آخر كأنها زجاج ينشرخ :

– أنهم يقصدون غواصاتنا ، أنهم .. يقصدوننا ، قصف كارنارفن وهدلند يعنى أنهم عليهم اللعنة يقصدون إبادتنا فى مراكز تجمعنا .

وحملقت أتفحص الأجســاد المجمــدة والوجـوه المذهـولة المرتعبـة من حـولى ، ولم أتمالك نفسى فصرخت وأنا أنتفض وأبكى دون وعى منى : وفيم انتظاركم ؟ انزلوا ، أختفوا فى جوف الغواصة ، واهربوا بجلدكم من الهلاك الحاقد المتربص بنا .

قفز الرجـال من حولى وقد مسـتهم كلماتى الآمرة فتحـولوا إلى أطفـال هلعين صاغرين يطيعون إرادتى بما فيهم الشيخ المهيب كبير الحكماء ..

وهكذا فى أقل من دقائق أربع كانت غواصتنا قد غابت فى أعماق اليم ، وخلال خمس دقائق تالية كانت قد أطلقت الجدار الموجى حولها وهبطت إلى عمق بعيد مأمون وبعدئذ وعلى امتداد نصف ساعة كاملة كان قد تم تقسيم أفراد الغواصة ومؤنها إلى ثلاثة مـجمـوعـات ، تصـافـحت بحـرارة ثم توزعت ، وحـينئـذ أغلقت أبواب الطـوارئ وأنزلت صـفـائح وجـدران الوقـاية ليـتم فى النهـاية تجـزئة الغـواصـة إلى ثلاثة أجـزاء أصغر انفصلت وانطلق كل منها فى اتجاه .. على لقاء بالتقابل لدى المكمن السرى فى مدينة القاع ..

وكان الجزء من مؤخرة الغواصة الذى انفصل عن وسطها ومقدمتـها يضم كبير الحكماء ويضمنى مع تسع من العلماء رفاقنا ..

لكن حين وصلنا نحن الأحد عشر فرداً إلى مدينة القاع فإن الجزئين الآخرين من الغواصة بأفرادهما لم يرجعا ، ومع طول انتظارنا فإطلاقًا لم نتوقع رؤيتـهم أو سماع أصواتهم بعد ذلك ..

كما لم يعد بأنحاء الدنيا يسمع صوتا لنا ، لا من بين أشلاء المدن المدمرة بغرب القارة الأسترالية ولا من أى مكان آخر مع طول ودقة والاصرار على التنقيب عنا ......

وأخيرا ، فهل استطعت أن أعطيك رؤية صادقة للهول الذى لا نعرف للآن كيف نجـوت وكبيـر الحكمـاء وعدد من الزمـلاء ، من براثنه ؟ هل وفقت حقـا فى نقل وقدة مشاعرى دون أن أثقل عليك بغضبى وأساى ورغبة الانتقام التى تمزق صدرى لأول مرة فى حياتى ؟

لا أدرى ، لكن الذى أعلمه ، بل أحسسه عميقا ملحا ، أننى لم أعد أقوى على التحكم فى أصابعى المرتعدة حول القلم لاستمر فى الكتابة إليك .

وهذا كل ما لدى لأقوله لك ، ويبقى أن أتحامل فألفظ بدل من كلمات الوداع قولا يفتقد معناه .... " إلى لقاء يا عزيزى شادى " .. وأن كنت لا أعلم متى يحين ذلك اللقاء .

المخلصة

ماهيتاب

الفصل الخامس

الرسالة الخامسة

الجمعة ١٧ ديسمبر سنة ٢٠٩٩م

إلى العزيزة الأثيرة ماهيتاب ..

إليها أينما تكون ، إليها متى تتلقى كلماتى هذه ، إليها بكل ما لاقاه شبابها الغض من قسوة ومعاناة .

وإلى أن يحين خلاص روحها وسط تحرر ملايين الأرواح البشرية على جرم الأرض المرتعد .

إلى العزيزة الأثيرة الصغيرة على مجابهة نوازع الشر الراسخة أبدا فى نفوسنا .. نوازع التدمير والإبادة السارية الحارقة فى كل لحظة بدمائنا .

تسلمت رسالتك منذ أسبوع يا ماهيتاب ، وقرأتها ، لكننى لم أقو على الرد عليها . الكمد والقهر شلا قدرتى على مجرد الجلوس والتفكير فيما أحاق بك . فهل انهارت كل آمالى الباسمة معك حقا ؟

وحين طلب منى السفر فى مهمة نائية بالمحيط الهندى لم أتردد فى قبول العرض ، ومع هدير محركات الطائرة النفاثة بدأت أستدعى كل خاطرة تدور حولك بعمق ذاكرتى ، فلما اجتازت الطائرة مضيق باب المندب العربى وتدانت صفحة المحيط المترامية ، حينئذ انطلقت ببصرى عبر النافذة أجوب الموج بحثا عنك وعن طيفك الرقيق الفاتح ذراعيه فى مواجهتى .

أين أنت اللحظة يا ماهيتاب ؟ أين بالله تستقر مدينتكم العظيمة .. الحالمة ؟ وعلى أى قاع تربض فى جلال ومهابة ؟

لقد غدر بكم أعداء الإنسانية وما أكثر ما يؤمن الإنسان بسلاح الغدر طريقًا ومسلكًا لرغباته الآثمة .. لقد فاجأتكم النفاثات المجهولة الهوية بعدوانها ولكن هل يجهل الحقد المتأصل ضد كل ما فيه خير الإنسانية ؟

لقد انقضت النفاثات المجهولة وبضربة نووية رائعة - هكذا وصفت بعض الألسن الصحفية المأجورة - قلبت المنطقة أتونا ملتهبًا على الدخلاء ، على جماعتكم أنتم بكل ما أتيتم به من خير وأمل لأمة كوكب الأرض ..

بل اسمعى ، فحين تسلمت خطابك الثانى والذى ورد باسم صديق لى إمعانًا فى التخفى كما سبق وطلبت منك متى ووجهت بأزمة خطر ، حين تسلمت خطابك هذا كنت فى زيارة لأحدى دول أمريكا الجنوبية ، فلما أرسل صديقى خطابك فور وروده إليه ، وفضضت المظروف الأصفر ورحت التهم سطورك المطموسة التشنجة على عجل ..

أجل يا ماهيتاب بينما كنت أقرأ رسالتك إلى ما الذى صك سمعى وقتها وفى قسوة طعنات الخناجر .

لقد راح واحد من باعة الصحف ينادى بخارج نافذتى على صدور طبعة جديدة من صحيفة مغرقة فى همجيتها ، مغرقة فى انحطاط فكرها ، راح البائع يردد منغما العنوان الأحمر فى لون الدماء ممددا فى نهايات الكلمات .... " أخيراً .. قد قضى .. على .. الوباء " .

وغيرها وغيرها من صحف ومجلات وإذاعات ، لكن لا تصدقى أن هذه كلمة الشرفاء ، ليس هذا قولهم ولن يكون أبدا مسلكا ينهجونه . وهل عرفنا يوما أن صاحب كلمة مضيئة يتراجع عنها غدرا خسة كما فعل مرسلوا هذه النفاثات الحقيرة ؟

وأن كان اليوم الشرفاء مغلوبين على أمرهم .. فغدا بدفعة جديدة منكم أو بوقدة تشتعل باشتعال حماسكم .. فأنهم حتمًا سيثورون على الأوضاع غير الطبيعية السائدة .. وحينئذ وبمشيئة الله ستستقيم الأمور كافة وتعود بشائر السلام مرة أخرى .

وفى أعقاب الضربة الغادرة فقد ساد العالم صمت ووجوم ثقيلان أشبه بصمت ووجوم الفناء ...

لكن مع مرور الأيام تعالت أصوات جادة ، واندفعت أقلام قوية نزيهة ، وطرح أكثر من تساؤل فى أكثر من موقع بأنحاء دنيانا ، هل سيظل الغدر سمة لاصقة بالإنسان ؟ هل كتب على البشر أن ينساقوا طوع أطماعهم ؟ وترسف الأجيال تلو الأجيال فى أغلال الأسى والضياع ؟ هل فى أعماق ابن آدم مغناطيسية تشده دومًا إلى ما فيه هلاكه ، تدميره ، هدم حضارته ومحو وجوده ؟

وقريبا سيعود الناس إلى حياتهم اليومية الرتيبة فى كل مكان ، لكن وقدة الأمل لن تخمد إطلاقًا فى صدورهم ما بقى سر مدينة القاع مغلقًا مجهولا ...

ما بقى إناس مثلك يا ماهيتاب ومثل كبير حكمائكم ، إناس يتخذون من العلم والضمير الحى أقوى سلاح لهم .. ولن يكرروا خطأ وقعوا فيه حتى عن نية حسنة ...

وحينئذ فإن يقظة ضمير العالم ستكون أكثر عنفًا وأكثر تحكمًا ...

ودمت لى يا حبى الأوحد ترعاك عين

الآله .. فى مقرك الحصين بصدرى .

المحب

شادى

(تمــــت)

المؤلفـــات

(أ) فى الخيال العلمى :

قاهر الزمن ، (رواية) روايات الهلال / دار الهلال ، ١٩٧٢ .

رقم ٤ يأمركم ، (م. قصص) كتاب اليوم / دار أخبار اليوم ١٩٧٤ .

الماسات الزيتونية ، (م. قصص) اقرأ /دار المعارف ١٩٨١ .

الذى تحدى الأعصار ، (رواية وقصص) الهيئة العامة للكتاب ١٩٨٢ .

أنا وكائنات الفضاء ، (م. قصص) كتاب اليوم / دار أخبار اليوم ١٩٨٢ .

سينما الخيال العلمى ، (دراسة ، ترجمة) بقلم دينيس جيفورد / دار الأمانة ١٩٨٥ .

الشىء ، (رواية) الهيئة العامة للكتاب ١٩٨٩ .

أحزان السيد مكرر ، (مسرحية) الهيئة العامة للكتاب ١٩٩٠ .

بالإجماع ، (م. قصص) اتحاد الكتاب العرب / دمشق ١٩٩١ .

مؤلفات نهاد شريف جدا ، (رواية وقصص) الهيئة العامة للكتاب ١٩٩٤ .

نداء لولو السرى ، (م. قصص) اتحاد الكتاب العرب / دمشق ١٩٩٤ .

ابن النجوم "الأب" ، (ثلاثية روائية) جـ١ / شركة نهضة مصر ١٩٩٧ .

الدور الحيوى لأب الخيال العلمى (دراسة) كراسات مستقبلية / المكتبة الأكاديمية فى ثقافتنا العلمية ١٩٩٧ .

تحت المجهر ، (رواية) مسلسل أسبوعى بجريدة الأهرام ٢٠٠١ .

تحت الطبع :

١ – جـ٢ ، جـ٣ من رواية " ابن النجوم " .

٢ – دراسة " العطاء العربى فى أدب الخيال العلمى " .

٣ – رواية " سكان العالم الثانى " .

٤ – دراسة " كتاب الخيال العلمى ورؤاهم المذهلة " .

٥ – مسرحية " غول الميناء " .

٦ – دراسة " الممكن والمستحيل من رؤى الخيال العلمى " .

(ب) فى غير الخيال العلمى :

توماس إديسون معجزة العلم ، (دراسة) علماء عاشوا بالأمل / دار المعارف ١٩٩٢ .

تأملات فى العلم والثقافة ، (مقالات) الهيئة العامة لقصور الثقافة ١٩٩٦ .

شارك فى مؤلفى : يوسف السباعى فى ذكراه (الهيئة العامة) وألوان من الأدب المصرى الحديث (دار كتابى ٠ ٧٩ ، ١٩٧٩) .

طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

رقم الإيداع ١٧٣٨٩ / ٢٠٠٥

عقلي محدود وجسدي مكدود، لكن مشيئتك أذنت بانطلاقي، فسعيت، وقفزت، إلى عدد قريب من أكوانك، فهل بلغت جزءاً يسيراً، من حافة سماء من سماواتك؟ لا أدري.. يارب إنني لا أنفذ إلا بسلطان، سلطانك وحدك، إنك تلدنيني من أول ومضات حضارة الفضاء بعد أن هيأت حضارتي الأرض والقاع، وأسارع بخفض بصري، وطأطأة رأسي.

